العرب
من الفناء إلى البقاء

الحلم العربي واقعياً عند مصطفى النشار

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

ممدوح، محمد
العرب من الفناء إلى البقاء: الحلم العربى واقعياً عند مصطفى النشار/ د. محمد ممدوح.
- القاهرة: نيو بوك للنشر والتوزيع/ ط ١/ القاهرة: ٢٠١٧م.
٢٩٦ص؛ ١٤×٢١سم
تدمـــــك: ٩-٣٢-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٠٥٤١
١- الحضارة - تاريخ
٢- التاريخ - فلسفة
أ- العنوان ٩٠١،٩

دار النشـــــر: نيو بوك للنشر والتوزيع
عنـــوان الكتـــاب: العرب من الفناء إلى البقاء الحلم العربى واقعياً عند مصطفى النشار
الـــكـــاتـــب: محمد ممدوح
رقـــم الطبعـــة: الأولى
تـاريـــخ الطـبـــع: ٢٠١٧

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيو بوك
٦ عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة
ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤
newbooknb@gmail.com

العرب
من الفناءِ إلى البقاءِ

الحلم العربى واقعياً عند مصطفى النشار

د. محمد ممدوح

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع
2017

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[المجادلة: 6 - 7]

الإهـداء

إلى صديقيَّ عُمرى

الأول عميد شرطة... السيد محمود الشربينى....

فقد تعلمت منه اليقين فى الأمل... والصبر عند المحن.... فكتبت هذا الكتاب فى جوف المحنة... دون أن يساورنى شك فى ميلاد المنحة... نعم، قد يغيب توقيتها، ولكن يبقى الأمل فى وجودها....هكذا علمنى .. وهكذا همس إلىَّ....

فى قلب المحنة، وفى شدة المرض، وفى الطريق نحو المجهول...

أبكى أمامه بكاءاً صامتاً... يتحول إلى انفجار فى قلبى وعينى عندما أخلو بنفسى... أنتقى كلماتى أمامه فى شدة المحنة لئلا أتذكرها فلا أستطيع مقاومة دمعى الحاضر على الدوام، قد يكون بسبب، وكثيراً ما يكون بغير سبب غير الحزن على حال أمتنا وحال الضعفاء والمساكين والمعوزين.

مـن رحم هذه المحنة التى مرَّ بها صديق عمرى وتجرَّعت ألمها تعلَّمت الصبر... قفزت فوق التاريخ أسـتطلع مسـتقبله، وعلَّقت بصرى بالسماء أياماً طوال... أشـكو إليها بثى وحزنى.. وهى حتماً تسـمع صوتى، وتعلم همـسى، وترى دمعى... وكم كان حنوها... وكم بلغت رحمتها، ففى اليوم المشـهود، جلسـت أصلى ليل نهـار، يلهث لسـانى بالدعـاء، ويهفو قلبى بالنداء، وكأنى انتظر المجهول.... أسارع الليل لأشق منه النهار.... أنادى الفجـر بالخروج حتى ولو حملـنى إلى الموت.... ولكنـه كان الأمل الذى

شـق ظلام اليأس، ليتصل بى مدير مكتبه، لم أسـمع غير كلمتين «مبروك يا.....».

أغلقت فرحتـى الهاتف رغماً عنى... لم أدر هل طار عقلى أم ظل حبيس الرأس... طرت إلى مستشـفى الشرطة لأسـتطلع الخبر بعينى، وليطمئن قلبى، وجدتـه ينظر إلىّ نظرة الشـكر والرضا، يلوح لى بيـده، تكلم ولم يتكلم... أحسـن التعبـير دون أن يتفوه ولو بحرف ..... هدَّأ مـن روعى وقتل جزعى بابتسـامته، تلك التـى نزلت على قلبى برداً وسـلاماً، ليدلـل بعمق وبحق أن الأمل وليد اليأس، وأن المنحة الوليد الشرعى للمحنة.

من هذه المحنة تعلَّمت وتيقنت بأن هذا الفكر حتماً سـيجد من يؤمن به يوماً ما، وحتماً سيجد مَن يُضحى لأجله بالمُهج والأرواح، وحتما سينعم أبناء العروبـة بالأمة الواحدة التى تنكسر على صخرتها الحدود ..... وتذوب على عزيمة عتبتها القيود، وسنرى الأمة الواحدة... الأمة القوية ..... وسينعم بها الأبناء والأحفاد، ليروا بأعينهم واقع حلم آبائهم، وليقرئوا ما كتبناه، ليكون شـاهداً لنا عندهم، وليعلموا أن النضـال للوطن هو أشرف نضال، وأن الحياة للقومية هى أشرف حياة .....

أما الثانى فصديق الصبا ومن قبله حيث عالم الغيب، إلى حيث لا حيث... المستشار قدرى مهنى...

ذاك الأمـل الذى ينبعث فى قلبى عقـب كل ألم، وتلك الفرحة التى تقتل فى صدرى كل حزن.... أشـعر بأبوته عند المحنة... ثم يتقاذفنى الإحسـاس بأخوته عند الشدة.... ثم يتسارع إلى نفسى إدراك صداقته...

عند الألم هو أول الحضور... وعند الأمل هو صاحبه ومبعثه ومصدره...

عند الشـدة هو صاحبها الأول... وعند الرخـاء هو المبارك الأول... هو مـن رافقـنى صبياً، وأيـدنى كاتباً وآمن بخطئـى وهو يعلم أنـه خطأ، وغفر هفواتى وهو يمتضغ مُرها، فلا هو بالمتضع... ولا هو بالمتألم..

إليكما أهدى أفضل ما كتبت فى حياتى... وأشرككما أروع ما حلُمت به فى حياتى... فلا أجـد أفضل من هذه الثمرة لأهديها لكما... فلتقبلا منى هذا الإهداء المتواضع.

محمد ممدوح

شكر وتقدير

من جوف قلبى يخرج شـكراً عميقاً واحتراماً وتقديراً لا حدَّ لهما منبعثاً إلى كل من سطر ولو حرفاً فى النهضة العربية وما يؤدى معناها من وحدة أو تكتُـل أو حتى خلافة عربية أو إسـلامية، فكل من سـار فى هذا الطريق لا شك أنه بطل وفارس نبيل فى زمن قلَّ فيه الفرسان، ومناد حق فى زمن ضاعت فيه كلمـة الحق، ومناضل فى زمـن عكف الناس فيه عـلى الدرهم والدينار، ومؤثر على نفسـه غيره من بنى جلدته وسـط الأنانية والنرجسـية التى تغزو عالمنا العربى والإسلامى اليوم.

تحية احترام وتقدير إلى فيلسـوف العرب مصطفى النشار، مجدد الأمل فى ميلاد فجر تلك النهضة، و إلى كل ضمير عربى حر يؤمن بالقدرة على صناعة تلك النهضة القومية، و يؤمن بالوحدة، و إلى كل من يشـارك فى هذه المسـيرة ولو بشطر كلمة.

على سبيل التقديم

قبل البداية.. أثر وحكاية

تعلمنا منذ الصغر، منذ أن كنا طلاباً بكُتّاب القرية، أن كل شيء يجرى بقدر، وأن الذى يقدر تلك الأقدار خالق الكون سبحانه، فعلينا أن نسلم بالقدر، ونؤمن به، خيره وشره، حلوه ومره .. هكذا كان أول دروس الحياة، الإيمان بالقدر والرضا به..

لم تتغيّر قناعتى الشخصية بهذا الدرس حتى اليوم، بل زادته الأيام يقيناً، وأضفت عليه التجارب مصداقية لا متناهية الأعماق، فقد قدّر الله لى الالتحاق بالقسم الأدبى فى الثانوية العامة، كما قدُر لى سبحانه معلماً للفلسفة يكره الفلسفة والفلاسفة ويظنها إلحاداً وكفراً وزندقة ومئات المصطلحات التى تؤدى ذات المعانى، وكم كان هذا المعلم مثيراً لدهشتى، إذا كنت أنت تكره الفلسفة فلماذا التحقت بها؟ ولماذا تدرسها؟ أليس الأشرف لك أن تبحث عن مجال تتقنه وتقتنع به على الأقل كى تكون مفيداً لنفسك ووطنك كما تزعم دائماً، وعلى الأقل حتى تنجو من وخزات الضمير التى لحقتك جراء تعليمك للفلسفة!!

شكوك كثيرة تحاصرها أسئلة أكثر دارت فى خلدى آنذاك..

وبنفس القدر الذى أدخلنى إلى القسم الأدبى، وبذات القدر الذى ساق إلىّ هذا المعلم ليُدرس لى الفلسفة، ساق لى القدر أيضاً هذه المرة كتاب «فلاسفة

أيقظوا العالم» للدكتور مصطفى النشار، وجدت الكتاب فى مكتبة المدرسة، وما أن التقطت عينى كلمة «فلاسفة» حتى أخذته بحرارة لا مثيل لها، أريد أن أعرف الحقيقة، هل الفلسفة كفر و إلحاد وزندقة؟ وهل المشتغلين بها هم الكفار على الدوام؟

وعكفت على قراءة الكتاب من أول الإهداء حتى الفهرس، فهمت الكثير، ولكن ما لم أفهمه أكثر، خلُصت بنتيجتين مؤداهما أن الفلسفة مجرد فكر لمفكرين، هذا الفكر بمثابة الابن الشرعى لظروف المفكر وبيئته وأحداث عصره، كما أن الفلسفة وسيلة لنهضة أى مجتمع، وما تقدم الغرب وصفع الشرق على وجهه إلا لأخذه بالعلم والفلسفة والتماسه لأبوابهما، وما تأخر الشرق عن الركب إلا بمثل هذا المعلم وأشباهه وما أكثرهم، فما أقل ما يقرءون، وما أقل ما يفهمون، وما أقل ما يصمتون!!

وكعادتى فى العناد الفكرى دائماً، أخذت الكتاب معى إلى المدرسة، وواجهت المعلم بالقول «يا أستاذ حضرتك قلت أن الفلسفة كفر، ولكن الدكتور مصطفى النشار يقول إنها دليل للإيمان ومرشد إليه و...»، فقاطعنى الرجل بحدة كانت تكفى لأن تخلع قلبى من موضعه، وفاجئنى بإجابة غير متوقعة بالمرة قائلاً: «مصطفى النشار دا كافر».

إذا قلت هذه الكلمة عن الدكتور مصطفى النشار فإنه لا يحق لى أن أغضب، أولاً لأننى لا أعرفه وثانياً لأن كل علاقتى به مجرد قراءة أحد مؤلفاته.. وثالثاً لأن سمعة الفلسفة والفلاسفة أسوأ ما يكون!!

ولكننى وجدت نفسى غاضباً حكيماً، كنت متماسكاً بقدر ما أتميز من الغيظ، وسألته مرة أخرى « كيف يكون مصطفى النشار كافراً وقد ذكر

آيـات من القرآن الكريم فى كتابه؟ وكيف يكون كافراً وهو يهدى الكتاب إلى بنى البشر و إلى الشباب الذين هم مناط صناعة المستقبل»؟

ولأن المعلّـم جاهـل، لم يسـتطع أن يحيلـنى إلى أى جـواب، لا صحيـح ولا خاطـئ، كل مـا هنالك أنه أخرجنى خارج الفصـل وحرمنى من حضور حصة الفلسفة... هذا الفعل أقل ما يتوقع منه، وأحمد الله أننى لم أفصل لأننى كنـت بـلا ظهر، ووالدى بالكاد يشـترى لى قميصاً للمدرسـة فى بداية العام الـدراسى، و يضع أمله كله فى تعليمـى، ولكن ما تعجبت له، ليس رد الفعل، ولكن عدم القدرة على الفعل ذاته...

لـو كان هذا المعلم قال لى «مصطفى النشـار» مخطئ فى اجتهاده، لكنت قـد قبلت منه هـذا الحكم عن اقتناع لا حدّ لـه، ولكانت قد انتهت علاقتى بالفلسـفة إلى الأبـد، لأن أقل مـا يقال فى مثل هذا الجـواب، أنه رجل مؤدب بحق وموضوعى علمياً.

ولكـن إجابته كانت بمثابة الشـعلة التى أوقدت الشـجرة، فـازداد حبى لمصطفـى النشـار دون أن أراه، وتعلقـت بـه دون معرفة به، وقـرأت كتابه «فلاسـفة أيقظـوا العالم» ثلاث مرات فى أقل من شـهر، مـن ناحية لأنه لم يكن متاحاً لدىّ سـواه، ومـن ناحية أخرى للتكفير عـن ذنبى، لأننى كنت السبب فى رميه بالكفر..

هكذا كان عقلى وحدوده آنذاك، وهكذا فكرت، وهكذا فعلت!!.

ورغـم كل هـذا التعنـت فقـد حصلت عـلى الدرجـة النهائيـة فى مادة الفلسـفة بالشهادة الثانوية، وقررت دراسة الفلسفة فى الجامعة لأرى الكفار وأجالسهم وأقرأ أفكارهم!!!

ولكن لأسباب خارجة عن الإرادة، إما بسبب التنسيق الذى ألقى بى إلى كلية الآثار بالقاهرة، و إما بسبب رغبات الأهل التى تتحكم فى كل شىء، و يقبلون أى شيء إلا دراسة الفلسفة!! ثم ابتعادى عن الفلسفة لمدة شهرين من العام الجامعى الأول ولكن القدر يتدخل للمرة الرابعة فى حياتى و ينقذ رغبتى، فتمكنت من التحويل إلى كلية الآداب بالمنصورة قسم الفلسفة...

المقصود من هذه الرواية كلها، أن مصطفى النشار كان أحد أهم فصولها، بل كان هو بطلها على الإطلاق دون الظهور ولو لمرة واحدة على المسرح، فقد كان هو السبب الأول فى توجيه رغبتى ناحية الفلسفة، وكانت تهمة تكفيره هى الذنب الذى يلاحقنى فى اليقظة والنوم وأريد التكفير عنه بأى ثمن.

وبعد حصولى على درجة الماجستير فى الفلسفة اليونانية من جامعة المنصورة، كان الدكتور النشار هو المحطة التى لا قبلها ولا بعدها، المحطة التى كنت أعلم أننى غير مهيئ لها مادياً، وكفى بالسفر من شربين إلى القاهرة عنتاً ومشقة مادية وجسدية.

ولكننى قررت، وكالعادة يحضرنى العناد فى كل أمر ولا يتأخر لحظة واحدة... اتصلت بالدكتور مصطفى وعرّفته بنفسى، فكانت أول كلمة تسمعها أذنى منه عبر الهاتف «أهلا بيك يا أستاذ محمد فى أى وقت».

وذهبت إلى جامعة القاهرة محمولاً فوق الهواء بلا روح ولا قلب... لم تكن روحى معى فى هذه الرحلة الأولى التى ألتقى فيها بالدكتور النشار، وكذا لم يكن قلبى.

وصلت فى تمام التاسعة إلى مقر قسم الفلسفة بجامعة القاهرة بعد سفر

دام أربع ساعات، استقبلتنى السكرتيرة المهذبة، سألتها عن الدكتور النشار فقالت لى «هو فى محاضرة فى مدرج 68» .

على الفور سبقت قدماى جسدى بحثاً عن هذا المدرج، إلى أن وجدته أخيراً بالمبنى القديم للكلية، وكأنى لم أكن أصدق نفسى، فقد فتحت الباب بشدة، ودخلت بحدة، أعلم أنها نالت استغراب كل الطلاب وقتها، لكنى وجدته مبتسماً... هذه الابتسامة لم تفارق وجهه لحظة منذ عرفته فى ذاك اللقاء وحتى اليوم..

ولأنى دخلت المحاضرة متأخراً، فلم أعلم موضوعها، ولكنى دخلت وهو ينقد الأوضاع التعليمية فى مصر وقال حرفياً «يدّعون النفقة على التعليم ليصلحوه، فلا التعليم ينصلح، ولا الأموال يعود نفعها إلى الشعب» وانتهت المحاضرة بهذه الجملة، وخرج من المدرج، وخرجت لاهثاً خلفه منادياً بصوت خافت خائف، فالتفت إلىّ ومدّ يده للسلام، فسلمت عليه معرفاً نفسى، مرة أخرى يشُد على يدى ويقول: «أهلا بيك يا ابنى نورت القاهرة».

التفاصيل كثيرة، والأحداث أكثر من الحصر، منذ البداية، وحتى اليوم، منذ البداية حيث «فلاسفة أيقظوا العالم» وحتى اليوم «من الثورة إلى النهضة».

قرأت كل مؤلفات النشار، وبعضها قرأته أكثر من مرة مثل «بين قرنين» و«ضد العولمة» و«الأورجانون العربى للمستقبل».

تمثلت فكره وهضمته لدرجه أننى أعلن على الملأ بدون أدنى غضاضة أو حرج «أنا أصبحت أفهم كيف يفكر النشار قبل أن يتكلم بكلمة».

إنها خبرة التلميذ التى جاءت بها محبة الأستاذ.

لا أريد أن أقول أن القدر لو لم يقذف بالدكتور النشار فى طريقى لما كنت شيئاً، بل المؤكد أم مصيرى سيكون نسياً منسياً..

تلك هى رحلتى مع القدر، وذاك هو قدر مصطفى النشار فى قلبى فقد ترك بى آثاراً لا يمحوها الدهر، آثاراً إنسانية، ومعنوية، وفكرية.

كنت أظن أنه يُحسن إلىّ فقط نظراً لظروفى الخاصة التى علمها منى فور تسجيلى للدكتوراه، ولكننى فوجئت بأن تلك معاملته مع كافة تلاميذه داخل وخارج مصر.

بدون مزايدة، فلن أقبل بها.... وبدون مبالغة، فلست من أهلها... إن مصطفى النشار حالة... حالة إنسانية بالمقام الأول، وحالة فكرية من طراز فريد، وما بين الحالتين ولد اسم مصطفى النشار.

هكذا قُدر لى أن أتتلمذ على يد فيلسوف، وأن أرافقه فى رحلات علمية وجولات فكرية منذ العام 2009م وحتى اليوم، وكم كانت نداءاته عبر كتبه ومقالاته بصناعة نهضة عربية تضع العرب فى مكانتهم اللائقة ذات تأثير عميق فى نفسى، كنت أشعر أن الأمة العربية لم تعدم بعد أبنائها المخلصين من ناحية، ثم أشعر بمدى المعاناة التى نعانيها كعرب فى ظل الإقليمية والطائفية والنرجسية من ناحية أخرى.

شغلنى هذا الموضوع، النهضة العربية، البحث عن بقاء العرب قبل فنائهم، منذ نعومة أظفارى فكرياً، ثم ملأت مؤلفات النشار به وجدانى، وأصبحت أشعر وكأن كلمات «الغد» و«المستقبل» و«قريباً» و «عما قريب» والتى

دومـاً مـا يُزيل بها دُعـاة الوحدة العربيـة والنهضة العربيـة كتاباتهم باتت وشيكة، اقترب أجلها بحق ولم تعدُ مجرد كلمات اقتضادها سياق الحديث.

تـرددت كثـيراً فى كتابة مثل هـذه الأمنيات التى تقتـل النفس مائة ألف مرة، ليس تردد الضعفاء ولا الجبناء، ولكنه التردد المنبعث من الشـك الذى لا ينتهـى إلى يقين، لأن صاحبه فقد كل سـبيل إلى اليقين، وأين يقع هذا اليقين وسط هذه الأحداث العربية والإسلامية الدامية؟

على المسـتوى العربى الأزمة السـورية، ومن ورائها الأزمة اليمنية، ومن أمامهما الأزمة الليبية، ومن قبل الجميع الأزمة الفلسـطينية، ويأخذ بتلابيب ذلك كله أزمات طاحنة لا حدّ لها أينما وجهت وجهك شطر أى قطر عربى، أزمات اقتصادية، ومشكلات اجتماعية، وخلافات سياسية قد تصل أحياناً - بل عادة ما تنتهى فى غالب الأحيان - بالاقتتال بين المتصارعين.

وعلى المسـتوى الإسـلامى تفكك أمـة المليار، وعجزها عـن تقديم أدنى الحلول لأدنى المشـكلات، ورضوخها تحت وطـأة الطائفية والحزبية ولعنات التفرق والخلاف، ففى حين صدر الأمر القرآنى بالوحدة ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمـران: 103] تعمقت الخلافات بين أبناء خير أمة أخرجت للناس، وانعدمت سـبل التواصل بين أحفاد الخليل ابراهيم، وبات حُلم الوحدة للحُلم فقط، وليس للواقع منه أدنى نصيب.

وتتجـلى إرادتى فى دراسـة هـذا الموضـع بالـذات، وبتحديـد شـخصية الفيلسـوف ممثلاً فى مصطفى النشـار تحديداً، لأربعة أسـباب رئيسـة، اثنان للموضوع، واثنان لشخصية الدراسة.

فأما ما للموضوع، فالأول هو ما وصل إليه حال أمتنا من التشرذم والصفع

عـلى الوجه والـركل بالأقدام من الجميـع، وحال الإخوة السـوريين يُغنى عن المقال فى هذا المضمار، والثانى الانتقال بهذا الحُلم اليوتوبى بالأمة الواحدة الذى غرس جذوره اخناتون واسـتندت إليه الحاجة إلحاحاً عـبر العصور المختلفة وصولاً إلى حاضرنا البئيس، بعثًا للعرب من رقدتهم و إنقاذًا لهم من فناء محقق.

وأما ما لشـخص الفيلسوف محور الدراسة، فالأول الرد على الذين كثيراً ما يشـككون فى دور الفلسـفة، و يعدونها ضرباً من العبث، لنقول لهم، نعم الفلسـفة قادرة على تقديم حلول لكافة المشـكلات، وقادرة على انتشالنا من وضعنا المزر حالياً إلى حيث سفينة نجاة أفلاطون «حكم الفلاسفة»، والثانى الذين يقولون بموت الفلسـفة العربية وانعدام التجديد ليصبح العرب كلهم بعد ابن رشد إما شارحين و إما مقلدين هذا كله مردود على أصحابه، والدليل أن هـذا المفكر هو أحد أبناء القرن العشريـن وأحد أهم المفكرين العرب المعاصريـن، وهـو إذ يقدم لنا رؤيـة للانتقـال بالوحدة العربيـة من الحلم إلى الواقـع، فحـرىٌ بنا أن نعتز بهويتنا الفكرية، وأن نلتف حول فلاسـفتنا وعلمائنا ومفكرينا نصف التفافنا حول الفنانين ولاعبى الكرة.

لقـد نفـى بعض المشـتغلين بالفلسـفة والكُتّـاب أن يكون لدينا فلسـفة عربيـة، وكالوا الاتهامـات للفكر العربى ومفكريـه، ويحضرنى على الدوام تحامـل مراد وهبه على الفلسـفة العربية لدرجة نفيها فيقول رداً على سـؤال، ما هو التوصيف المناسـب لأزمة الفكر الفلسـفى العربى؟ ما نصه : «أحياناً تبدو هذه الإشـكالية كـما لو كانت إشـكالية وهمية، فأزمة فكر فلسـفى عربى تفترض وجود فكر فلسـفى عربى وأن هذا الوجود فى أزمة، لكن علينا أن نتساءل أولاً: هل هناك فكر فلسفى عربى؟ واضح من السؤال أنك تعتقد

بداية فى وجود فكر فلسفى عربى فى مواجهة فكر فلسفى آخر، دعنى أفترض أن هذا الفكر الآخر هو الفكر الفلسفى الغربى، والمواجهة تعنى أن هناك وعياً بين الطرفين، ولكن مشاركتى فى المؤتمرات الفلسفية الدولية تسمح لى بالقول بأنه ليس ثمة مواجهة لأن الفكر الفلسفى العربى غير وارد فى المؤتمرات الفلسفية الدولية لأن المفكرين العرب غير موجودين إلا فيما ندر، وحتى هذه النُدرة لا تقدم سوى أبحاث تقليدية»[1].

ويزيد د. وهبه الشك توهجاً إثر سؤال كان نصه: «اسمح لى فى إطار الشك فى وجود عصر التنوير المصرى والعربى أن أتساءل عن وجود مفكر عربى معاصر يحمل صفة الفيلسوف أو «صاحب النظرية الفكرية» محددة الأطر؟

فتأتى الإجابة - بالنسبة لى على الأقل - كالصدمة، إذ يقول: «منعاً للإحراج أوضح فى البدء أن منح لقب الفيلسوف كباقى الألقاب ليس مسئولية فرد بعينه، ولكنه مسؤلية المجتمع الفلسفى او الجماعة الفلسفية الدولية إذا جاز التعبير، وبالتالى فالأولى بهذا السؤال أن يوجه إلى هذه الجماعة وفى تقديرى أنه من الصعب القول بوجود فلسفة ما فى المجتمع العربى بعد نكبة الفيلسوف الإسلامى العظيم «ابن رشد» فى القرن الثانى عشر، لأننا لو تأملنا ما حدث لابن رشد من حرق لمؤلفاته ونفى لقريته أليسانه، لوجدنا أن السبب مردود إلى مفهوم التأويل الذى طرحه هذا الفيلسوف، بمعنى البحث عن المعنى الباطن للنص الدينى وبالتالى لا يحق لأى مسئول أن يزعم احتكار الحقيقة المطلقة، ومفهوم التأويل هذا يمضى بدوره إلى قتل جرثومة

(1) د. مراد وهبه، جرثومة التخلف، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م، ص87.

الدوجماطيقية، كما أنه يُفضى فى المقابل إلى ما يمكن تسميته بالتسامح الثقافى، و يسمح بالفعل بإفراز فيلسوف عربى و إسلامى، لأنه سيسمح بإعمال العقل الناقد الذى هو أساس الإبداع الفلسفى»[1].

فهل اقتصر الإبداع الفلسفى فى أمة الضاد على ابن رشد وانقرض بعده؟!

إنهـا حقاً إجابة - مع كامل احترامى لشـخص قائلهـا ومكانته الفكرية - مدعـاة للعجـب، لأن الأزمـة فى وطننا العربى ليسـت فى الفلسـفة بما هى فلسـفة ولكنها فى اليد السياسـية التى تمتد إلى الفلسفة تحجيماً لدورها وصداً لها عن مسـيرتها... ليسـت الأزمة فى وجود مفكرين، ولكن الأزمة فى وعى الساسـة بأهميـة المفكرين وتقديرهم، ولكم أن تتسـاءلوا كيفما تشـاءون، لكـن أى مقارنة بين الفلسـفة الشرقية والفلسـفة الغربية حاليـاً هى مقارنة فاسـدة و باطلة، لفسـاد أوجهها، فالجميـع يعلم مدى ما ينعم بـه الغرب من حريـة، ومدى إنفاقه على البحث العلمى، ومـدى الحرية الممنوحة للكتاب والمفكريـن، لقد اختار الغرب هذا الطريق منذ القدم فتقدم، واخترنا نحن الاسـتبداد والاسـتعباد فتخلفنا، حتى محنة ابن رشـد كانت سياسية، ومنحة الإمام أحمد بن حنبل كانت سياسـية... إنها السياسـة يا سادة التى تهيئ الجو أمـام الإبداع الفلسـفى أو تعوقه، وهى التـى تصنع الأسـماء، فلولا الحرية الغربية لما بزغ سـارتر، ذاك الشـجاع الذى قاد ثورة شـعبية ضد فرنسا لمنح الاسـتقلال للشعب العربى الجزائرى الشقيق، ولولا الحرية الغربية لما خرج جون رولز حديثاً ينادى بالعدالة لدرجة جعلته يلقب بـ«فيلسوف العدالة»، وهكذا تمضى قافلة الفلاسفة فى ظل شجرة الحرية.

(1) نفس المرجع، ص104 - 105.

أما الشرق الذى كرَّس للاستبداد ومحاربة الفكر، ورغم محاكم التفتيش والرقابة على الإبداع والمبدعين، إلا أن ريحانته لم تفقد رائحتها، فخرجت أصوات عربية أبية تطالب بالإصلاح، مالك بن نبى وعابد الجابرى وطه عبد الرحمن ومصطفى النشار وحسن حنفى وقبل هذا الجيل جيل المبدعين محمد عبده وقاسم أمين ومصطفى عبد الرازق وغيرهم.

سلسلة مباركة من الأسماء العربية ولدت رغم إرادة وأدها، وترعرعت وسط شكوك بالإبقاء عليها، وفى ظل جو ملبد بالغيوم، خرجوا ليعلنوا الثورة على التقليد، ويطالبون بالتجديد ..... التجديد فى كل شىء، تجديد روافد هذه الأمة وبعث حضارتها من جديد، لتسمع هذه الأمة بأسرها سر تخلفها، وسر بعثها من جديد على لسان جارودى الذى يقول: «إن نهضة الإسلام ليست ممكنة إلا إذا تحاشينا عقبة مزدوجة، وهى:

- تقليد الغرب.
- تقليد الماضى.

وفيما يتعلق بتقليد الغرب، فإن أسوأ شىء هو الخلط بين التحديث والتغريب ولم يسلم من هذا الخلط حتى أعظم المصلحين فى القرن التاسع عشر، مثل الشيخ محمد عبده والذى بدأ هذه النهضة حين شبه «الشورى» فى القرآن وهى «تشاور المؤمنين لتحقيق أمر الله فى الحياة السياسية والاجتماعية» بالبرلمانية أو الديموقراطية الغربية»[1].

(1) روجيه جارودى، الإسلام، ترجمة د. كمال جاد الله، دار الجليل، القاهرة، 1997م، ص70.

وعلى منوال هذا التجديد نريد البعث من جديد، البعث الذى يريده مصطفى النشار الذى لا يفصل بين ثلاث أمم، الأمة المصرية، والأمة العربية، والأمة الإسلامية، فهذه الأمم الثلاث أمة واحدة بالأساس، لا فرق بينها ولا فاصل، بل هى الأمة الواحدة بالفعل، ولكن للأسف - مع ايقاف التنفيذ -.

يبقى التساؤل الآن، لماذا توقف التنفيذ؟ ومن المسئول؟

الإقليميون العرب؟! أم الإسلاميون؟! أم الطائفيون؟! أم المتحزبون؟! أم الإسلام ذاته؟!

تلك هى محاور أسئلة هذا الكتاب التى يحاول الإجابة عليها بشئ من المصداقية مع النفس والموضوعية فى التناول، لنصل فى النهاية إلى الأمة الواحدة بحق، والحياة الشريفة بحق، تلك التى ينادى بها جارودى بقوله: «فلنقاوم اليوم، ولنحيا حياة جديدة بشرية بمعنى الكلمة، أى حياة إلهية، وهذا يستلزم علماً يعرف حدوده وسياسة تعرف غاياتها، و إيماناً يعرف حقائقه، لأن الإنسان لن يكون إنسانياً إلا إذا استحضر فى داخله وجود الله»[1].

ثمة خلل واقع إذن؟! نفتقد مكانه حين البحث عن أزمة تأخر وتخلف أمتنا العربية والإسلامية، هذا الخلل كان هو الباعث الرئيس لهذه الدراسة.

لذا يأتى هذا الكتاب فى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، فى المقدمة شكاية الهموم وتوضيح السبيل، وفى الفصل الأول محاولة الوقوف على دور الفلسفة وهل هى قادرة على تقديم حلول واقعية للأزمات العربية اللامتناهية، وعن

(1) جارودى، المرجع السابق، ص135.

الفيلسوف وأسلوبه فى تناول القضايا وعرضه للحلول، ثم يأتى الفصل الثانى متناولاً تلك العلاقة بين الشرق والغرب، صراع غربى يقابله تعاون شرقى، الكم معلوم والكيف مجهول، ولن نُسلم باستمرار مثل هذا الوضع كما لم يقتنع به مصطفى النشار، ولم يكن ثمة بديل غير صناعة نهضة عربية حقيقية تعفنا عن الحاجة إلى أى من مكتسبات المدنية الغربية، لتضعنا موضع السادة لا العبيد، القادة لا التابعين.

ثم يأتى الفصل الثالث للإجابة عن سؤال لماذا النهضة العربية، ثم العروج على معوقاتها كما ارتآها مصطفى النشار، ثم بداية الحلول حيث البداية ثقافياً، ثم عرض لآليات صناعة تلك النهضة عبر تحديث النظام التعليمى ثم تجديد الخطاب الدينى والتسامح مع الرأى المخالف للتوجه الشخصى لكل فرد، ثم ضرورة قيام هذه النهضة على أكتاف الشباب، فهم الدعامة الحقيقية والقوية لصناعة تلك النهضة، ثم الوصول إلى الحلم الكبير بتحقيق الوحدة العربية بمشتملاتها، تكتل اقتصادى، وحدة عسكرية، وصولاً إلى انتاج تكنولوجيا عربية، كل ذلك تحت أى مسمى، وتحت أى شكل، المهم هو إخلاص النوايا لاتمام مثل هذا التضامن العربى الجوهرى لا الشكلى أو العرضى، لتنهض من جديد الأمة العربية الواحدة وتستعيد ماضيها التليد، متى وكيف، تلك هى صفحات هذا الكتاب..

د. محمد ممدوح عبد المجيد

المنصورة فى 17/ 10/ 2015م

الموافق 4 من المحرم 1437هـ.

الفصل الأول

الفلسفة والفيلسوف

ويتضمن:

تمهيد

أولاً: الفلسفة.

1- أهمية الفلسفة حضارياً.

2- الفلسفة والعلم.

3- واقع الفلسفة عربياً.

ثانياً: الفيلسوف.

1- الفيلسوف والمجتمع.

2- متطلبات المبدع.

3- النشار وسماته.

«إن الفلسفة وحدها هى التى تميزنا عن الأقوام المتوحشين والهمجيين، و إنما تقاس حضارة الأمة وثقافتها بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها، ولذلك فإن أجل نعمة ينعم بها الله على بلد من البلدان أن يمنحه فلاسفة حقيقيين»[1].

❐❐❐

«لقد عوديت الفلسفة منذ القدم، ولكنها ظلت ملتزمة بالعقل الذى جاءت لتغذيه، فنادت بأعلى صوتها على الإنسانية المعذبة « عليكم أن تسمعوا لعقلاء القوم لا وجهائهم، وظل ذاك النداء مصدراً للعناء على مر التاريخ»[2].

❐❐❐

«إن الفيلسوف المنشود هو القادر على إثارة عقولنا وتفوير أفكارنا وتقويم نقوضنا وتحديث معارفنا وتأصيل أخلاقنا وتمكيننا من الإجابة عن السؤال المطروح دوماً عقب الثورات، من أين نبدأ؟ ولماذا نقرأ؟ وكيف نكتب؟»[3].

❐❐❐

(1) ديكارت، مبادئ التفكير، نقلًا عن د. عبد الغفار مكاوى، لم الفلسفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1981م، صـ91.

(2) د. محمد ممدوح، سقراط اغتيال العقل، المكتبة العصرية، المنصورة، 2015م، صـ157.

(3) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، دار الهداية للنشر والتوزيع، القاهرة 2012م، صـ 309.

«يلمس المطالع لمؤلفات العملاق « مصطفى النشار» أنه مفكر مصرى من طراز فريد، مفكر مهموم دائماً بمشكلات وبلايا وطنه، صابغاً كل ذلك بلون من الولاء والحب لهذا الوطن قلّ أن نجده لدى كثيرين من المتصدرين للمشهد الثقافى والفكرى المعاصر، مفكر شذ عن المألوف، وتحرر من شرنقة النسق، فقُدر له - ربما لهذا السبب وحده - أن ينجح فيما يفشل فيه الناس عادة، حتى من أولئك المثقفين الذين أغرتهم فتن السلطة والحظوة والمال، قاوم التيار، وانسل مبكراً عن كوكبة القطيع والمتلونين، فجمع فى قلبه وعقله بين الحسنيين، مهارة الإدارة وفن التيسير من جهة، وملكة النقد والتنظير من جهة أخرى»[1].

□□□

(1) د.محمود مراد، النشار مشرحاً أوجاع المجتمع المصرى، ضمن كتاب من النقد الفلسفى إلى فلسفة النقد، صـ217.

الفصل الأول

الفلسفة والفيلسوف

تمهيد

الفلسفة مهنة شاقة لأقصى درجة، يكفى أنها زبدة العقل، ويكفى أن حاملها هو حامل هموم مجتمعه وأوجاعه على الدوام، وهو المنبوذ منهم على الدوام إلا فى حالات قليلة لا تغدو سوى استثناءات ضئيلة من قاعدة عريضة، فالنظم السياسية الاستبدادية، والمجتمعات الأمية، والحضارات التى ترتع فى التخلف والتأخر، هى أكبر عوائق أمام حرية الفيلسوف، لكن تلك العقبات لن تدوم طويلاً، إذ ينبعث إيماننا بأن البشرية لابد وأن تتصالح حتماً مع المفكرين والعلماء، طال العمر أم قصر، مثلما حدث مع سقراط وتم تكريمه بعد موته، ومثلما حدث مع جاليليو إذ سُجن حياً وكُرم ميتاً، ويبدو أنها سنة الطبيعة، لنصبح على يقين وطمأنينة حين نقرر أن أصحاب العقول النابهة يرفضهم أبناء جيلهم ويتبنى فكرهم الأجيال اللاحقة.

ورغم هذا العداء للفلسفة وأهلها فى كل عصر إلا أنها فى تطور دائم، والمبدعون فقط هم صناع هذا التطور وهم الأمل فى غدٍ مشرق على البشرية المعذبة، غدٍ يحمل السلام والعدالة والأمن لجميع بنى البشر، ليتوجهوا جميعاً

بالعبادة إلى إله واحد، ورب واحد، سبحانه ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش: 4].

هذا التطور سنة من سنن الكون، فلو مكثت الفلسفة تدور فى فلك سقراط وأفلاطون وآرسطو لما كان ثمة عصر النهضة بعباقرته وعظمائه، ولما كانت الفلسفة الإسلامية بشموخها وعطاءها وتجديدها لروافد الفكر الإسلامى، ولو ظلت الفلسفة حبيسة هذه الأفكار لما كان ثمة رولز وديوى وعبد الوهاب المسيرى ومصطفى النشار وحسن حنفى وعصمت نصار وغيرهم، ولو توقفت الفلسفة عند هؤلاء لتوقفت الحياة، لأن الفلسفة تعنى الحياة، وانعدام الفلسفة يعنى الموت، إن لم يكن عضوياً، فعلى أقل تقدير إكلينيكياً.

وآن الأوان .. أوان صناعة الفلسفة التى تأتى بمثابة الماء الذى يروى شقاق الأرض الظامئة، ليحيى به بلدة ميتة، ويسقى به أنعاماً وأناسى كثيراً.. نريد الانتقال من مرحلة الفلسفة إلى التفلسف، من الفكر إلى التفكير، من التقليد إلى الإبداع، ذلك أن مجرد قراءة الفلسفة هو ضد الفلسفة ذاتها، لأنها ما قنعت أبداً بالقراءة ولكنها تأبى إلا تعليم التفلسف.

من هنا تشق الفلسفة التطبيقية غبار تلك المعركة، معركة وجود الفلسفة على الأرض لئلا تندثر فى طيات التراث والأوراق التى تناثر عليها التراب وتعاقب عليها الزمن.

لقد آن أوان فلسفة الفعل بانتهاء فلسفة القول، لذا كانت الفلسفة التطبيقية التى كانت النهضة العربية إحدى ثمارها هى البداية نحو تخريج جيل قادر على مواجهة أعباء الحياة ومشكلاتها وفق آليات فكرية غير

نمطيـة، وغير تقليديـة، آليات تخرج من العقل موافقـة للواقع، وليس الواقع هو الذى يفرضها على العقل تحت أى ظرف....

دور الفلسـفة إذن هـو انتشـال البشريـة من تلـك المرحلـة التى ملأتها الشرور وغذتها العنصرية وسـيطرت عليها امبريالية الشر وقوى الطامعين، دورها إعادة البشرية إلى بشريتها، والإنسـانية إلى إنسانيتها، و إعادة الأمور إلى نصابهـا الصحيـح، إلى الفطرة التـى فطرنا الله عليهـا، ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: 138].

ثم يأتى دور الفيلسوف، وهو هنا أحد أبناء العصر المكلوم، أحد أبناء العروبة المخلصـين، الذين يسـعون إلى صناعة نهضـة عربية، ويتوجه إلى بـارئ الكون بالدعـاء على الدوام ألا يقبضه الله حتى يرى تلك الأمة الناهضة، الأمة الواحدة ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92].

و يأتى هذا الفصل للوقوف بادئاً على دور الفلسفة فى صناعة تلك النهضة ثم يعرج على الفيلسوف مصطفى النشار بين الانكسار والانتصار.

أولاً: الفلسفة

لم يتمكـن الفلاسـفة أو المؤرخين حتـى اليوم من وضـع تعريف محدد وثابت للفلسـفة، لأن التقييد بتعريف للفلسفة هو ذاته ضد الفلسفة يكفى أنها إعمال العقل فى كافة القضايا والمشكلات متعددة النوع والجنس ومختلفة الزمـان والمكان، أو يكفى على حد تعبير طه عبد الرحمن أنها «تقديم حلول غير تقليدية لمشكلات تقليدية»[1].

(1) طه عبد الرحمن، العقل العربى بين العجز والإرادة، دار المثقفون، فاس، المغرب، 1997م - ص12.

هذا التعريف ينقلنا مباشرة إلى الجانب التطبيقى للفلسفة لا النظرى منها، لأنه يقوم على الفعل، على البراجماتية لا المثالية، فتقديم حلول للمشكلات يعكس دور الفلسفة فى المجتمع، أى مجتمع، كى لا يقتصر دور الفلسفة على الحياة النظرية، تلك التى جعلها عبد الغفار مكاوى فوق الحياة ذاتها إذ يقول: « إن حياة التأمل والنظر ليست حياة بشرية خالصة، و إنما هى شىء يسمو فوق البشرية لأن فى الإنسان نفسه شيئاً يفوق الإنسان، بيد أنه ينظر و يتأمل، - أى يتفوق على الإنسان - بما هو إنسان- وبقدر ما تغوص قدماه فى الوحل تكون قدرته على التطلُّع للنجوم، بقدر ما ينغمس فى أعماق الواقع اليومى، بقدر ما يرتفع فوقه ليراه فى كليته، من ثمة هذا الوضع الغريب الفاجع، سقراط يغوص «حافى القدمين» فى حارات أثينا، وفى نفس الوقت يُحلق فوق السحب، يكون فى كل لحظة يتحاور فيها مع الناس فى العالم وخارجه، يسأل عن هذا الشىء أو ذاك، و يسأل فى نفس الوقت عن الكل، يتكلم عن المعرفة والعدالة والفضيلة، و يسعى فى نفس الوقت إلى «ماهية» المعرفة و«جوهر» العدالة و«حقيقة» الفضيلة.. إنه فى كل سؤال فلسفى حقيقى إنما يسأل عن « كل» ما هو موجود، عن ماهيته وحقيقته الأخيرة، إذ ليس سؤالاً فلسفياً ذلك الذى لا ينصَّب على «الكل»[1].

رغم تلك الصبغة النظرية التى يحاول مكاوى إضفائها على «الفعل السقراطى» إلا أنه يمثل قمة الفلسفة التطبيقية و يبرهن على فلسفة الفعل

(1) د. عبد الغفار مكاوى، لم الفلسفة، منشأة المعارف، الأسكندرية، سنة 1981م، ص27.

بامتياز، ولو لم تكن فلسفة سقراط ذات تأثير فعلي وحركي براجماتي، لما انتهى الأمر بالساسة الذين ضاقوا به ذرعاً إلى إعدامه[1].

أياً كان الخلاف، الفلسفة نظرية أم تطبيقية، يكفي أنها الفكر في ثياب العصر، يقول مكاوي: «إن الفلسفة مهما اختلفت تعريفاتها هي في النهاية وعي عصرها أو عصرها معبراً عنه بالأفكار كما يقول هيجل، وهي دائماً في قلب الواقع، والواقع دوماً في قلبها، وإذا كانت علاقة التوتر بينها وبين الواقع لا تبلغ دائماً حد الثورة السافرة عليه، فإن مجرد النظر الكلي الحر إليه، ووضع تصوراته وقيمه ونظمه ومعتقداته السائدة موضع التحليل، إنما يدل على رفض التسليم به تسليماً أعمى، أي يدل على التوتر الدائم بينها وبينه»[2].

ولكن للمرة الثانية يخون التعبير مكاوي، إذ أن العلاقة بين الفلسفة والواقع قد يصل إلى حد الثورة عليه واقتلاعه من جذوره، بل إن الوعي الفلسفي لدى أنصاف المفكرين قد يصنع الثورة، وليس أدل على ذلك من وعي الشباب الذين صنعوا يناير 2011م، ليغيروا واقع مصر، ويصنعوا مستقبلها التليد بإذن الله.

ولكن يبقى التساؤل هل للفلسفة دور في صناعة النهضة العربية؟

والسؤال يتجاوز كل الخلافات الفكرية فلسفياً بين أنصار الفلسفة المثالية، وأصحاب الفلسفة التطبيقية، ليفتح نافذة جديرة نحو الواقع،

(1) محمد ممدوح، سقراط اغتيال العقل، المكتبة العصرية، المنصورة سنة 2014م، ص20 وما بعدها.

(2) د. عبد الغفار مكاوي، المرجع السابق، ص47.

ويوجه الأنظار إلى أخطار جسيمة تواجه أمتنا العربية والإسلامية، ليصبح المجتمعين العربي والإسلامي في حاجة ماسة بحق إلى فلسفة واقعية، وإلى فلاسفة عندهم وعي بضمير الأمة ومتطلباتها، لأن الصراع العالمي صراع أيديولوجي بحد تعبير مصطفى النشار: «إن الفلسفة والتفلسف هو ما يحتاجه المثقف العربي المعاصر حتى يكون على مستوى الوعي بما يجرى حوله في العالم المتقدم، إن الصراع العالمي في جوهره ليس صراع سياسات اقتصادية أو مالية بل هو في الأساس صراع أيديولوجي وفكري وإذا لم يكن الإنسان العربي على وعي بذلك فلا أمل في أن يتبوأ العرب مكانتهم اللائقة بين الأمم!»[1].

بهذا المنطق قد يفهم البعض أن النشار يضع العربة أمام الحصان، ويثبط كل عزيمة للنهضة؟ ولكن هذا فهم المتكاسلين الذين لا يرجون لهذه الأمة أية نهضة، لأنه لا يثبط العزائم بقدر ما يستنهضها من غفلتها، ليقول لها بوضوح: «ما لم نحقق نهضة فكرية، فلن نحقق نهضة علمية واقعية».

وهذا يدفعنا إلى الوقوف عند ثلاث نقاط تنبثق مباشرة عن النص السابق، ممثلة في:

1- أهمية الفلسفة حضارياً.

2- الفلسفة والعلم.

3- واقع الفلسفة عربياً.

(1) د. مصطفى النشار، بين قرنين، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، سنة 2000م، ص79.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

1- **أهمية الفلسفة حضارياً:**

الفلسفة هي عامل الخلود الأول في حضارة أي أمة من الأمم، والدليل الواضح للعيان، أن أبناء القرن الحادي والعشرين الذين صعدوا إلى سطح القمر وصنعوا المعجزات العلمية والمكتشفات التي لا حصر لها، لازالوا حتى اليوم معجبين بسقراط وأفلاطون وآرسطو، أولئك الفلاسفة الذين ولدوا وماتوا قبل إشراق شمس الميلاد على الدنيا، ولا زالت أفكارهم محل دراسة المختصين حتى اليوم، كما أنهم السبب الأول والمباشر في خلود اسم اليونان، وفي رفعة الحضارة اليونانية، تلك التي ارتبطت بأسمائهم.

إذن الفكر الفلسفي يصنع أي حضارة، ويكون دليل خلودها، يقول النشار: «إن الفكر الفلسفي يمثل نقطة البدء في أي حضارة، فلا حضارة بلا رؤية جديدة ومنهج جديد، وصانعوا ذلك هم الفلاسفة، وإذا كانت الفلسفة تضع الحجر الأول في بناء الحضارة الجديدة فإن الجمود والتحجر الفكري يكون بمثابة المسمار الأول في نعش الحضارة، فحينما نتساءل عن أسباب انهيار الحضارة، أي حضارة، ينبغي أن نعود دائماً إلى الجذور الفكرية لذلك، وسنجد أنه نضوب معينها الفكري، فحينما يتحول المفكرون من فلاسفة مبدعين إلى حواريين وشراح وحفاظ ومرددين، ينضب معين التجديد وينعكس ذلك على كل مظاهر الحضارة ورموزها فينضب معين العلماء ويصبح التقدم العلمي بطيئاً في جوهره وإن طفى على السطح أخبار المكتشفات الجديدة والاختراعات الفذة، فإن تلك نواتج النظريات العلمية الأصلية السابقة، كما يتحللون من دينهم وإن

حافظوا على ممارسة شعائره وطقوسه، وتنهار الأخلاق و يتجه الناس نحو المادى واللذى والحسى»[1].

أضف إلى ذلك ما تُكسبه الفلسفة للأفراد الذين هم بُناة تلك الحضارات من قيم لازمة لآليات البناء مثل القدرة على الحوار الإيجابى مع الآخر وقبول الرأى المخالف، والقدرة على النقد وممارسة الإنتقاء، والقدرة على التأثير فى الأخرين عبر سبل الإقناع العقلى[2].

2- الفلسفة والعلم:

لعل التقدم العلمى المذهل فى عصرنا الحاضر قد زاد من أعباء الفلسفة، بحيث تكون العلاقة بين العلم والفلسفة توافقية وليست عكسية بمعنى أن ازدياد تقدم أحدهما يستلزم ازدياد نهضة الآخر، بحيث تزداد أهمية الفلسفة بازدياد سُبل البحث العلمى ودعائم تقدمه، فكلما ازداد البحث العلمى تقدماً كلما ازدادت هموم ومشكلات البشرية، مثل التقدم فى ثورة الجينات والحاسبات، ودور الفلسفة فى إرساء أخلاقيات هذه المهن والفروع الجديدة للعلم، يقول النشار: «إن الفيلسوف هو وحده الذى صار عليه الآن أكثر من أى وقت مضى أن يُعلى من صوت الحكمة والتعقل و يُبصر علماء عصره بخطورة توجههم وبخطورة النتائج التى سيقودون إليها المجتمع الإنسانى بمواصلة الأبحاث العلمية بعيداً عن القيم الأخلاقية والدينية الحاكمة لحياة

(1) د. مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2015م، ص17.

(2) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة، ط1، سنة 2005م، ص22 وما بعدها.

البشر وسنن الوجود الكونى، وربما كان من الضرورى فى عصرنا هذا أن يمد الفلاسفة أبصارهم إلى المستقبل وأن يقرئوا تنبئوات العلماء بصدده ليوضحوا للبشر الصورة القائمة التى ستكون عليها حياتهم بعد أن تتحكم فيها الآلة تماماً وخاصة بعد أن تصبح هذه الآلة خارج السيطرة البشرية وتمتلك القدرة على الفاعلية الذاتية والتحكم الذاتى بدون تدخل البشر»[1].

إن دور الفلسفة إزاء هذا التطور العلمى تحجيمه أخلاقياً بحيث:

أ- إن التقدم العلمى لابد وأن يكون لخير جميع البشر.

ب- إن هذا التقدم التقنى لا ينبغى أن يتعارض مع الحفاظ على إنسانية الإنسان وتنمية قدراته وليس خنقها أو القضاء عليها.

ج- أن ثمة حدوداً يبنغى أن يقف عندها هذا التقدم فلا يتجاوز خطوطاً حمراء وضعها الميراث الإنسانى عامة والأخلاقى والدينى خاصة، فلا يصح أن يكون هذا التقدم التقنى فى صالح فئة معينة من البشر ولا يجوز أن تختلط بسببه الأنساب ولا يصح أن يسمح البشر من خلاله لآخرين سواء كانوا مستنسخين أم كائنات صناعية أن تقوم بدورهم الحيوى فى الحياة.

د- إن الحفاظ على البيئة الطبيعية الملائمة لحياة الإنسان ضرورية مثلما هو ضرورى أن يساعد التقدم العلمى الإنسانى على التكيف مع هذه البيئة بسلام وبدون قهرها أو التعدى عليها.

هـ- إن التقدم فى ميدان الهندسة الوراثية وفى ميدان علوم DNA (الجينوم

(1) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، ص25 - 26.

البـشرى) ينبغى أن يقتصر على معالجة الأمراض والحفاظ على صحة الإنسـان وصحة أعضائـه دون إغـراق فى إعلام الإنسـان بتفاصيل مسـتقبل حياته لما يمثله ذلك من خطر على حيوية الإنسان و إبداعه فى حياته مهما كان قصرها.

و- إن التقدم العلمى ينبغ ألا يسـتغل العلم فى القضاء على عوامل السعادة الطبيعية للإنسان لتسـتبدل بعوامل صناعية أخرى لا تُغنى ولا تُسمن من جوع[1].

دور الفلسـفة إذن يكمـن فى إعـادة التـوازن بين العلـم وثورته الجامحة، والأخـلاق والمبـادئ وقيمهما الراسـخة، وبـدون تدخل الفلسـفة فى العلم ستفسـد الحياة البشرية، ويصبح الإنسان ذاته مهدد الوجود بفعل ما قدمت يداه.

3- واقع الفلسفة عربياً:

يصبح التسـاؤل الأهم الآن، أين يقع دور الفلسفة العربية من الإعراب؟ وهل هناك ما يمكن أن يطلق عليه فلسفة عربية؟

السـؤال الثانى تم حسـمه فى مقدمـة الكتاب، فما كان هـذا الكتاب إلا للبرهنة على وجود فلسـفة عربية، ووجود فلاسفة عرب بمعنى الكلمة، لكن الفلسـفة فى وطننا العربى تواجه محناً متعـددة الهوية، غالبها صُنع صنعاً على أعين الساسـة لإرهاب المفكرين من ناحية، ولإبقـاء تخلف وتراجع الدرس الفلسفى فى مصر من ناحية أخرى.

(1) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، ص26،27.

لكن يبقى الأمل، الأمل عند بعض الفلاسفة العرب بأن الفلسفة تساوى الحياة، هذا الأمل نبض بالحياة عند مصطفى النشار الذى وصل إيمانه بأهمية الفلاسفة لدرجة الإيمان الأفلاطونى بحكم الفلاسفة، ولك أن تقرأ النص التالى للنشار، وتقارن بينه وبين النص الشهير لأفلاطون فى حكم الفلاسفة، لتخرج بنتيجة يطمئن إليها قلبك فى أهمية الفلسفة ودور الفلاسفة عند النشار: «إن الفلاسفة هم دائماً ضمير الأمم والشعوب وهم دعاة الحكمة وأصحاب البصيرة النافذة، وهم عقل البشرية المفكر الذى علينا أن نستمع إلى صوته وقت المحن والأزمات، وليس أفدح مما نتعرض له الآن من محن وأخطار واقعة ومتوقعة، ومن ثمّ فلا ينبغى أن يعلو صوت على صوت هؤلاء الحكماء وخاصة إذا كانت رؤاهم رؤية حق وفلسفتهم دعوة للحياة الكريمة للإنسان أياً كان بعيداً عن غوغائية الزعماء السياسيين وسطوة القادة العسكريين وشرور العلماء المتحللين من كل روابط القيم الأخلاقية والدينية»[1].

الفارق الوحيد بين هذا النص والنص الأفلاطونى، أن النشار لم يفرض الفلاسفة كحكام على الناس، ولكن أفلاطون فرضهم حكاماً، وهذا هو الفارق الكمى، لا النوعى، بين المثالية عند أفلاطون، والواقعية عند النشار.

إيمان عميق بأهمية الفلاسفة عند المفكرين، وإباء لا حدّ له عند السياسيين، هى المفارقة العجيبة بين إرادة التغيير عند الفلاسفة وتغيير الإرادة عند السياسيين، ليظل النضال قائماً ومشتعلاً بين الإرادتين.

لكن ثمة أزمة أخرى تواجهها الفلسفة العربية بعيداً عن السياسة، تلك الأزمة التى تنبعث من داخل الأسرة الفلسفية ذاتها، حيث ضياع الهوية

(1) المصدر السابق، ص29،30.

الفكرية بين أبناء الفلسفة، تلك التى سمَّاها عزت قرنى بمفهوم «الضياع»، إذ يقول: «يمكن أن نوجز وصف الوضع الفلسفى المصرى القائم بكلمة واحدة هى «الضياع» وليس هذا بتعبير أدبى أو انفعالى، و إنما هو وصف موضوعى دقيق، لأن له مضموناً محدداً يتمثل فى شيئين: عدم تحديد الهوية المصرية، وعدم معرفة الأهداف العامة للمجتمع وما ينتج عن ذلك من افتقاد خطة عملية للتحرك القومى، و إذا كان هذان المضمونات عامين ولا يخصان الوضع الفلسفى ذاته وحده، فإن هذا لا يقلل من قوة انطباقهما على الوضع الفلسفى الذى هو جزء من كل، وما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء»[1].

ولعل هذا الكلام يتضمن بعضاً من الموضوعية التى يقدم قرنى براهينها بقوله: «الضياع» على مستوى برامج الفلسفة فى الجامعات، فلنقلها فى وضوح وحسم، إن برامج دراسة الفلسفة فى الجامعات المصرية بغير قيمة كبيرة، لأنها لا تقول شيئاً ينتظره الطالب أو يهتم به، إلا فيما ندر، و يكون ذلك على الرغم من روح تلك البرامج، ذلك أنها موضوعة على النمط الأوروبى، الفرنسى منه بخاصة والإنجليزى، ولذلك فإنها تعبير مجسم عن «الضياع فى الغرب» ومن مظاهر البلاء العظيم أن دراسة ما يسمى «بالفلسفة» الإسلامية ذاتها يوضع من وجهة نظر عربية، ويمثل مكانه ثانوية بالقياس إلى المساحة التى تصول فيها وتجول أفكار وتصورات وأطر تنتمى إلى الفلسفة الغربية».

و يستطرد قرنى متسائلاً: «وبماذا يخرج الطالب من هذه الدراسة، على الأقل فى جانبها التاريخى؟ نحن نقول: بلا شىء يهمه، وبأشياء تزيد

(1) د. عزت قرنى، الفلسفة المصرية شروط التأسيس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1992م، ص34 - 35.

مـن ضياع وجهتـه، فلا هو بقادر على فهم ما يُعرض عليه من نتاج الفلسـفة الغربيـة، وما أقل القادرين على ذلك من بين أعضاء هيئة التدريس أنفسـهم فى أيامنـا هذه، ولا هـو ينجو، من ناحية أخرى، مما يمكن أن نسـميه «بؤس الوعى» وهو ناتج ضرورى عن شـعوره بعدم القدرة على متابعة ما يُقدم إليه على أنه نموذج الأفكار، ومن هنا ينشأ شعور بالنقص»[1].

ولعل هذا يؤكد صحة دعوتى فى مقالات سـابقة منشورة بالوفد والبوابة، لتدريس كتب الفلاسـفة المصريين والعرب داخل أقسام الفلسفة، لأن هذا فى حدّ ذاته سيُشعل المنافسة بين الفلاسفة والمفكرين من ناحية، ومن ناحية أخرى سيكون له أكبر الأثر فى إقامة فلسفة وطنية.

يكمـن الحـل إذن فى نقد الـذات، إذ أن أحفـاد أفلاطون الذى سـعى إلى التمكـين لهم، لم يهتموا هم بهذا التمكين ولم يسـعوا إليـه، وليس هناك من باحـث فى الفلسـفة إلا وهـو أحد ثـلاث، الأول، واهى العزيمـة عازف عن المشاركة ولو بالرأى، إما لعدم امتلاك الفكرة و إما لعدم القدرة على صياغتها حـال امتلاكها، والثانى مقبل على كل ما يسـتطيعه من المشـاركات من باب الوجود والظهور لا من باب القدرة على الإبداع، فيكون وجوده شكلياً أكثر منـه جوهرياً، والثالـث وهو الأقل نوعاً، الذى يشـارك عن وعى وقدرة على الإبداع، وهؤلاء وحدهم هم القادرون على قيادة سفينة التفلسف.

وهـذا مما ينذر بالخطر على مسـتقبل الفلسـفة فى وطننـا العربى وخاصة فى مصر باعتبارها مهد الفلسـفة منذ فجر الضمير الإنسـانى و إشراق شمس العقـل عـلى الكون، خاصة إذا كانت الكارثة إنشـغال أبناء الفلسـفة بأكل

(1) نفسه، ص38.

العيش كما يقول النشـار: «إن جُل المتخصصين مشغولون بأعمال التدريس والإنتدابات وكتابة المذكرات التدريسية توفيراً للحد الأدنى للحياة الكريمة لهـم ولأسرهم لتدنى أوضاعهم المادية عموماً وعدم رعاية الدولة لهم وهذا ما يقلـل فى ذات الوقت أيضاً من إنتاجهم العلمى المتميز نظراً لأنهم لا يقومون بالبحـث العلمى عـادة إلا بغرض التقدم للترقية، وحتـى معظم الأعمال التى يقدمونهـا لذلـك الغرض عبارة عـن أبحـاث أو كتيبات منشـورة فى مطابع خاصة على نفقتهم الخاصة وليسـت فى دور نشر عامـة بحيث يمكن تداولها وتناولها تناولاً نقدياً»[1].

أضـف إلى ذلك ما يعانيه المبدعون الحقيقيون من طمس لهوية أفكارهم عبر ديكتاتوريات اجتماعية أو سياسية معينة، حيث لا يصلح بنات الفكر فى ظل الديكتاتورية أو الاسـتبداد، إذ لا غنى للفيلسوف عن الحرية، يقول قـرنى: «وهـذا كله يـؤدى بنا إلى الربـط الجوهرى بين النشـاط الفلسـفى والحرية، فلا إمكان للفلسفة فى إطار العبودية لسلطة ما أياً كانت، ويُترجم هذا على المسـتوى الشـخصانى بما يسمى باستقلال الفيلسـوف، فالفليسوف «الموظف» أو «الأيديولوجى» أو «المرترق» إن هو إلا فيلسـوف زائف، بل هو فى النهاية عدو الفلسـفة، وليس اسـتقلال الفيلسـوف مؤدياً إلى انفصاله عن المجتمع، بل هو اسـتقلال عن السـلطات القائمة فى المجتمع، ليكون هو نفسه سلطة جديدة، من نوع أعلى، وربما نجح فى التعبير عن القوى الحقيقية فى الثقافـة، تلك التى تتعدى مصالح السـيطرة الاقتصادية والسياسـية بقدر

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، ط1، سنة2014م،ص122.

مـا يمكن ذلـك، لتكون هى «الذات العليا» فى مقابـل «الأنا» الفاعل فى ثنايا الأحداث اليومية»[1].

إن الأعباء التى تواجهها الفلسفة كثيرة، ما بين ذاتية واجتماعية وسياسية واقتصادية، والفكر الفلسـفى هو الترمومتر المعبر عن حضارة ورقى أى أمة مـن الأمم، لذا فالتنبيه الواجب ونحن نريد بناء نهضة عربية واقعية يتلمس الجميع آثارها وينعم الجميع بخيراتها، لابد وأن يركز على النهوض بالفلسـفة كونها صانعة النهضة بالأسـاس، هـذا النهوض يتلخص فى عدم تقييد حرية الفيلسـوف وعدم غض الطرف عنـه اقتصادياً، كما يتطلب من الفيلسـوف ذاته مقداراً كبيراً من الوعى بهموم ومشـكلات أمته، ذاك فقط هو الأمل فى صناعة تلك النهضة المنشودة.

ثانياً: الفيلسوف

ثمة اتفـاق عام جرت خطواته فيما مضى يمكننـا صياغته فى النص التالى: «نعم الفلسفة قادرة على صناعة نهضة عربية حقيقية بذات القدرة على تقديم حلول لكافة المشكلات الأخرى».

دعونا نتفق على صحة هذه المقولة، لننتقل إذن من الفلسفة إلى الفيلسوف، من الفكرة إلى المفكر ذاته، لنقف عند ثلاث محطات رئيسية كالتالى:

1- الفيلسوف والمجتمع.
2- متطلبات المبدع.
3- النشار وسماته.

(1) د. عزت قرنى، الفلسفة المصرية، ص27.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

1- **الفيلسوف والمجتمع:**

الفلسفة مرآة واقعها والفيلسوف ابن بيئته والفكر صنيع الأحداث والعصر، هذه حقائق شبه مسلمات لدى المتخصصين فى الفلسفة، فالفيلسوف مشغول على الدوام بقضايا وهموم مجتمعه، ومؤرق على الدوام بأوجاع وطنه، وإن كان هو عند النشار القومية وليس الإقليمية، لذا نجد عند النشار تأكيداً على ذاك الربط بين الفكر والمفكر، بين البيئة والفلسفة فيقول: «إن الفلاسفة أيها السادة قوم أرقتهم دائماً مشكلات عصورهم فحاولوا قدر جهدهم أن يتغلبوا عليها، وأن يقدموا لها الحلول، وإذا ما حدث أن استعصى فهمها على معاصريهم ووقفوا كحجر عثرة أمام تطبيقها أو الاستفادة منها، فإن هذا لا يقلل من قدر الفكرة الفلسفية المطروحة لأنها قد تعلو على العصر أو تسبقه فينتفع بها عصر آخر، فمن أخص خصائص الفكرة الفلسفية أنها فكرة متميزة أصيلة إن ارتبطت فى ظهورها بظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية معينة، فإنها فى ذاتها صالحة للتأمل والمناقشة فى أى زمان وأى مكان، صالحة لأن تكون نبراساً هادياً لمن يعاينها ويهتم بها ويرى فيها ذلك الضوء المرشد الهادى وسط عواصف الحياة»[1].

من تلك العواصف تنبع الفلسفة، ومنها يولد الفيلسوف، وكم كان غضب النشار حين تم وضع دستور 2014 دون وجود فيلسوف بلجنة صياغته، لأن الفيلسوف هو ممثل المجتمع فكرياً، ففى سؤال من محرر جريدة المصرى

(1) د. مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص21.

اليـوم للمفكر مصطفى النشـار نصـاً: «ما رأيك فى مخرجات لجنة الخمسـين للدستور»؟؟؟

جاء الرد فى كلمات قواطع: «أهم ملاحظاتى على لجنة الخمسـين أنه ليس بينهم فيلسوف، رغم أن الفلاسفة هم من يضعون ديباجة الدساتير فى العالم، والذى صاغ ميثاق الأمم المتحدة الفلاسفة، والتى جاءت على إثرها كل مواد حقوق الإنسان»[1].

من هذه الناحية يمكننى الوصول إلى نتيجة مؤداها أن: «مصطفى النشـار ابـن لهذه المحن العربيـة التى تمر بها أمتنا، وأن فلسـفته جـاءت وليدة تلك الظروف القاسية رسماً لمعالم طريق النهضة الحقيقية».

فبـدون هـذه الظـروف مـا كانت ثمـة فلسـفة للنهضـة، ولمـا كان ثمة «أورجانـون عربى للمسـتقبل»، ولما كان ثمة «من الثـورة إلى النهضة»، فهى فى مجملها تُمثل فلسـفة واقع منعكسـاً عليها واقع الفلسـفة، والتى نسعى إلى خروجها هى الأخرى من مأزقها لتعبر إلى أفق الإبداع.

2- متطلبات المبدع:

مـن المؤكد أنه لا يباع إبداع معلب، بل لابد مـن صناعة مبدعين حقيقيين يتمتعوا بانتمائهم الإقليمى والقومى على حد سـواء، لأن اسـتيراد التكنولوجيا أيـسر ما يمكن، لكن صناعتها هى مما يتطلب الإبداع الحقيقى الذى يقوم عليه مبدعـون وطنيون مخلصـون، يتمتعون بالصـبر ويتحلون بالقـوة والقدرة على مواجهـة الصعاب فيما أسـماه عزت قـرنى بـ«النفس الطويـل» إذ يقول: «ولا

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، دار المعارف، القاهرة 2014، صـ53.

إبداع حقيقى إلا فى ظل «النفس الطويل» أى حين يتحول الإبداع إلى مشروع ذى حلقات ومراحل، يكون المبدع خلالها قادراً على مجابهة الصعاب وتحدى العوائق، ممسكاً بالنواجذ طوال الوقت بحبل فكرته الجديدة المتين، لا يسقطه ولا يسهو عنه، و إن بدا عنه فى عين الغريب لاهياً، وبعبارة أخرى فإن الإبداع يشترط فى المبدع نوعاً من الصبر العظيم والمثابرة، فلا إبداع فى ظل «النفس القصير» ولا يدرك الإبداع إلا بالنظر إليه فى خلال «الأمد الطويل» و ينطبق هذا الوصف الإجمالى على حالات الإبداع الحضارى للأمم، وعلى حالات الإبداع الشخصى للأفراد على السواء، إن الإبداع الحق لا يعرف «بيضة الديك»[1].

وكم يتمتع هذا القول بالمصداقية، فالمبدع لابد له من الصبر والمثابرة، أضف إلى ذلك الجدية والوضوح فيما يقول النشار: «إن التفكير العقلى العلمى يتسم بالعمق مع الوضوح، يتصف بالدقة مع سعة الأفق وهو يتطلب أن يتصف الشخص المفكر بالشجاعة الفكرية مع التواضع فى ذات الوقت، يتطلب أن يتصف الشخص بالنزاهة الفكرية مع القدرة على المثابرة ليمكنه من التعامل بجدية مع تعقيدات أى مسألة علمية أو أى مشكلة حياتية يريد حلها، وهو يتطلب كذلك أن يتمتع هذا الشخص بنزعة استقلالية أساسها الثقة فى عقله رغم القدرة على الالتزام بمعايير التعقل الصحيحة»[2].

هذه النزعة الاستقلالية التى يؤكدها النشار صفة ذاتية وليست سياسية، فهى تعنى القدرة على الحيادية الفكرية والاستقلال بالرأى وعدم اتباع

(1) د. عزت قرنى، المرجع السابق، ص23.

(2) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة سنة 2010م، ص22.

الهـوى، وهى غير الحرية السياسـية التى تسـمح بنمو الفلسـفة فى المجتمع أو تحجيمها عن طريق قطع الطريق أمام الفلاسفة والمبدعين.

تُرى، هل تتوافر هذه السـمات فى مفكر هذه الدراسـة؟! وهذا السؤال ينقلنا مباشرة إلى الوقوف على سمات فيلسوف تلك الدراسة.

3- **النشار وسماته:**

يكاد اسم مصطفى النشـار يكون معروفاً فى الأوساط الفكرية العربية والعالميـة، والتزامـاً بالحيادية الفكريـة فلا يمكننى أن أخـوض فى الصفات الشـخصية التى هى أقرب إلى الكمال والجمال والإحسان، ولكن حديثنا هنا يقتصر على الصفات الموضوعية علمياً وفكرياً فقط.

ولد مصطفى النشـار فى الثلاثين من سـبتمبر العام 1963م فى قرية شوبر بمركـز طنطـا بمحافظـة الغربية، وهى إحـدى محافظات دلتـا مصر الخصبة بـالأرض والبشر، وتربى تربية ريفية عنوانها كشـأن الريف العربى الأصالة والاجتهاد والعرق، وهى معانى لم تفارق النشـار طيلـة حياته، رغم مفارقته للقرية منذ سن باكر، حيث الدراسة الجامعية بكلية الآداب، قسم الفلسفة، جامعـة القاهرة، ليتخـرج ذاك الطالب القادم مـن الريف بأمل وطموحات الاجتهاد الريفى والوصايا الأبوية الحانية والرقيقة من قسم الفلسفة بتقدير ممتاز، وهو التقدير الذى لم يحصل عليه سوى اثنان فقط قبله، وهما الدكتورة/ **أميرة حلمـى مطر**، والكاتـب الراحل/ **أنيـس منصـور**، وكأن القدر يضع مصطفـى النشـار فى محنة كـبرى، إذ يفـرض عليـه الصعـود إلى منزلة أميرة مطر وأنيس منصور، فإما أن يخلّد هذا الاسـم الـذى صنعه بجده واجتهاده و إخلاصه و إما أن يكون مجرد أستاذاً جامعياً موظفاً لا أكثر.

ويـأبى النشـار إلا الطريق الأول، ليواصل جداً بجـد، واجتهاداً باجتهاد ليحصل على درجة الماجستير من ذات الكلية بتقدير ممتاز فى عام 1980م ثم الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى فى عام 1985م، ثم الترقى إلى أن وصل لدرجة أستاذ فى عام 1996م.

تقلد النشـار العديد مـن المناصب الإدارية داخل جامعـة القاهرة، منها عمادة كلية التربية ثم رياض الأطفال وغيرهما، وكذا رئيسـاً لقسـم الفلسفة بأداب القاهرة لأكثر من دورة رئاسية متتاليات ومتفرقات.

هذا على المسـتوى الإدارى، أما على المسـتوى العلمى فقد تعدت مؤلفاته حاجز السـتون مؤلفاً، ما بين الفكر اليونانى ومشكلات المجتمع المصرى ثم مشـكلات القومية العربية، إذ ينبعث فكره من ثلاثـة أطر متوازية، الأول الإطار الإقليمى حيث الميلاد والنشـأة، والثانى الإطار القومى حيث الانتماء والمواطنة، والثالث الإطار الإسلامى حيث العقيدة والفطرة.

وغالبية مؤلفات النشـار لا تفرق بين الثلاثة أطر، فغالباً ما يتحدث عنهم وكأنهم شىء واحد، وهذا ينبع عن الإحساس بالمسئولية والمرونة الفكرية.

4- سمات النشار:

يتمتع مصطفى النشار بعدة سمات فلسفية وفكرية يمكننا الوقوف عليها كالتالى:[1]

(1) هذه السمات اجتهاد شخصى للباحث وقراءة لما بين السطور فى مؤلفات مصطفى النشار ويمكن للقارئ الكريم إضافة أو تعديل ما يشاء، لأننا هنا فى مقام الفلسفة، أى مقام الرأى والرأى الأخر.

أ- المنهجية العلمية:

فى غالبية مؤلفات مصطفى النشار تجد وحدة عضوية ومنهجية علمية فى أى مؤلف منذ الإهداء وحتى الخاتمة، فالبداية من الإهداء والذى غالباً ما يكون موافقاً لموضوع الكتاب.

والبرهنة على ذلك أسهل ما يمكن، فمثلاً كتاب «الأورجانون العربى للمستقبل» والذى كان حافزى الأول على إخراج هذا الكتاب، قد كتبه لعموم العرب واضعاً لهم منهاجاً يسيرون عليه لصناعة نهضة عربية حقيقية، راسماً لطريق التقدم، موضحاً آلياته، فماذا كتب فى إهدائه: «إلى كل مواطن عربى حاكماً كان أو محكوماً ليتحمل الجميع مسئولياته فى صنع مستقبل الوطن، إذ لم نعدُ نملك ترف التردد والتردى فى ظل التحديات المعاصرة»[1].

أليس هذا الإهداء موافقاً لموضوع الكتاب؟ ..

هكذا تسرى الوحدة العضوية فى الكتاب حتى النهاية، حتى آخر حرف فى الخاتمة، وتلك سمة عامة فى كافة مؤلفات النشار، الثورية منها والفلسفية.

ب- النقد:

وهو الصفة المميزة لكافة كتاباته دون الخروج عن النص، فكثيراً ما يوجه النقد إلى كل ما يراه مستحقاً للنقد دون خوف من أحد، ودون عمل أدنى حساب لأى أحد، ولا أدل على ذلك من انتقاده للجنة الخمسين لوضع الدستور، أو نقده لدور جامعة الدول العربية الهش فى خدمة قضايا العروبة أو نقده لمؤتمرات القمة العربية التى تجيد الخطابة وتعجز عن الفعل ....

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، صفحة الإهداء.

إنـه النقد البنّاء... الذى يبنى، النقد الذى يحرص صاحبه على مواجهة الأخطاء بشـجاعة وصبر منقطعى النظير، يقـول الدكتور محمود مراد ما نصـه: «يلمس المطالـع لمؤلفات العمـلاق «مصطفى النشـار» أنه مفكر مصرى من طراز فريد، مفكر مهموم دائماً بمشكلات وبلايا وطنه، صابغاً كل ذلك بلون من الولاء والحب لهذا الوطن قلّ أن نجده لدى كثيرين من المتصدرين للمشـهد الثقافى والفكرى المعاصر، مفكر شـذ عن المألوف، وتحرر من شرنقة النسق، فقُدر له - ربما لهذا السبب وحده - أن ينجح فيما يفشل فيه الناس عادة، حتى من أولئك المثقفين الذين أغرتهم فتن السلطة والحظوة والمال، قاوم التيار، وانسـل مبكراً عن كوكبة القطيع والمتلونين، فجمع فى قلبه وعقله بين الحسـنيين، مهارة الإدارة وفن التيسـير من جهة، وملكة النقد والتنظير من جهـة أخرى، نراه فى كتاباته ومقالاته مهموماً بأمـراض أمته وناقداً لأحوالها، نقد المحب المتيم بهذه الأمة، المشـتاق إلى نهضتهـا ويقظتها لتزاحم الأمم المتقدمة الأخرى فى سـؤددها، وليس نقد الموتور المعقد الذى لا يرى إلا مواطن الضعف والفسـاد، لا يحابى النشار ولا يداهـن، وفى الوقت نفسـه لا يحبط ولا يُثبـط العزائم والهمم، بل هو ينتقدها راجياً لها أن تعانق أنوار العلم والعقلانية والتحضُر بالصورة التى تستحقها»[1].

إنه النقد الـذى يبنى، نقد المحبين المثقفين الذين يقدمون العلاج والدواء

(1) د. محمود مراد، النشار مشرحاً لأوجاع المجتمع المصرى المعاصر، بحث منشور ضمن كتاب من النقد إلى فلسفة التقد، تصدير د. حسن حنفى، تقديم د. عصمت نصار، تحرير د. محمد ممدوح، دار روافد للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2015م، ص217 - 218.

لأمراض الأمة بروح المسئولية ومسئولية المواطنة ومواطنة المخلصين، لا نقد المغرضين الذين يسعون إلى سلطة أو منصب، أو يبحثون عن مجد شخصي، وشتان بين النقدين، وشتان بين الغايتين.

ج- سهولة الأسلوب ومهارة الاختيار:

يتميز أسلوب مصطفى النشار بالروعة اللغوية والأدبية والتسلسل المنطقي بين الأفكار والترابط العجيب بين العناصر كمقدمات ونتائج، فعباراته متسلسلة ومترابطة بحسب تعبير د. عصمت نصار إذ يقول: «ويتميز قلم مصطفى النشار بأنه قلم ناطق فلا نكاد نجد فارق بين مصطفى النشار المتحدث في المحاضرات أو الندوات ومصطفى النشار الكاتب، فعباراته سلسلة مترابطة الحلقات تخلو من التراكيب العويصة والألفاظ الصادمة والمصطلحات الغريبة، ويرجع ذلك بطبيعة الحال لغايته من إرسال الخطاب ألا وهي الإفهام والتواصل مع المستقبل الحاضر دوماً في ذهن الكاتب، فنألفه يشير من حين إلى آخر إلى الرأي المخالف أو ما عساه يدور في ذهن المتلقي من تساؤلات، الأمر الذي يفسر لنا اسهابه في شرح رؤيته وتوضيح مقصده، كما يتسم أسلوبه بالتواضع غير المصطنع»[1].

أيضاً يتسم أسلوب النشار بالتفصيل بعد الإجمال، فالمقدمة تمثل رؤيته المختصرة التي يتناول تفاصيلها عبر المؤلف متتبعاً المشكلات، ومنقباً عن الهموم والأوجاع، ويجمل د. عصمت نصار تلك السمات بقوله: «.. وأول ما يستوقفنا من خطاب مصطفى النشار الفلسفي هو تلك البوابات أو عتبات النص المتمثلة في عناوين كتبه ومقالاته التي اختيرت بدقة وحصافة

(1) من النقد إلى فلسفة النقد، د. عصمت نصار، المقدمة، ص20.

وأناقة، بالإضافة إلى ذوق الفنان وخبرة المثقف الواعى بمدركات المتلقى من جهة والتحولات والمتغيرات والمستحدثات الحياتية فى شتى الأصعدة والنواحى من جهة أخرى، فلا نكاد نلمح من بين عناوين مؤلفاته ما يمكن وصفه بالتقعير أو الغموض أو التخرلق أو التبذل أو التعالى، وكيف لا فعاية المدرسة التى ينتمى إليها هو ترغيب الأذهان فى الإطلاع والمطالعة والفهم والاستيعاب»[1].

د- الاستناد إلى القرآن والسنة:

وهى من أهم خصائص أسلوب النشار إذ كثيراً ما يعرج على القرآن والسنة استشهاداً بهما عند الحديث عن أى قضية ذات مرجعية دينية، ولو استقصينا الأمثلة لخرج الكتاب عن اطاره العام، ولكن لنذكر مثالاً واحداً، فعند حديثه عن التسامح قال: «أما عن التسامح فى الإسلام فحدث ولا حرج حيث الآيات القرآنية واضحة صريحة فى الدعوة إلى هذه القيمة الإسلامية الكبرى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، وقد أجمل القرآن ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين البشر فى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، وهى الوجه الآخر لقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: 118].

والتسامح فى القرآن الكريم مساو للعفو وقرينه، وقد ذُكرت كلمة العفو فى القرآن خمسة وثلاثين مرة وهى صفة من صفات الله أمر بها نبيه والمؤمنين

(1) المرجع نفسه، ص19.

انظر إلى قوله تعالى عن نفسه ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 55]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95]...»[1].

تلك هى أهم سمات مصطفى النشار الفلسفية، وذاك أسلوبه الفطرى المتسم بالتواضع غير المصطنع والصدق غير المبتذل، والواقعية غير المثبطة، وروعة اختيار الألفاظ.

إجمالاً يمكننا القول بأن الفلسفة هى القادرة على صناعة نهضة عربية حقيقية، تلك النهضة هى التى سطَّرها مصطفى النشار بعبقرية الفيلسوف الشرقى الذى يرتكز إلى قوميته وعقيدته، وينطلق من هموم أمته وعروبته، وينادى بأعلى صوته على عقلاء القوم، أن اتبعوا طريقنا تهتدوا سبيلنا، ذاك هو الطريق بمنتهى الواقعية، وواقع المصداقية، فما هى تلك الخطوات التى رسمها، وما هى الآليات التى اقترحها تلكم هى الفصول القادمة.

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص138، وما بعدها.

الفصل الثانى

الغرب والشرق.. صراع وتعاون

ويتضمن:

تمهيد.

أولاً: العلاقة بين الغرب والشرق والأوهام الغربية.

1- قيام الحضارة الغربية على الأصول الشرقية.

2- الوهم الغربى الكبير.

3- عنصرية الغرب.

ثانياً: أثر الإسلام على أوروبا.

ثالثاً: نقد الحضارة الغربية.

«إن الأمـم الشرقيـة والغربيـة جميعها دائنـة ومدانة فى تراث الحضارة الإنسـانية، وأنه ما مـن أمة لها تاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من ذلك التراث»[1].

❐❐❐

«والحقيقـة التـى لا مراء فيها أن ما فعلـه الغربيون قديماً أنهم أخذوا المنجـزات العلمية والفكرية القديمـة من الحضارات الشرقية السابقة على اليونان، وأضافوا عليها وخلّصوها مما علق بها من شمولية وحس دينى صوفى ليجعلوها أكثر تجريداً، وهذا شـأن أى حضـارة تتأثر وتضيف عليها مـن روحها أى جديد، لقـد أخـذ اليونانيـون كل ما أبدعـه الشرقيـون فى حضارات الشرق الكبرى من علوم غلب عليها الطابع العملى، وطوروها وبدأوا بتسـجيلها فى مؤلفاتهم فنُسـب العلم والفلسـفة إليهم كأنهـم صانعوهـا من عـدم، وليس أبعد عـن الحقيقة من ذلك الوهم الكبير الذى لا يزالون يخدعوننا به، أنهم هم أصل العلم والفلسفة! بينما الواقع أنهم نقلوهما من الشرق القديم وخاصة من مصر وبابل والهند القديمة»[2].

(1) عباس العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، نهضة مصر للنشر، القاهرة، ط4، 2008م، صـ134

(2) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة 2014م ص141.

«نعـم إن الغرب ما زال فى حاجة إلى الشرق، وكان الشرق دائماً مبعـث النور والهدى والدين والإيمـان واليقين للغرب، وذلك بشـهادة كبار علماء الغرب ومصلحيه، وما نظن إلا أن الشرق سـيؤدى هذه الرسـالة مرة أخـرى فعليه أن ينشر رسـالته بين العالم أجمع، وأن يجاهد فى سـبيل ذلك كما جاهد مراراً خلال تاريخه الطويل العريض سيما وأن العالم اليوم يقف فى مفترق الطـرق بين المادية والروحية وبين الإيمان والشـك وبين متين الخلق والإسـتهتار، وبـين القيم الأدبية وبريـق الثروة المادية حتـى كاد الباطل أن يتحيف الحـق وهذا لن يكون، وقد نسى النـاس أن الحق فى كل زمان ومكان يدفع الباطل ويزهقه وأن الباطـل كان زهوقاً، ونسـوا أن الله أوجد الحـق وأوجد القوة لتؤيـده وقد جعل أبنـاء العصر فى الغرب الأمـر بالعكس أى جعلوا الحق للقوة»[1].

(1) السيد أبو الفيض المنوفى، نقد الحضارة المعاصرة، دار نهضة مصر، القاهرة، سنة 1981م، ص61.

الفصل الثانى

الغرب والشرق.. صراع وتعاون

تمهيد

قد يبدو عنوان هذا الفصل غريباً بعض الشيء من ناحيتين، الأولى أن المعلوم للجميع، حتى عند مصطفى النشار - حيث كونه المعنى بالدراسة بالمقام الأول - أن العلاقة صراع لا تعاون فيه، وأن الغرب يريد الإغتذاء على دماء الشرق لا أكثر، فكثيراً ما استعمر الغرب للشرق، وكثيراً ما نهب خيراته واستعبد شعوبه واكتنز ثروات على حساب هذه الشعوب المغلوبة على أمرها، ولكن هذا المعنى وإن كان صحيحاً فى وجه فقد أخطأ فى آخر، حيث أن الغرب فعلاً كثيراً ما نمى لحمه على حساب الشرق، ولكن الشرق لم يبادل الغرب صراعاً بصراع، ولم يبادله قتلاً بقتل أو عنفاً بعنف، وإنما كان رحيماً لأقصى درجات الرحمة مع هذا الغرب المستبد، ففى حين خرج فلاسفة الغرب منذ القدم يبيحون للأوروبى استرقاق واستعباد غيره من الشعوب الأخرى، وسموا تلك الشعوب بـ«البرابرة»، خرجت أصوات فلاسفة الشرق تنادى بالسلام والمحبة، عالم واحد وإله واحد وعدالة بين الجميع.... ذاك باختصار هو الفارق الجوهرى بين الشرق والغرب، ولو كانت هناك محاكم

دوليـة ديموقراطيـة وعادلة ولو جزئياً لفرضت عـلى الغرب تعويضات كبيرة لأخيـه الشرق، لأنه كثيراً ما اسـتعبد الشرق دون أن يقابله الشرق الإسـاءة بمثلها، بل كان العفو سـمته، والصفح شيمته، فكان صراعاً أحادى الطرف، صراعاً يمثله الغرب، وتعاوناً يمثله الشرق.

أمـا الناحية الثانية فأعنى بهـا ذاك التكامل بين كافة الحضارات، فالشرق وإن كان قـد سـطع نـوره على الغـرب بحضارته الضاربـة جذورها فى كبد التاريخ، فإن الشرق قد استفاد أحياناً أخرى من هذا الغرب، نعم، قد يكون الـشرق أنعم على الغرب بحضـارة ومدنية معاً، ولكن الغـرب لم يتفضل على الـشرق سـوى بمدنية خواء من كل حضـارة، مدنية الآلة الصـماء التى أدت إلى ذوبان يشـعره الشرق تجـاه الغرب فيما يقول قرنى: «والواقع أن السـبب المباشر للذوبان فى الغرب هو تصور أنه لا قوة لنا إلا على طريقة المسيطر فى هذه الأيام، وهو الحضارة الغربية، ويترتب على هذا أن نأخذ لا مجرد أدواتها من مصانع وسلاح ووسائل، بل كذلك وبالضرورة أفكارها وقيمها وهذا هو المحال، لأنه لا يمكن لثقافة أن تحاكى ثقافة أخرى إلا بأن تموت»[1].

ثم يؤكد قرنى على أن انفلاتنا عن تبعية الغرب هو خير لنا، وخير للغرب ذاته وخير لبنى الإنسان، والأساس الوحيد لإقامة الإنسانية الحقة[2].

كل هـذا يبدو صحيحاً إلى حد كبير، لكن لابد من الاعتراف أيضاً بتأثر الشرق بالغرب فيما يقول العقاد: «الأصالة قدر مشـترك بين جميع الحضارات فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سـمة تميزها بين الحضارات العالمية،

(1) د. عزت قرنى، المرجع السابق، ص59.
(2) نفس المرجع، ص75.

ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التى تميزها بين سمات الحضارة»[1].

تلك حقيقة لا يمكن إنكارها، ولم ينكرها النشار فى ثنايا حديثه، ولكنه فقط ينكر على المتوجهين بكل ما أوتوا من قوة شطر الغرب، الحالمين بأن نقل المدنية الغربية والتقليد الأعمى للغرب هو الحل، وأن الغرب سيُلقى بسفينة النجاة للشرق.

ويفضح النشار كل تلك الدعاوى، صارخاً بأعلى صوته: «الغرب لا يتدخل إلا بثمن، ولا يأتى من ورائه نفع أبداً، والشرق صاحب أفضال لا تُعد ولا تحصى على الغرب، أيادى الشرق على الغرب بيضاء، أما أيادى الغرب على الشرق فسوداء ليس من ورائها شعاع نور واحد».

تلكم خلاصة رؤية النشار التى سنعرض لتفصيلاتها عبر هذا الفصل.

يبقى التساؤل إذن، ما العلاقة بين النهضة العربية وصراع الشرق والغرب؟

والإجابة من ناحيتين، الأولى أن البعض يتوهم أن النهضة لن تكون إلا باتباعنا سبيل الغرب وتولية وجوهنا شطره، والثانية أن الغرب هو الذى صنع كل الجرائم التى لا زلنا نعانى أثرها فى الشرق من تفرق وتشرذم وضعف ووهن وتقسيم وحدود وابتلاءات ما أنزل الله بها من سلطان، والوقوف على تلك العلاقة بين الغرب والشرق سيوضح كثيراً من عوائق النهضة العربية، وسيضع أيدينا على الأخطاء والمثالب، ويوجه أقدامنا نحو الطريق الصحيح، طريق النصر والعزة بإذن الله.

(1) عباس العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوربية، نهضة مصر للنشر، القاهرة، ط4، سنة 2008م، ص22.

أولاً: العلاقة بين الغرب والشرق والأوهام الغربية

يظن البعض أن الغرب ولى نعمة الشرق، وبدون الغرب فلا حياة للشرق، وهذا هو الزيف بعينه، وتلك الإفتراءات مغالطات تاريخية وحضارية كبرى، لابد من الوقوف عندها عبر ثلاث محاور رئيسه كالتالى:

1- قيام الحضارة الغربية على الأصول الشرقية:

أينما قلبت فى كتب التاريخ بأى لغة فى العالم، تجدها تثبت تقدماً حضارياً للعرب، وقد حملوا تقدمهم الحضارى معهم إلى المناطق التى فتحوها فى أوروبا، صقلية وجنوب ايطاليا وأسبانيا، وبمقارنة بسيطة بين العرب وغيرهم، تجد أن الصليبيين لم يحملوا معهم إلى وطننا غير الخراب والدمار والتعصب، ولم يكن لهم أى تأثير حضارى لأنه لم يكن لدى أوروبا حضارة متفوقة ينقلونها، فإن العرب رغم أنهم كانوا فاتحين، أو بمصطلح السياسة الحديث (محتلين)، إلا أنهم حملوا معهم كل مظاهر الحضارة العربية، وانتقلت منهم بشتى الوسائل إلى أوروبا، وكان لها أكبر الأثر فى انتقال أوروبا من مرحلة الهمجية إلى مرحلة التقدم بما فى ذلك الأخلاق والطبائع باعتراف الأوروبيين أنفسهم، يقول جوستاف لوبون: «تخلص المسيحيون الأوروبيون من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم الطبائع النبيلة ومبادئ فروسيتهم التى منها مراعاة النساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود والوفاء بالوعود»[1].

(1) نقلًا عن د. عودة بطرس عودة، الوحدة العربية هى الحل، المكتبات والوثائق الوطنية، عمان، الأردن، ج2،سنة 1990م، ص97.

هـذه القيم شرقية بالأسـاس، لم يكن للغرب أدنى اعـتراف أو التزام بها، بـل أخذوها مـن العرب الفاتحين، كما أخـذوا عنهم السـلوكيات الأخلاقية والرحمة والتسامح، يقول د.عودة بطرس: «إن هذا الدور التاريخى الذى أداه العرب للحضارة الإنسـانية ارتبط بالتسـامح الذى اشتهروا به، وبالاستقرار الـذى توفر لهم، وكانـوا بذلك على نقيض الصليبيين الذيـن عُرفوا بالتعصب والحقد ولم ينعموا بالاستقرار، فلم يحملوا معهم إلى الوطن العربى غير القتل والخراب والدمار، ولم يتركوا وراءهم آثاراً يسـتحقون عليها كلمة مدح أو ثناء، فى حين أشـاد المؤرخـون الأوروبيون وما زالوا بأثـر الحضارة العربية على الحضارة الأوروبية، وبالدور الحضارى العربى الإنسانى بما خلفه العرب فى الأندلس، وقد أوجز لوبون قيمته الكبرى بقوله: «إنه لا يوجد فى أسـبانيا المعاصرة من أعمال الرى سوى ما أتمه العرب»[1].

لكنهم كعادتهم اسـتمرئوا الكذب، فصورا للإنسانية أنهم صانعوا الحضارة الإنسانية بأسرها من عدم، لم يأخذوا عن أحد، ولم يتأثروا بأحد، فى حين أنهم لم ينهضوا إلا حين ارتكزوا على قواعد شرقية، يقول النشـار: « والحقيقة التى لا مراء فيها أن ما فعله الغربيون قديماً أنهم أخذوا المنجزات العلمية والفكرية القديمة من الحضارات الشرقية السـابقة على اليونان، وأضافوا عليها وخلّصوها مما علق بها من شـمولية وحس دينى صوفى ليجعلوها أكثر تجريداً، وهذا شـأن أى حضـارة تتأثر وتضيف عليها من روحها أى جديد، لقد أخذ اليونانيون كل مـا أبدعه الشرقيون فى حضارات الشرق الكبرى مـن علوم غلب عليها الطابع العملى، وطوروها وبدأوا بتسـجيلها فى مؤلفاتهم فنُسـب العلم والفلسفة إليهم

(1) د. عودة بطرس عودة، المرجع السابق، ج2، ص102.

كأنهم صانعوها من عدم، وليس أبعد عن الحقيقة من ذلك الوهم الكبير الذى لا يزالون يخدعوننا به، أنهم هم أصل العلم والفلسفة! بينما الواقع أنهم نقلوهما من الشرق القديم وخاصة من مصر وبابل والهند القديمة»[1].

ويُصدق النشار الكثير من الكتابات التى أكدت الجذور الشرقية للحضارة اليونانية وتأثر الغرب بعلوم الشرق فى الطب والأدب والزراعة والصناعة وشتى المجالات الأخرى، يقول جيوم: «سوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوروبية أن تأثير العرب الخالد فى العصور الوسطى كان أجّل شأناً وأكبر خطراً مما عرفناه حتى اليوم»[2].

لقد شمل تأثير العرب على أوروبا عدة مجالات مثل الزراعة والصناعة، بل وامتد هذا التأثير ليشمل الأدب والموسيقى وكافة أنواع العلوم والفنون وتغلغل فى الحياة الأوروبية حتى بلغ اللغات، ففى اللغة المجرية عشرات المفردات من أصل عربى، وفى اللغة الإنجليزية ما يقرب من ألف كلمة مشتقة من أصل عربى منها حوالى مائتين وستين كلمة من الكلمات الشائعة كثيرة الاستخدام فى الحياة اليومية، وبلغ عدد الكلمات العربية المستخدمة فى اللغتين الإسبانية والبرتغالية أكثر من أى تصور، واللهجات الفرنسية خاصة فى الجنوب فى مقاطعتى Limousin- Auvergen مليئة بالكلمات العربية، كما أن أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية واضحة[3].

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل ص141، وكذلك مؤلفه الضخم «تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى» ج1، الفصل الأول بأكمله، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م.

(2) نقلًا عن د. سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، دار نهضة مصر، القاهرة، ط3، 1994م، ص498.

(3) لوبون، حضارة العرب، ص466 نقلًا عن الوحدة العربية، ج2، ص99.

أمـا فى الأدب فيقـول جـب Jieb : «إن خير مـا أسـدته الآداب العربية الإسـلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربى فى شعر العصور الوسـطى ونثرها، وأنه لولا قصص ألف ليلة وليلة لما عرف الأوروبيون قصة روبنـس كـروزو أو قصـة رحـلات جلفـر Gullivers travels، ويضيف المسـتشرق جورج يعقوب مردفاً: «إن قصة روبنسـن كروزو مأخوذة عن قصة حى بن يقظان التى كتبها فيلسـوف الأندلس ابن طفيل، والتى تُرجمت إلى اللاتينية عام 1671م و إلى الانجليزية عام 1708م»[1].

أمـا فى الطـب، ففى حين انصرف اهتـمام الأوروبيون عن الطب بسـبب الجهـل وتزمـت رجال الدين والاعتقـاد بأن المرض نوع مـن العقاب الإلهى لا يجوز للإنسـان أن يعالج منه، كان العرب قد برعـوا فى هذا الميدان وتجاوزوا كل ما أخذوه عن اليونان عندما ترجموا كتبهم، وأضافوا أبواباً جديدة فى الطب والصيدلـة، وبرز مـن العرب عباقرة فى الطب بـكل فروعه، وضعوا تجاربهم العلمية ونظرياتهم فى مؤلفات اعتمدت عليها أوروبا حتى القرن الثامن عشر فى دراسـة الطب فى جامعاتها، فكتابات ابن سينا (ت 1037م) فى الطب ظلت مرجعاً أساسياً للدراسات الطبية فى جامعات فرنسا، حتى القرن السابع عشر، وكانت هـذه الكتابات إلى جانب كتابات الرازى من المراجع الرئيسـية التى كان يُمتحن فيها الطالب إجبارياً للحصول على إجازة الطب[2].

أضـف إلى ذلك من تأثيرات شرقية على الحضـارة الغربية وصلت إلى حدّ الاستخدام اليومى للغة فيما يقول العقاد: «وعن هذه الأقوام العربية الأولى

(1) نقلًا عن د.. عودة بطرس، المرجع السابق، ج2، ص98.
(2) د. عودة بطرس، المرجع السابق، ج2، ص100 - 101.

تلقى الأوروبيون عقائدهم عن الأسبوع وأرباب الأيام وسلطانها على الأحياء أو على الأحداث والزروع والضروع، ولا تزال أسماء الأيام الأفرنجية تحمل طابع العقائد السماوية كما كان يعتقدها أسلاف العرب المغرقون فى القدم، وتتداولها لغات الغربيين إلى هذه الساعة التى نحن فيها»[1].

ويؤكد العقاد على أن الفلسفة الغربية ذاتها ترجع فى أول نشأتها إلى جذور شرقية فيقول: «وقد كانت المدرسة الكبرى المعنية آداب الحياة والسلوك، بين مدارس الفلسفة التى اشتهرت باسم «الفلسفة الإغريقية» هى مدرسة شرقية فى أصول أساتذتها، وأصول مبادئها، وأصول تفكيرها، التى انفردت بها بين أصول التفكير الغالبة على العقول حكماء الإغريق الأصلاء. ونعنى بتلك المدرسة الشرقية الرواقيين.

فقد كان رأس هذه المدرسة «زينون» عن أصل كنعانى أو فينيقى كما كان الإغريق يسمون بعض الكنعانيين، وكان مولده على الشاطئ الشرقى من جزيرة قبرص فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

وكان من أقطاب هذه المدرسة من ولد فى صيدا، ومن ولد على ضفاف نهر العاص أو نهر دجلة، وكان لها شأن جليل فى الثقافة الإغريقية ثم فى الثقافة الرومانية ثم فى المدرسة الأفلاطونية التى نشأت بالأسكندرية»[2].

ومع كامل احترامى لثقافة وقيمة العقاد، إلا أن التأُير الشرقى يرجع إلى ما قبل الرواقيين بسبعة قرون على الأقل، فمعظم أقوال الحكماء السبعة الذين

(1) عباس العقاد، أثرت العرب فى الحضارة الأوروبية، نهضة مصر، القاهرة، ط4، سنة 2008م، ص411.

(2) المرجع السابق، ص14.

اشـتهرت بهم اليونان أخذوا حكمتهم عـن الحكمة الشرقية خاصة المصرية والهندية كما أن أفلاطون ذاته وهو سـابق على الرواقيين بزمن غير قليل قد زار مصر وأُعجب بأهراماتها وتعلم الحساب والفلك من المصريين القدماء، بـل إن دعوة أنطيفون السوفسـطائى إلى الوحدة العالمية هـى فى أصلها دعوة شرقيـة جاءت على لسـان الملـك المصرى «اختانـون»، وغير تلـك الأفكار الفلسفية الكثير التى ترجع فى جذورها إلى الشرق.

ولكن فى ملمح آخر يلفت العقاد النظر إلى تغلغل الأثر الشرقى فى الحضارة الغربية ليصل إلى حدّ اللغة فيقول: «فيوم الأحد يُعرف فى الانجليزية باسـم Sunday أى يوم الشمس، ويوم الإثنين يُعرف باسم Monday أو يوم القمر، ويـوم الثلاثـاء يُعرف باسـم Tuesday أو يـوم «ثيوز» إله الحـرب عند أمم الشمال الأولى، وتوضحه التسمية الفرنسية لهذا اليوم لأن يوم الثلاثاء يُعرف فيها باسم Mardi أو يوم مارس وهو المريخ.

ويـوم الأربعاء يُعـرف فى الإنجليزية باسـم wenesday أو يوم «ودين» إله المعارف والفنون عند قدماء النيوتون، وتوضحه التسـمية الفرنسية أيضاً لأن يوم الأربعاء يُعرف فيها باسـم Mercredi أى يوم عطارد وهو بالفرنسية mercure وبالإنجليزية mercury.

ويوم الخميس يُعرف فى الانجليزية باسـم Thursday أو يوم «ثور» إله الرعد عند قدماء التيوتون، ويوم الجمعة يُعرف فى الانجليزية باسم Friday أو يـوم الربـة فريـج Frig زوجة عطـارد ومقابلة الزهـرة فى صفاته، ويوم السـبت يُعرف فى الإنجليزية باسـم Saturday أو يوم زحل فى تلك اللغة إلى اليوم.

ويتبين من معانى أيام الأسبوع عندهم أن عقائد التنجيم التى أخذوها عن السلالات العربية قد تغلغلت فى شعوبهم الأوروبية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وهى العقائد التى ترتبط بالمعيشة اليومية وطوالع الأوقات وسلطان الأفلاك العليا على الأحياء وحوادث الأيام»[1].

يمكننا القول إذن بأن الحضارة الغربية قامت فى أصولها على الحضارة الشرقية، نعم، قد طالتها أيديهم بالتنقية والتطوير كما يقول النشار، ولكنهم ليسوا هم أبداً صانعوها من عدم، بل إن البشرية بأسرها لتدين بالفضل للحضارة الشرقية، لا على الناحية المدنية فحسب ولكن للناحية الأخلاقية والتسامح الذى غذا حضارة الشرق واتسع أثره ليطول العالم كله.

2- **الوهم الغربى الكبير:**

يُصدر الغرب للعالم مشهداً كاذباً من ألفه إلى يائه، حيث يزينوا للعالم أنهم هم أصل الحضارة، وأن فضلهم على العالم كفضل الشمس على سائر النجوم، وهو محض كذب وافتراء قدمنا عليه الدلائل فيما سبق ووجه إليه النشار النقد أكثر من مرة، حيث أنهم ليسوا سادة بحق، بل هم متسلطون على البشرية، يقول النشار: «وشيئاً فشيئاً، وكما فعل أجدادهم، طمسوا الحقيقة الناصعة - حقيقة العصور الإسلامية الرائدة المبدعة - وجعلوها باهتة قاتمة، ومرة أخرى صوروا لأنفسهم وللعالم أنهم صانعوا مجد الإنسان الحديث وحدهم وإنهم من بين بنى البشر من يملكون قدر البشرية كلها، فلابد أن

(1) عباس العقاد، المرجع السابق، ص12.

ينصاع العالم لهم، وأن تسلمهم البشرية قيادها، إنهم لا يزالون السادة وما عداهم من التابعين، إنهم يملكون وحدهم الفكر والإبداع، وغيرهم يستورد ما يصدرونه له من نفايات المدنية وتافه الثقافة وأحط الأخلاق حتى يتشكل الجميع بنموذج غربى زائف»[1].

مغالطة أخرى كبرى ووهم لا حدّ له يحاول الغرب تسويقه عبر أجهزته الإعلامية المنتشرة عالمياً، حيث يصور نفسه الحمل الوديع والمحسن الأمين الذى يمد يد العون إلى الفقراء والمعوزين، وما أبشع تلك الكذبة، التى يفندها النشار بقوله: «.. الملاحظة الأولى تبدو فى هذا الأسى والألم الذى نشعر به جميعاً حينما نشاهد مناظر أولئك الأفارقة الجوعى سواءاً كانواً عرباً أم لم يكونوا، وأجسادهم يبدو منها العظم وهناً وضعفاً دلالة على الفقر المدقع وعدم وجود القوت الضرورى لهؤلاء، وكم نصيح عندئذ قائلين، ألا يستحق هؤلاء العون حتى نحميهم من هذا الجوع وهذا العطش.. وكم ننبهر بهذا الإنسان الغربى الرقيق الذى أتى بمؤسساته الدولية والصليب الأحمر ووكالات الغوث الأخرى، فيشملهم برعايته ويكسب ودهم بمعوناته!».

إنها حقيقة مغالطة كبرى حينما نظل على هذه المشاعر المتضاربة إزاء كل ذلك، فالحقيقة أن وراء كل هذه المظاهر المتناقضة التى نراها فى أدغال الصومال وموزمبيق والسودان وأنجولا وغيرها، ورائها الإنسان الغربى ذاته، فهو الذى استعمر هذه البلاد ونهب ثرواتها وعمد إلى تفتيت وحدتها وإزكاء الصراعات بين قبائلها وزعمائها، ولم يتركها إلا بعد أن ربط

(1) د. مصطفى النشار، ضد العولمة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ن ط2، سنة 2001م، ص57.

اقتصادها باقتصاده ولم يزرع فيها أبداً أى إمكانية للتنمية الذاتية المستقلة أو أى إمكانية للنهوض الذاتى حيث بؤر الصراع المشتعلة دائماً وتضارب المصالح بين الناس على أشدهما دائماً، ورغم الفقر والعوز، يسعى كل فصيل للسيادة والسيطرة لعله يجد ما يُسد به رمقه ويطفئ به شهوته ويحقق به كرامة زائفة أو سيادة خرقاء لا قيمة لها .. إن أسوأ ما فى الأمر هنا هو أن نرى أن المساعدة تأتى ممن كان السبب فى كل ما تعانيه هذه الشعوب من فقر مدقع وصراعات لا تنتهى، فليس إنساناً من حرم غيره سُبُل العيش المستقل والتنمية الذاتية وحسن استغلال موارده، ثم قدم إليه مساعدات ومنح هى فى واقع الأمر تكئة للأخذ والمزيد من الاستعباد»[1].

فالغرب هو الذى صنع تلك المآسى الإنسانية بالشرق، ثم هو يبدو أمام العالم وكأنه الطبيب طيب القلب الذى جاء لمعالجة المريض باسم الإحسان والإنسانية فى حين أنه أول من قتل الإحسان وبدّل مبادئ الإنسانية.

أضف إلى ذلك أن هذه الإنسانية ليست سوى تكئة للمزيد من الاستعباد فيما يقول النشار، ثم إن تكلفة هذه الإنسانية المصطنعة هى فى الأصل من جيوب هؤلاء المعوزين وعلى نفقتهم الخاصة وعلى حساب استعبادهم، ويدلل النشار على ذلك بما قاله جوزيه دى كاسترو من أن كل دولار تقدمه الولايات المتحدة إلى أمريكا اللاتينية يقابله ثلاثة دولارات تعود إلى الولايات المتحدة، وكذا ما قاله رجل الدولة الأمريكى «هرمان» من أن المعونة المقدمة إلى البلدان المتخلفة وسيلة ممتازة تتيح للبلدان الفقيرة مساعدة البلدان الغنية[2].

(1) د. مصطفى النشار، وهم التنمية على الطريقة الغربية، مقال منشور بجريدة الأهرام، المصرية، الأحد 17 نوفمبر 2012م.

(2) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص147.

كما يوجه جارودى النقد اللاذع لتلك الإنسانية الغربية الوهمية مؤكداً على ثلاثة محاور رئيسة، الأول أنه قد تم تطور المجتمعات الإقتصادية الغربية باقتطاع الموارد العالمية، والثانى أن المجتمعات الغربية الصناعية عندما أذاعت أنموذجها حرمت بلدان العالم الثالث من النمو الجاد والأصيل وأدخلت عليه ثقافة ليست منه وليس منها، والثالث أن نمط التطور الذى تمارسه المجتمعات الغربية الصناعية يقود البشرية إلى درب مسدود[1].

ولعل هذه الإنسانية الغربية هى أحد دلائل انتحار الحضارة الغربية، فالحضارة التى تقوم على الكذب والتزييف والخداع لن تعمر طويلاً، وتلك سنة الله التى أجراها على لسان التاريخ لمن يقرأ أو يعتبر ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: 111].

3- عنصرية الغرب:

ليس بدعاً أن تكون هذه الحضارة الكاذب أهلها قامت على العنصرية، تلك العنصرية التى يُرجع النشار تاريخها إلى ما قبل الميلاد فى واقعة متفردة الفهم، حيث يذكر احدى خطابات الإسكندر لآرسطو والتى ذكرها بلوتارخ حيث يقول لآرسطو: «إنك لم تحسن صنعاً بنشرك كتبك فى نظريات الخطابة، إذ ما الذى بقى لنا مما نمتاز به على الآخرين إذا أُبيحت تلك الأشياء التى تخصصنا فى معرفتها للجميع؟ إنى أؤكد لك أنى من ناحيتى أوثر أن أمتاز على الآخرين بمعرفة ما هو ممتاز على كل اتساع فى قوتى وامتداد لسطانى».

وعلق النشار على هذا النص بفهم مختلف عما فهمنا من قبل من أن

(1) روجيه جارودى، حوار الحضارات، ص91.

الإسكندر أراد توحيد الحضارات وتزوج بالشرقيات هو وجنوده لإثبات الوحدة الإنسانية ولكن حتى هذا الصنيع كان زائفاً ذا أغراض خبيثة، يقول النشار: «ولعلنا قد أدركنا من هذه الكلمات المباشرة للإسكندر أنه لم يكن يستهدف كما هو شائع نشر الفكر اليونانى فى الشرق بقدر ما استهدف التعرف على «هؤلاء البرابرة» وضمهم إلى دولته، وليقضى على ما بقى فى حوزتهم من تميز فكرى، ولا ضير فى أن يتشكل أحياناً تشكلاً زائفاً فيرتدى ملابسهم أحياناً، و يتقرب إلى آلهتهم أحياناً أخرى، ولا ضير فى أن يتزوج منهم و يوحى إلى قواده بأن يتزوجوا منهم أيضاً! لقد كان كل ذلك وسيلة لغاية أبعد هى تأكيد سيادة الجنس اليونانى فكراً وعقيدة»[1].

فلا خير إذن أن نرى استمرار تلك العنصرية حتى اليوم، فهى ليست بدعاً من الزمن، بل هى صنيعة الزمن القديم، وما يفعله الأحفاد اليوم من معاداة للعالم بأسره ظناً منهم ووهمًا بأنهم هكذا يحافظون على زعامتهم، دون أن يفطنوا إلى أنهم بسوء صنيعهم هذا إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم، يقول النشار: «لقد أصبحنا فى عصر القطب الأوحد بعد انهيار الإتحاد السوفيتى السابق وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم، وكم تغنى قادة هذه البلاد الغنية بما تعيشه من حريات ومن حفاظ على حقوق الإنسان! وكم كان حلماً جميلاً لكل إنسان على ظهر هذا العالم وخاصة فى بلاده النامية أو المتخلفة أن يذهب إلى الولايات المتحدة رمز الثراء والحرية واحترام الحقوق! لكن كل ذلك انهار فجأة بفعل التجبر الذى أظهرته الولايات المتحدة مؤخراً تجاه الآخرين تحت حجج مختلقة ومختلفة، فمرة يهاجمون الصين بحجة عدم

(1) د. مصطفى النشار، ضد العولمة ص54 - 55.

حرصها على حريات مواطنيها، ومرة يهاجمون الدول الإشتراكية السابقة بنفس الحجة كما يهاجمون معظم دول العالم الأخرى بذات الطريقة وتحت نفس الدعاوى!

والحقيقة أن هذا القناع قد انكشف بعدما فضحت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فى ظل غزوها العسكرى لأفغانستان، ثم العراق بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر الشهيرة»[1].

ولا تزال العنصرية الغربية تمارس ضد عالمنا العربى والإسلامى أو ما أسموه هم بالعالم الثالث، حيث اتخذوا من الإسلام عدواً فى حين بسط الإسلام لهم يد السلام والأمن على مر العصور، وما هذا العداء إلا لأنهم يتصورون أنهم لا يمكنهم العيش بدون عداوات مع الأخرين، فإن كان العداء فعلاً له أسبابه، و إلا صنعوا هم تلك الأسباب، وتلك هى أبشع صور العنصرية على مر التاريخ.

ثانياً: أثر الإسلام على أوروبا

لعل الذين أجادوا فهم الإسلام، فهم مقاصده وغاياته، فهموا أنه دين العلم والعمل، لا انفصال فيه بين النظرية والتطبيق، وما أكثر ما تأثر الغرب بمبادئ الإسلام التى تحث على العمل، أى أنه أخذ الجانب المادى لا الروحى، لذا فهو يقيم دولة العمل، لكنه لا يقيم دولة العدالة، و إن أقامها على أرضه فلن تطال غيره!!هذاما ينبغى أن نفهمه جيداً.

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر بين الخطاب النظرى والواقع العملى، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة.

لقد ألهم الإسلام الغرب كل قيم الحضارة، يقول الإمام محمد عبده متسائلاً ما نصه: «ماذا حمل الإسلام إلى أوروبا، وها هى ذى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان أسيا من الأريين، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين، نظف جميع ذلك ونفاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى سائر الأمم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلجاً ناصعاً يبُهر أعين هؤلاء الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون، إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها عدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت فى أرضهم بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة»[1].

يد الإسلام إذن امتدت بالإحسان وبالحضارة وبالعلوم الكونية والعلمية والإنسانية، بداية من تعليم الفلسفة والفكر ومروراً بتعليم الفلك والحساب، وانتهاءاً بقيم التسامح التى طالما يُعلمها الشرق للغرب فيما يقول السيد أبو الفيض المنوفى: «نعم إن الغرب ما زال فى حاجة إلى الشرق وكان الشرق دائماً مبعث النور والهدى والدين والإيمان واليقين للغرب، وذلك بشهادة كبار علماء الغرب ومصلحيه، وما نظن إلا أن الشرق سيؤدى هذه الرسالة مرة

(1) الإمام محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، دراسة د. عاطف العراقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2009م، ص90.

أخرى فعليه أن ينشر رسالته بين العالم أجمع، وأن يجاهد فى سبيل ذلك كما جاهد مراراً خلال تاريخه الطويل العريض سيما وأن العالم اليوم يقف فى مفترق الطرق بين المادية والروحية وبين الإيمان والشك وبين متين الخلق والإستهتار، وبين القيم الأدبية وبريق الثروة المادية حتى كاد الباطل أن يتحيف الحق وهذا لن يكون، وقد نسى الناس أن الحق فى كل زمان ومكان يدفع الباطل ويزهقه وأن الباطل كان زهوقاً، ونسوا أن الله أوجد الحق وأوجد القوة لتؤيده وقد جعل أبناء العصر فى الغرب الأمر بالعكس أى جعلوا الحق للقوة»[1].

ولم يكن جهاد الشرق بالسيف والعصا، وإنما كان بالإحسان والعفو والصفح، ومن يرد الإستزادة من أخلاق الشرق فليرجع إلى ما كتبه مونتجمرى وات، ذالكم المؤرخ الغربى المسيحى فى كتابه «الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر»، وما كتبه روجيه جارودى فى «حوار الحضارات»، وفى «عوامل نهضة المسلمين» وما كتبه زيجريد هونكه «هذا هو الله» وما كتبه غيرهم من عدول المؤرخين والمستشرقين الذين لم يعرفوا المجاملات قط فى أحاديثهم ولم ترد لهم ببال.

إجمالاً، لقد ترك الشرق بعقيدته وبمبادئه أياد بيضاء على الغرب، أيادٍ تعلوها السماحة والشهامة ومستوى نبيل من الخلق، يقول السيد المنوفى ما نصه: «ولا غرابة ولا عجب فى أن يُخلص بعض رجال الشرق الحب والهداية لأخيه الغرب، فيبادله عطفاً بكبريائه، ورحمة بقسوته، وإحساناً بإساعته،

(1) السيد أبو الفيض المنوفى، نقد الحضارة المعاصرة، دار نهضة مصر، القاهرة، سنة 1981م، ص61.

ونوراً بظلامه، وعدلاً بظلمه، وتعاوناً و إخاءاً بتنازعه وأنانيته، وأخيراً يبادله روحية مستنيرة بماديته، ولا يعجبن أهل الغرب من قيام شرقى بإذاعة مثل هذا النور والحق، فتلك سنة الشرق دائماً تسير مع التاريخ الذى يعيد نفسه بنفسه، وأدوار الإنتقال العظمى جنباً إلى جنب»[1].

ثالثاً: نقد الحضارة الغربية

يبقى التساؤل الآن، هل لحضارة قامت على المادة البحتة والكذب والخداع والكيل بمائة ألف مكيال أدنى نصيب من الديمومة؟ وكيف للمادة وحدها أن تُعمر الكون أو تستقل عن الروح؟

ولعل هذا كان من أكبر مثالب الحضارة الغربية التى حوّلت الإنسان إلى آلة، وجود محض وفعل محض، إلى أن ضاعت قيم الإنسانية فى ركام المادة فيما يقول قرنى: «هكذا تتحول الآلة ضد الإنسان، و يتجه الإنسان الغربى إلى أن يكون هو نفسه كالآلة، وهكذا أيضاً تتجه الحضارة الغربية ضد ذاتها، لتضرب أحد مبادئها الأساسية المتضمنة فى قيمة «الفرد» ألا وهى كرامة الإنسان، وربما كان أعظم القطاعات إحساساً بإهدار الكرامة هم العمال فى المصانع الكبرى التى تستخدم ما يسمى «بأحدث أدوات الإنتاج»، فأول وأهم ما يشكو منه العامل الغربى هو أن العمل قد تفتت إلى درجة لا يمكن تصورها، بحيث أن العامل أصبح يقوم فى تلك المصانع بنفس الحركة الواحدة طوال يوم عمله، فإذا كان مثلاً فى أحد مصانع إنتاج السيارات فإن له عملاً محدداً لا يتعداه، وليكن مثلاً الدفع بمسمار فى فتحة ما ليقوم زميله

(1)) المرجع نفسه، ص80 - 81.

التـالى بالدق عليـه وهكذا، حتى تخرج السـيارات واحـدة بعد الأخرى فى نهاية المطاف، وقد مرت على مئات العمال كل منهم يقوم بعمل واحد وواحد فقط طوال اليوم، ومن هنا ظهرت كثرة الشـكوى من الانهيار العصبى ومن الكآبة وغير ذلك، حتى أن العامل لا يخرج من عمله إلا ليرتاح منه وليسـتعد لـه فى يومه التالى، وهكذا تتلخص حيـاة العامل كما عبّر عنها بعض الطلاب فى أحداث 1968م الشـهيرة فى فرنسـا «العمل فالمترو فالنوم»[1]. فى مثل هذه الأنظمة المادية البحتة تتراكم الأمراض النفسـية وتنمو المشكلات العصبية التـى لا حدّ لها، أضف إلى ذلك أن سـنة الخالق سـبحانه قد جرت بأن النظم الاقتصادية البحتة إذا سـادت فى نظام جماعة من الجماعات قد ترقى بمستوى تلـك الجماعـة مادياً فتشـغلهم لاسـيما إذا بالغـوا فى مظاهر المتعـة والترف فيصرفهم ذلك عن رفع المسـتوى العقلى والأدبى فى تلك الجماعة خصوصاً إذا دب بينهم البُغض والتنازع ووسـائل الغدر والوحشـة التى هى حتماً صنيعة هذه المادة الجوفاء[2].

وفضلاً عـن تلك الماديـة البحتة فإن الحضـارة الغربيـة معرّضة للإنهيار بسـبب إزدواجية معاييرهـا وكيلها بمكاييل مختلفة وهو مـا يحذر منه توينى بقولـه: «إن الحضارة الأوروبية تحمـل فى طياتها التناقض بين الفكر والعمل، بين أفكار المسـاواة والإخاء والحرية التى ورثتها من الثورة الفرنسـية وبين التفرقة العنصرية التى تمارسها الآن بالفعل والتى تشكل خطراً عليها بزيادة وعى الشعوب الملونة، هذا بينما طابع الحضارة الإسلامية الإتساق بين الفكر

(1) د. عزت قرنى، المرجع السابق، ص140 - 141.
(2) السيد أبو الفيض المنوفى، نقد الحضارة المعاصرة، ص22.

والعمل بصدد المساواة إذا ارتفعت فى أزهى عصورها أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد»[1].

هذه الحقائق أدركها فلاسفة ومؤرخى الغرب الراشدين، ومنهم من قام بمواقف مؤيدة للحق والعدل ضد بلده مثل الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر الذى عارض الإحتلال الفرنسى للجزائر، ومثل فلاسفة السلام الغربيين وعلى رأسهم كانط ورسل وروسو، ثم أخيراً آرنست رينان وروجيه جارودى، فقد فطن هؤلاء جميعاً إلى سوء المصير المنتظر للحضارة الغربية المقدمة بلا أدنى شك نحو الإنهيار، يقول المؤرخ الفرنسى فلامريون ناصحاً بنى قومه: «لا يجوز لنا معاشر الأوروبيين أن نخجل من الاعتراض بما وقعنا فيه من الإنحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المشبعة بالأثرة لا همّ لها سوى أغراضها الذاتية، أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها والحصول على المجد الزائف من طريق المخاتلة والإغتيال لا الكسب الطبيعى، وبذلك وقعنا فى الجمهود وعدم الإهتمام بالواجبات الإنسانية، ألا ترى أن الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للإنسان فى الطبيعة بينما رفع عقولنا فإنه هبط بإنسانيتنا إلى أحط الدرجات، ومن المحزن أن نحس بأنه بينما تشتعل بناء قوتنا يوماً بعد يوم وتنطفئ حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا الحقيقية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية»[2].

(1) Toynbee: Civilizatian on trial, clarendon press, 1983,p.205.

(2) نقلًا عن السيد أبو الفيض المنوفى، المرجع السابق، ص21.

ثمة ناحية نقدية أخرى يوجهها جارودى إلى الحضارة الغربية إذ يقول: " إن عالمنا الغربى ليس فقط ملحداً، ولكنه يؤمن بتعدد الآلهة، فكل فرد وكل جماعة تضع لها إلهاً حسب رغبتها، معتبرة المال والسلطة والتقنية والجنس والأمة والأيديولوجية والإزدياد غاية فى حد ذاتها وقيمة مطلقة و إلهاً مزيفاً كاسراً متعصباً وملتهماً لكل من يخدمه ومتعالياً بلا رحمة على كل قيمة، وعلى كل إنسان آخر يتعارض مع انتشاره وتمدد سلطانه.

وفى عصرنا هذا حيث المال هو طريق الوصول إلى كل الرغبات وكل السلطات منذ بداية عصر الرأسمالية، فإن كثيراً من المفكرين بعيدى النظر أمثال «توماس هوبز» رأوا أن هذه الرغبة وتلك المنافسات ستؤدى بالمجتمع إلى «حرب الكل ضد الكل» سواءاً فى شكل منافسات تجارية أو صناعية يدمر فيها الأقوياء الضعفاء أو يمتصونهم، و إما فى شكل مواجهات طائفية هدفها حصر المجتمع، حيث يهدف كل منها إلى السيطرة ونصرة مصالحه الطائفية عن طريق وسائل القوة المتاحة له حتى ولو كان ذلك ضد المصلحة المشتركة، ومحصلة هذه المصالح وهذا العنف المتبادل شيء لم تره عين قبل ذلك، وهو شيء يقود إلى انحرافات انتحارية لازدياد أعمى، حيث تذهب أكبر الاستثمارات لأكثر المشاريع، ربما وهى التسليح والطاقة الذرية والفضاء مثلاً، وأن يكون القانون الملازم بلا غاية إنسانية فى خدمة تدمير الإنسان وليس فى خدمة سعادته»[1].

إذن الحضارة الغربية تسير الآن فى طريق الانهيار، ليس انهياراً على

(1) روجيه جارودى، الإسلام، ترجمة د. كمال جاد الله، دار الجليل للنشر، القاهرة، 1997م، ص37-38.

أيدى الأعداء أو المنافسين، ولكن انهياراً داخل البنيان ذاته، انهيار يصدق عليه لقب الانتحار، لأنها ما فتئت تغذى الجسد، وما برحت حدود المادية قيد أنملة، فكانت تلك الحضارة باحثة عن التقنية لأجل التنقية فيما يقول جارودى، لا لأجل غاية أخرى: «المفهوم الغربى للعلم والذى لن يلبى الإ حاجات الغرب، ولن يهتدى بالوحى لحل مشاكلنا قاد الغرب إلى علم من أجل العلم، وتقنية من أجل التقنية، أى دونما غاية إنسانية أو إلهية، ووصل به إلى الإنحدار الأخلاقى والسياسى»[1].

أما بتوصيف عزت قرنى فإن الحضارة الأوروبية تعيش أزمة، ستُفض بها إلى النهاية على عجل: «لا زلنا نقول «الحضارة الغربية» اليوم وغداً، فى مرحلة أزمة، وهذه الأزمة ستؤدى بها حتماً إلى مصيرها الضرورى، وهذا المصير الضرورى هو الإنهيار»[2].

من كل هذه الشواهد يمكننا التيقن من القول بأن الحضارة الغربية بركوبها مركب المادة المجردة وتخليها عن كل مقومات الروح تسير حقاً فى طريق اللاعودة.... طريق النهاية الحتمية، التى من أهم أسبابها:

- تحكم الآلة فى حرية الإنسان حتى صار عبداً لها.
- انتشار البطالة وازدياد عدد العاطلين نتيجة للثورة الصناعية الكبرى.
- انحلال معانى الأسرة وانهيار الروابط الاجتماعية.

(1) المرجع السابق، ص50.
(2) د. عزت قرنى، المرجع السابق، ص68.

- كثرة الترف والرفاهية اللامبررة واللأخلاقية.
- سيادة الشك وتقلص الإيمان فى قلوب الشعوب تحت تأثير المدنية الحديثة...

تلك هى أبرز عيوب وأخطار الحضارة الغربية، تُرى هل من سبيل إلى تخليصها من مرض الموت ذاك؟

ليس ثمة من سبيل إلا أن يعود الإنسان إلى داخل نفسه بنفسه فيراجعها الحساب، فيوازن بين ما كسب من توافه الحياة وما خسر من ذات نفسه وبذا يزيل أتربة المادية المتراكمة على ضميره، ذلك الضمير الذى لا يزال حياً، ولكنه حبيس تلك الحُجب، وأن يمتد الإنسان ببصره وبصيرته إلى مُثُله العليا وإلى القيم الحقيقية فى الحياة مثل الحق والخير والعدل.

إنها المعادلة الصعبة التى لن يقبل بها الغرب، ولن يقبل الشرق ببديلها، خاصة بعد إزدياد الوعى وارتقاء التعليم فى الشرق نوعاً ما، وتطلع أجيال الشباب إلى صناعة نهضة حقيقية وتجدد النداء بالقومية العربية عند شباب المفكرين الذين هم الأمل، كل الأمل.... فى تغيير واقع بغيض واستشراف سبل مستقبل يصنعونه هم بإرادتهم ويحركون أحداثه هم بضمائرهم ويجنون ثماره بأيديهم، لقد أن الأوان لإعادة المعادلة والتوازن بين الشرق والغرب فى خطوات ثلاث:

1- التخلص التام من أى تبعية للغرب.

2- التأكد من أطماع الغرب فى الشرق.

3- مد يد التعاون وبناء جسور من المودة بين أبناء أمتنا العربية.

بهذه الشروط وحدها يولد الأمل فى إعادة صياغة ذاك الواقع المؤلم بين الشرق والغـرب، ليصبح لنا السـيادة والريادة، بل ونتطلع إلى قيـادة هذا العالم بعوامل نهضتنـا التى هى حتماً قادمة بحكم جدلية التاريخ وواقعية الأحداث وأقدمية الفطرة، ولكنها ستكون قيادة عدل ورحمة ومودة للجميع قيادة تبسط يد السلام والأمن للجميع، وتقبض يد الشر والسؤ عن الجميع، تلكم هى الأخلاق العربية عبر التاريخ، ولن يغير الغرب بقسوته وظلمه للشرق عدالته ورحمته.

آن الأوان يا سادة لأن نعرف الفرق الكبير بين ما يبديه الغرب وما يخفيه، فقد يبكى الغرب لمصائبنا بكاء الأسباط، يظهر التعاطف فيما تسبب فيه من آلام وجـراح نعانى نحن وأبنائنا ويلاتها، وفى حين يبكى هو فى العلن، يرقص ويغنى فى السر، ولسان حاله يقول: «انتصر كيدنا على هؤلاء البلهاء».

ولكننا نعدهم بأن عصر البلادة قد ولى، عصر السمع والطاعة والإنصياع لهم قـد انتهى إلى الأبد، ليبدأ عصر بزوغ الشـمس العربيـة، عصر النهضة الحقيقية التى ترتكز على العلم والعمل فيما يقول النشار: «وإذا نظرنا حولنا لـنرى كيف يصنع الرواد والمتقدمون فى هذا العصر ريادتهم وتقدمهم، فلن نجـد لديهم إلا أمرين لا ثالث لهما، علم وعمـل، تفوق علمى مطرد يدفعهم باستمرار إلى مزيد من تهيئة ظروف الإبداع العلمى وتحويله إلى تكنولوجيا تحل مشـكلات الواقع وتواجهها بكل حسـم، ومن ثمّ تتحسّن حياة الإنسان العربى عاماً بعد عام وقرناً بعد قرن»[1].

ويتعجل النشـار تلك اللحظة التى يفيق فيها الأسـد العربى من غفوته فينهض

(1) د. مصطفى النشار، ضرورة التفكير فى المستقبل، مقال منشور بجريدة الأهرام، الأحد 6/ 12/ 2012م.

على إثر انهيار الغرب موجهاً النداء إلى أمته العربية مذكراً ومؤنباً ومسنهضاً بقوله: «إن العـرب فى لحظة تاريخية فارقة حيث صور الضعـف التى يعانون منها كثيرة، وتجرى الآن محاولة فرض كل ما يراه الغرب صحيحاً عليهم دون مراعاة لاختلاف البـشر والبيئة والعقيدة والتاريخ، فإن لم ينتبهوا إلى أن خصوصيتهم تفرض عليهم سرعـة اختيار التوجـه الذى يتوافق معهم بيئة وعقيـدة وتاريخاً دون الالتفات إلى هـذه المطرقة ثقيلة الوطأة عليهم، تلـك المطرقة التى تحاول فرض كل ما هو غربى على كل ما هو عربى، وقولبة كل ما هو عربى تبعاً للأطر الغربية من شأنه أن يُفقد العرب تميزهم التاريخى والثقافى والعقائدى ويجعلهم مسخاً لا رحمة فيها»[1].

فهل يقبل الشباب العربى أن نكون مسخاً لا قيمة لنا؟

أمـا آن الأوان كى ننتفـض انتفاضـة الصحـوة العلمية العربيـة التى تأتى بمشتملات النهضة كلها، نهضة على جميع الأصعدة، ألا يمكننا استعادة ماضينا فى بناء مسـتقبلنا، ألا يمكننا الارتكاز إلى المـاضى القريب، فضلاً عن الماضى السحيق لإعادة صناعة نهضة عربية تصفع الغرب على وجهه مثلما وجه هو إلينا صفعات.... ونركله بالأقدام مثلما ركلنا هو بقدميه، فعلاً بفعل، وصفعاً بصفع، وسناً بسن، والبادى أظلم.

ربما تحار الأسئلة عند البعض، ما أطيب الكلام، وما أعذب الأمنية، لكن ألا يمكننـا صناعة النهضـة بالارتكاز إلى الغرب والتبعية لـه مثلما هو الحال الآن، ثم من الذى سيحقق النهضة وكيف؟

وهذه أسـئلة أتت مـن كنترول الغرب ذاتـه ليثبط بها العزائـم، فدعونا نجيب أولاً عن سؤال هو الأهم، لماذا النهضة العربية؟

(1)) نفس المقال.

الفصل الثالث

لماذا؟ ومعوقاتها

ويتضمن:

تمهيد.

أولاً: لماذا؟

1- الماضى التليد.

2- التخطيط الغربى لإلتهام العرب.

3- العدوان الصهيونى.

4- تناقض النظرية والواقع فى حقوق الإنسان.

ثانياً: المعوقات.

1- سيادة ثقافة التخلف.

2- الأمية.

3- غياب العدالة الإجتماعية.

4- كثرة الأقوال وندرة الأفعال.

«إذا كان حد الـردة لا يقع على الجهلاء، فإن المدنية تقتضى تطبيقه على المتلاعبين بالعقـول والمأجورين الذين احتلوا كراسى العلم»[1].

❐❐❐

«إن العهـد والعقـود الـت يبرمهـا الشـطار والأفاقـون والحمقـى لا ينبغـى توثيقهـا فـى دفتر العدالـة حتى لو كتبـت بريشـة ماعـت فـى مذبـح الكهنـة وذلك لأن مكيافيللى وهوبز قد صاغاها غير عابئين بأمال البسطاء والمستضعفين»[2].

❐❐❐

«إذ لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة عـلى عالم المادة بحالـة واضحة للعيان تنطق بهـا آثاره الباقية لـلآن مثل ما ناله المصريون الأقدمون فى وادى النيل، فقد بنى المصريـون القدماء بنشـاطهم الجم صرحاً مـن المدنية المادية يبـدو أن الزمن يعجز عن محوها محواً تاماً، وأما الأخلاق فهى اتجاه جوهر الحياة المتنوع، الذى لا يدرك باللمس واللون، من العادات والتقاليد والصفات الشـخصية المشكّلة بتأثير القوى

(1) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، صـ231.

(2) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، صـ115.

الاجتماعية والاقتصادية والحكومية التى تعمل باستمرار فى مناهج الحياة اليومية»[1].

□□□

فمن مصر انبعثت القومية العربية، ومن مصر خرجت الجيوش لتدافع عن الكرامة العربية فى العديد من المواقع التى سجلها التاريخ بحروف من نور، حطين وعين جالوت وحرب فلسطين والعاشر من رمضان وغيرها مما لم تعه الذاكرة، فمصر هى التى قادت معارك التحرير العربية ضد المستعمر، وخرج من مصر النداء مدوياً يلف أرجاء الوطن العربى «ارفع رأسك يا أخى، فقد انتهت الإقليمية، وبدأت القومية»[2].

□□□

«وعلى الإنسان العربى أن يدرك بأن جميع الدول صاحبة الأطماع بثروات الشعوب والتحكم بمقدراتها والهيمنة على ارادتها كثيراً ما تألبت ضده ووقفت تدعم الغزوة الصهيونية بأساليب وأشكال مختلفة بمثل ما وقفت أوروبا وراء الغزوات الصليبية، وليس من تفسير لذلك سوى أن سياسات هذه الدول تلتقى دون تنسيق بينها فى العداء للأمة العربية، وفى تمكين

(1) جميس هنرى برستيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2001م، ص130

(2) د.محمد ممدوح، ضمن هذا الكتاب صـ54.

الغـزوة الصهيونية مـن الاحتلال والاسـتيطان لإقامة حاجز بشرى يفصل بين الأمة العربية فى آسيا وأفريقيا»[1].

❐❐❐

«ينبغـى عـلى هذا الجيل السـلطوى المتحكم أن يـدرك أنه لن يظل فى تحكمه فى مقدرات المجتمع وتطور حركته إلى النهاية، لأن لـكل جيل - مهما تحكـم ومهما طالت مدة تحكمه - نهاية محتومـة، ولابد أن يملك كل جيل الشـجاعة الكافية للسـماح للحراك الاجتماعى والسياسى والعلمى أن يتم بشكل طبيعى، وهـذه الشـجاعة هـى الإنجـاز الحقيقـى لأبناء هـذا الجيل، فالشجاعة هى أن تسمح لغيرك أن يحل محلك وأنت مرحب به بدلاً من أن يزيحك رغم أنفك حسـب حركة الحياة وصيرورة التاريخ!»[2].

❐❐❐

آلام عربية كثيرة، ومحن أشـد وطأة، ومشـكلات لا حصر لها تواجه أمتنـا العربية، ورغم كل هذه الآلام والمشـكلات إلا أن أمتنـا حتى الآن لا تجيد سـوى الـكلام، ولم تنتقل بعد إلى مرحلة العمل، وهو ما يفت فى عضد صناعة الأمة القوية.

❐❐❐

(1) د. عودة بطرس، الوحدة العربية هى الحل، ج1، ص38.
(2) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص177

«إنـه لمن العجيب حقاً أن تثور المشـاعر وتهتـز أركان البلاد وتكثف الجهود إذا احتُل شـبر من أراضيها، وتركن حتى الآن إلى الدعـة والهدوء وعقـول الغالبيـة الكبرى مـن المواطنين تحتلها حجافل الجهل والأمية»[1].

❐❐❐

(1) د. أحمد فتحى سرور، استراتيجية التعليم فى مصر، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ص113.

الفصل الثالث

لماذا؟ ومعوقاتها

تمهيد

لعل المطالع للتاريخ والمستقرئ لأحداثه وشواهده يتنسم من حين لآخر يقظة بعض ضمائر مفكرى العروبة وإخلاصهم فى النداء بالوحدة العربية والتضامن والتكامل فى شتى المجالات لتحقيق نهضة عربية حقيقية يسعد بها العباد وترتقى بها البلاد، هذه الرغبة الحقيقية لدى هؤلاء المفكرين خرجت من مشكاة الوطنية ودافع الإحساس بالمسئولية الكبرى تجاه الوطن وما يحيط به من أخطار وما يستلزمه من آليات المواجهة، تلك المواجهة الحتمية المفروضة على كل ضمير حى يسعى نحو استعادة الريادة العربية، والمجد العربى، لتحقيق الذات العربية وانتشالها من بحر التبعية شبه المطلقة للغرب، عبر آليات تعليم وتثقيف المواطن العربى ومحاولة الارتقاء به فكرياً ووجدانياً ..

وتأتى المصائب على عالمنا العربى والإسلامى تترى، فمن عداوات خارجية، ومن اتخاذ الإسلام عدواً لدى أولئك المتغطرسين من الأمريكان وحلفائهم، ثم من انحطاط مستوى أداء الساسة أنفسهم، والذى وجه إليه الإمام محمد عبده مُر النقد فيما مضى بقوله: «أما الحكام، وقد كانوا أقدر الناس على

انتشال الأمة مما سقطت فيه، فأصابهم من الجهل بما فُرض عليهم فى أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم، و إذلال النفوس لخشونة سلطانهم، وابتزاز الأموال لإنفاقها فى إرضاء شهواتهم، لا يرعون فى ذلك عدلاً، ولايستشيرون كتاباً، ولا يتبعون سنة، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والإقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى ما فشت فى أمة إلا حلّ بها العذاب»[1].

أخطار محدقة بأمتنا من كل جانب، ولعل النشار قد أحسن صنعاً إذ يسير مع قضية النهضة متتبعاً خطواتها خطوة خطوة، فمن دور الفلسفة فى صناعة تلك النهضة إلى تغيير نظرة الشرقى للغربى الذى يظنه حليفاً و إنساناً ودوداً وهو ليس أكثر من منتفع على حساب الشرقى الضعيف اقتصادياً وسياسياً ومهلهل اجتماعياً، ثم وضع السؤال على منوال غير نمطى، لماذا نحتاج إلى صناعة نهضة؟ محاولاً تقديم إجابات واقعية لا تقبل الخلاف أو الاختلاف، حيث الماضى التليد الذى تمتع به العرب والمصريون خاصة من حضارة رفرفت أعلامها على الشرق والغرب وتعلم منها العالم كله، وهذا أدعى لاستعادة ذاك الماضى بأمجاده، ثم يلفت الأنظار إلى ذاك التخطيط الغربى الدائم لالتهام العرب بشتى الوسائل، ثم العدوان الاسرائيلى الدائم على الأراضى العربية.

آلام عربية كثيرة، ومحن أشد وطأة، ومشكلات لا حصر لها تواجه أمتنا العربية، ورغم كل هذه الآلام والمشكلات إلا أن أمتنا حتى الآن لا تجيد

(1) الإمام محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، ص116.

سوى الكلام، ولم تنتقل بعد إلى مرحلة العمل، وهو ما يفت فى عضد صناعة الأمة القوية.

هذه الأسباب باختصار شديد تمثل أهم دعائم النهضة المنشودة والوحدة المفقـودة، مع الأخذ فى الاعتبار كثرة معوقات تلك النهضة من غياب للعدالة إلى سيادة ثقافة التخلف إلى ارتفاع نسبة الأمية مئوياً لدرجة مخيفة إلى غيرها مـن معوقات قد تقوض دعائم تلك النهضة بالأسـاس، ولعلها مجملة فى النقد اللاذع لحافظ المجالى إذ يتساءل مندهشاً و يندهش متسائلاً: «هل من شعب تكالب عليه البؤس خلال تاريخه كالشـعب العربى؟ وهل من أمة فى العالم مهـددة الآن فى وجودها ذاته غـير أمتنا العربية؟ وهل كُتب على شـعب أن يحـارب على ألف جبهة كجبهـة التخلف وجبهة العـدوان الخارجى، الواقع والممكن، والجبهة العقائدية كما كُتب علينا؟ و يزيد فى المأسـاة أننا الشعب المتخلـف الوحيد فى العالم الذى يملك أدوات التقدم فى العقول والموارد معاً، ومـع ذلك فإنه ليس من الصعب أن نجد تطورنا لا يزيد ولا ينقص عن كثير مـن البلدان المتخلفـة التى لا تاريخ لهـا ولا حوافز من الماضى ولا السـيولة الماليـة، هـذا إن لم نتكلـم عن مآس أخـرى يبدو عزيـزاً علينـاً أن نفارقها كالتمـزق بديلاً عـن الوحدة، والتطاحـن بديلاً عن التضامـن، وكهذا الذى يسـمونه «بالأنظمة العربية « تُرى أى نوع من البؤس لا يعانيه الآن شـعبنا العربى»[1].

حقاً، ما أكثر الهموم العربية، وما أصعب تلك اللحظات التى تمر بها أمتنا

(1) حافظ المجالى، بين التخلف والحضارة، منشورات اتحاد الكتاب العربى، دمشق، 1978م، ص8 - 9.

اليوم، والتى هى الدافع الأكبر لجيل الشباب لصناعة وحدة ونهضة لم يسبق لهما مثيل عالمياً، نهضة لن تقف فى وجهها المعوقات، فقط إذا توافرت الإرادة وصدقت العزائم واتحدت الغايات.

أولاً: لماذا

السؤال عن أسباب ودوافع صناعة نهضة عربية بالضبط يمثل نصف الطريق، لأن معرفة العلة نصف الشفاء، بالمثل تماماً كالدواء الذى يمثل النصف الآخر.

الحل إذن يبدأ من هذا التساؤل، لماذا؟

وهو سؤال واجب قبل التساؤل كيف؟ لأن كيف تابعة لماذا وليس العكس؟ فالطبيب الناجح عادة ما يُشخص الداء أولاً ثم يصف الدواء، وهذا ما نسعى إليه الآن فى وضع الأطر العامة اللماذية للنهضة العربية؟ ولما شغلت بالنا؟ ولما تثير اهتمامنا خاصة فى هذا العصر، وفى ظل هذه الظروف الضبابية؟

لعله حماس شباب؟! ولعلها إرادة نبيلة من مفكر نبيل كمصطفى النشار! ولعلها محاولة لاستعادة الماضى التليد! ولعلنا نحن العرب قد وصلنا إلى مرحلة القاع، وليس بعد القاع سوى الصعود، وقد آن الآوان.

هذه كلها مجرد افتراضات، لكنها تصدق جميعها، وما من دليل أروع من البحث عن تلك الأسباب والدوافع لصناعة نهضة عربية ولعل أبرزها ما يلى:

1- الماضى التليد:

تمتلك الأمة العربية رصيداً حضارياً ومدنياً لا حدّ له، رصيد يضرب بجذوره فى أعماق الماضى، يشهد به الشرق والغرب على السواء، فقد أشاد هوميروس فى الأوذيسة بمهارة الأطباء المصريين على سبيل المثال، وقال هيرودوت غير مرة إنهم كانوا يعالجون أنواعاً شتى من الأمراض يختص كل منهم بمرض يبرع فى علاجه، وروى أن قورش أرسل إلى مصر فى طلب طبيب للعيون وأن دارا كان عظيم الإعجاب بهم كثير الثناء عليهم، وكان الإغريق يعرفون اسم «أمحوتب» رب الحكمة فى مصر القديمة ويسمونه بلغتهم أموتيس، وقد نقلوا عن الطب المصرى كثيراً من العقاقير كما نقلوا آلات الجراحة بغير تبديل[1].

ويشهد هنرى برستيد لهذه الحضارة القديمة بقوله: «وأهم ما تكشفه لنا هذه اللمحات التطورات الظاهرية، وذلك لأن الحياة المصرية القديمة كانت تشغلها فى ذاك الوقت تلك الانتصارات المادية التى لم يسبق لها مثيل، إذ لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بحالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره الباقية للآن مثل ما ناله المصريون الأقدمون فى وادى النيل، فقد بنى المصريون القدماء بنشاطهم الجم صرحاً من المدنية المادية يبدو أن الزمن يعجز عن محوها محواً تاماً، وأما الأخلاق فهى اتجاه جوهر الحياة المتنوع، الذى لا يدرك باللمس واللون، من العادات والتقاليد والصفات الشخصية المشكّلة بتأثير القوى الاجتماعية والاقتصادية والحكومية التى تعمل باستمرار فى مناهج الحياة اليومية»[2].

(1) العقاد، المرجع السابق، ص27.

(2) جميس هنرى برستيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2001م، ص130.

شيء أخر ملفت للنظر فى تلك الحضارة، وهو أقدميتها عن الحضارة البابلية بما لا يدع مجالاً للشك بأن الحضارة المصرية أسبق تاريخاً فيما يقول برستيد: «ولا جدال فى أن التقدم السياسى والاجتماعى وتطور الحضارة البشرية على وجه عام، كان ظهورها كلها فى وادى النيل متقدماً بعدة قرون على أمثاله فى غربى آسيا، والحقيقة أن الحضارة فى «بابل» أتت متأخرة فى تطورها الدينى والاجتماعى والسياسى عن حضارة مصر بما لا يقل عن ألف سنة»[1].

لقد امتازت مصر بحضارة لم يسبق لها مثيل، وكفى بالأهرامات شاهداً على الحضارة والمدنية المصرية فى آن واحد، ولكن ليس من حق الأحفاد الفخر بما أنجزه الأجداد، إلا فى حالة واحدة.... وواحدة فقط، أن يكملوا البناء ويتمموا مظاهر تلك الحضارة التى هم مؤهلون لها بالأساس، أما إذا تكاسلوا أو ضلوا الطريق فيصبح فخرهم بالأجداد فخر المرضى والعجزة الذين لا يجيدون غير الشعر والكلام، وهى المأساة الكبرى التى تمر بها أمتنا العربية اليوم.

أضف إلى ذلك ما تمثله مصر للعالم حيث القلب والنبض، وحيث الوحدة والتجانس، وحيث القوة، يقول جمال حمدان: «إن مصر بتجانسها ووحدتها، تتحرك ككتلة واحدة عادة، دون أن تعرف الإنقسامات والشظايا التى تفكك كثيراً من الشقيقات العربية، مما يمنحها ثقلاً فعّالاً ووقعاً يزيد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها، ولهذا أيضاً، فإن الاستقرار السياسى حتى فى ظل الإقطاع سمة واضحة تتباين بسهولة مع أحوال المشرق العربى مثلاً، وفى النتيجة فإن مصر أقوى قوة فى العرب مرتين، مرة بمطلق حجمها، ومرة بتجانسها المطلق»[2].

(1) نفس المرجع، ص159.

(2) جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، ج4، ص646.

أضـف إلى ذلك قيـام تلك الحضارة القديمة على دعائـم الأخلاق والعدالة والإيمـان بالسـلم لا الحـرب، فمـن الناحيـة الأولى كان المـصرى فى عصر الأهرامات يشعر بوجود جو من الوازع الخلفى يزعه حتى أن متون الأهرام قد أظهرت لنا الآن ذلك الوازع مطلاً على ما قد مضى من تلك العصور التى لم تكن تعرف معنى للخطيئة والشجار بين أفراد تلك الجماعة الأولى من طائفة الأبرياء الذين ولدوا قبل أن يوجد الشجار والسب والنزاع، على أن الاعتقاد بوجود عصر للمثال الأعلى أو على الأقل بوجود عصر للعدالة والسلام يجب أن يربط بينه وبين ذلك العصر الذى يشار إليه فى متون الأهرام بأنه العصر الذى «قيل أن يظهر فيه الموت»[1].

أما من الناحية الثانية، حيث رسوخ فكرة العدالة عند المصريين القدماء فيما يُعرف بالماعت[2].

وقد عبّر عن تجذرها فى المجتمع المصرى برستيد بقوله: « وقد انتهى الأمر بالمصريين القدماء فعثروا على بغيتهم التى نشدوها فى التعبير عن ذلك بكلمة واحدة جامعة حوت فى ثناياها كل معانى السـمو والرفعة فى الحياة البشرية، تلك الكلمـة هى «ماعت» التى تُعد من أقدم التعابـير المعنوية ذات المعانى المتعـددة التى وصلت إلينا من كلام بنى الإنسـان منـذ الأزمان الغابرة، وهى التى سـبق لنا التعبير عنها بالكلمات «الحق» و«العدل» و«الصدق»، وذلك لأن تلـك المعانى كلها قـد انتهى الأمر بأن مُثلـت فى لغة المصريين الأقدمين

(1) هنرى برستيد، المرجع السابق، ص130 - 131.

(2) د. مصطفى النشار، مدخل إلى الفلسفة السياسية والاجتماعية، دار المسيرة للنشر، سنة 2013م، ص27وما بعدها.

بهذه الكلمة الواحدة «ماعت»، وتلك الكلمة كانت تُستعمل عند أجدادهم فى أول الأمر لأداء معنى واحد فقط، هو «الحق» بمعنى «الصواب» كما نستعمل نحن كلمة «صواب» هذه فى العلوم الرياضية والأخلاقية معاً»[1].

ومن ناحية ثالثة، فقد قامت هذه الحضارة على السلم والأمن وقد أورد برستيد فى فجر الضمير ما كتبه بعض السياسيين المصريين على قبورهم، من مساعدتهم للجميع وحبهم للسلام وعملهم الدائب على استتباب الأمن، فتقرأ على المقابر عدة نقوش من قبيل: «أما من جهة الذى يفعل ما هو محبوب والذى يفعل ما هو مكروه، فإن الحياة تعطى للمسالم، والموت يحيق بالمجرم»[2] وغير هذا من عبارات تؤدى ذات المعنى.

هذا ماض الحضارة العربية وإن كنا قد قصرنا على النموذج المصرى، لأن من مصر دوماً البداية، ولأن مصر حامية الحمى، والشقيقة الكبرى، ولو نهضت مصر لنهضت الأمة العربية، وفكر النشار يقوم على قاعدة سياسية هامة، مؤداها أن مصر «رمانة الميزان»، فمن مصر انبعثت القومية العربية، ومن مصر خرجت الجيوش لتدافع عن الكرامة العربية فى العديد من المواقع التى سجلها التاريخ بحروف من نور، حطين وعين جالوت وحرب فلسطين والعاشر من رمضان وغيرها مما لم تعه الذاكرة، فمصر هى التى قادت معارك التحرير العربية ضد المستعمر، وخرج من مصر النداء مدوياً يلف أرجاء الوطن العربى «ارفع رأسك يا أخى، فقد انتهت الإقليمية، وبدأت القومية».

(1) برستيد، المرجع السابق، ص155.
(2) نفسه، ص54.

إن المـاضى الحضارى للأمة العربية بأسرها لخير دليل على رسـوخ وتجذر القيم الحضارية عربياً، ولخير دافع لاستعادة تلك الأمجاد العربية، والتى بات فجرها وشيكاً، شاء من شاء وأبى من أبى.

2- **التخطيط الغربى لالتهام العرب:**

لا ينفـك الغـرب عن التخطيط لالتهـام العرب يوماً بعد يوم، والسياسـة الغربية تقوم على مبدأ «فرق تسـد»، فهم يحاولون السيطرة على العرب مادياً واقتصاديـاً وسياسـياً، يريـدون أن يكونوا هم الأقوياء عـلى الدوام، ونحن الضعفـاء على الـدوام، لأن الحكم دوماً للأقوى، أمـا الضعيف فليس له أدنى قـدرة على القبـول أو الرفض فضلاً عن صناعة القـرار ذاته، هو لا يملك غير السمع والطاعة، وهم لا يريدون منا غير ذلك.

لذا، اتجهت مخططات الغرب للسيطرة على العرب اقتصادياً وسياسياً، فمن الناحية الاقتصادية، ومع بزوغ شـمس العام 1995م، تحولت اتفاقية الجات للتجارة والاقتصاد إلى منظمة للتجارة العالمية عُرفت باسم (WTO) إمعاناً فى زيـادة الهيمنة الغربية على عالمنا العربى، حيث مثلت منظمة التجارة العالمية الضلع الثالث فى مثلث تعزيز موقع زعامة الولايات المتحدة للاقتصاد العالمى الجديد، وأصبحت أمريـكا مهيئة لقيادة العالم عبر آليات تتمثل فى صندوق النقـد الـدولى والبنك الدولى للإنشـاء والتعمير ثـم منظمة التجـارة العالمية (الجات)[1].

(1) د. مصطفى عبد الغنى، الجات والتبعية الثقافية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1999م ،ص9.

وكان المقصود الرئيس من ذلك استمرار الهيمنة الغربية اقتصادياً لأجل فرض واقع جديد يرضى به الطرف الأضعف فى المعادلة فيما يقول مصطفى عبد الغنى: «ومن المهم أن نذكر أن هذا التخطيط و إن بدا أنه يبدأ على المستوى الاقتصادى فإنه كان يستهدف السيطرة الشاملة بكل أدوات المعرفة التى كان تراكمها منذ هذا الوقت يُفضى إلى واقع جديد، وبذلك فإن بداية العمل منذ منتصف الأربعينات حتى اليوم ضد الدول النامية، وبلادنا منها، كان يعنى تدشين مرحلة الاستعمار الجديدة للسيطرة وبشكل أدق، لدمج الدول الكبرى فى الاقتصاد العالمى الذى كان يعمل للسيطرة عليه منذ هذا الوقت»[1].

وفى ظل هذه المحاولات الغربية المستمرة للسيطرة على العرب أو التحكم حتى فى هويتهم الفكرية فقد تسلل الغرب إلى مجال الإعلام، ففى غيبة الوعى العربى والإمكانات الضعيفة نجد أن الفضاء الإعلامى العربى يسيطر عليه عدد كبير من الدول الكبرى ممن يرسمون سياستهم بالتنبه إلى الفضاء السمعى البصرى وأثره فى ثقافة المنطقة العربية.

إن هيئة الإذاعة البريطانية تمتلك محطتين للبث، احداهما فى جزيرة قبرص، والأخرى فى عمان، فضلاً عن عشرين موجة لبرامج تغطى ميادين التعدد اللغوى فى المنطقة كما أن الحضور الفرنسى يتمثل فى إذاعتين (مونت كارلو «الشرق الأوسط» و إذاعة فرنسا الدولية) فضلاً عن الحضور الفرنسى الرسمى إعلامياً فى المغرب خلال إذاعة المتوسط[2].

(1) نفسه، ص15.

(2) د. مصطفى عبد الغنى، المرجع السابق، ص33.

أما على الصعيد السياسى، فإن العجرفة الأمريكية قد وقفت على شاطئ لاحدّ له فيما يقول النشار منتقداً تلك السياسية الأمريكية المتعجرفة: " لقد أصبحنا فى عصر القطب الأوحد بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم، وكم تغنى قادة هذه البلاد الغنية بما تعيشه من حريات ومن حفاظ على حقوق الإنسان، وكم كان حلماً جميلاً لكل إنسان على ظهر هذا العالم وخاصة فى بلاده النامية أن يذهب إلى الولايات المتحدة رمز الثراء والحرية واحترام الحقوق، لكن كل ذلك انهار فجأة بفعل التجبر الذى مارسته أمريكا حيث استغلت قوتها العسكرية الغاشمة وهاجمت ما صورته للعالم على أنه السبب وهو «الإرهاب»! ذلك الإرهاب الذى صوروه فى شخص بن لادن فى أفغانستان وصدام حسين فى العراق وكالوا لهما التهم بامتلاك أسلحة الدمار الشامل وقتل المدنيين الأبرياء، وبدلاً من أن يبذلوا بأنظمتهم المخابراتية الجهد فى الإمساك بهؤلاء ظلماً وعدواناً بحجة أنهما مع حاشيتهما المسئولون عن هذه الأحداث الإرهابية!! خططوا لاحتلال أفغانستان والعراق، فكان أن شهد عصرنا أشد صور الاستعمار والغزو فظاعة وتجبراً».

ويستطرد النشار قائلاً: «لقد انتهك الأمريكيون كل حقوق الإنسان التى عبرت عنها تلك المواثيق الدولية المتعارف عليها ومسحت بها بلاط المنظمة الدولية التى أنتجتها الأمم المتحدة!! وشهد العالم على شاشات التلفزيون وعبر كل أجهزة الإعلام المقروءة والمسوعة كم الأسلحة المدمرة التى استخدمتها الولايات المتحدة فى تدمير الأرض والزرع وفى قتل الأبرياء فى البلدين الإسلاميين!!

وكم انتهكت الولايات المتحدة بجنودها المأجورين والمتحالفين معهم من حقوق للبشر الذين تعاملوا معهم سواء كانوا جنوداً محاربين مدافعين عن أرضهم وحقوقهم أو كانوا بشراً عاديين أبرياء!»[1].

كل هذه الأحداث التى تبرز غطرسة الطرف الأقوى وخضوع الطرف الأضعف، أليست مبرراً لصناعة نهضة عربية وحدوية يكون لها اليد العليا والسمع والطاعة والقدرة على صناعة القرار العالمى الذى يتمتع بالثقل و ينال احترام الجميع.

هل هانت علينا أنفسنا كعرب إلى هذا الحد مع ازدياد اشتعال قلوبنا بكراهية أمريكا وحلفائها من حزب الشر: «لقد أدت الحروب التى أشعلتها أمريكا واسرائيل فى المنطقة العربية والكثير من مناطق العالم الإسلامى إلى تأجج مشاعر الكراهية والبُغض لكل ما هو أمريكى، إن هذه الحروب وتلك الصراعات التى أججتها أمريكا وحليفتها اسرائيل، وذلك التحالف الذى شكّل بزعم مقاومة الإرهاب قد حوّل المشاعر لدى شعوب العالم الثالث عامة والشعوب العربية والإسلامية على وجه الخصوص من مشاعر الحب لأمريكا وأوروبا كنموذج للتقدم والرفاهية والمساواة والحفاظ على الحقوق إلى مشاعر العداء والكراهية والغضب المكتوم، ولا شك أن هذا الغضب العارم هو الأساس الذى يستند عليه كل تصرف وكل رد فعل يسميه الغربيون إرهاباً و يسميه العرب والمسلمون دفاعاً عن الأرض والعرض وهو المعروف فى العقيدة الإسلامية بالجهاد وهو فريضة على كل مسلم ومسلمة

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر بين الخطاب النظرى والواقع العملى، الدار المصرية السعودية للنشر والتوزيع، القاهرة ،ط1، سنة 2004م، ص10 - 11.

حين يجد الجد ويحين وقت مقاومة المحتل ورفض اغتصاب الأرض والاستيلاء على الثروات، ولا شك أن هذه اللحظة للثورة الشاملة ضد المحتلين الجدد قد اقتربت بدرجة قد تقلب الموازين العالمية»[1].

والسؤال الآن متى هذا الانقلاب؟

لعله وشيك، قريب جداً، خاصة مع ازدياد تلك الغطرسة الأمريكية التى نهبت ثروات وطننا العربى فيما يقول النشار: «وإذا كان ضمير العالم المتمدين صار يعتقد أنه لا جدوى للحديث عما يحدث من القتلة الإسرائيليين تجاه أبناء فلسطين وأن هؤلاء القتلة قد انعدم عندهم الضمير الإنسانى وأصبحوا فوق القانون وضعياً كان أو إلهياً، فإن ما يجرى فى العراق يُعد صورة بالكربون مما يجرى فى فلسطين، فهاهم الجنود الأمريكيون يقتلون العراقيين فى كل مكان من أرض العراق دون تمييز بين من يحمل السلاح لمقاومتهم وبين المسالم الذى كف أذاه، وقد شهد شاهد من أهلهم حينما قال ضابط كبير فى القوات البريطانية التى تشارك فى الهجمة الاستعمارية البربرية على العراق يصف ويعلق على ما يفعله الأمريكيون «إن القوات الأمريكية لا تشعر بأدنى قلق للخسائر العراقية فى الأرواح»، وهو موقف مأساوى ويثير الرعب، وقد أشار نفس الضابط البريطانى إلى أن القوات الأمريكية تعمد إلى التبسيط الشديد المنافى للواقع حيث يبدو أنه من الصعب بالنسبة لها أن تميز بين من يواجهونا ومن لا يواجهونها وترى أنه من الأسهل جمع كل العراقيين فى سلة واحدة باعتبارهم « كائنات شريرة» أى يجب قتلها سواء واجهتهم أو لم تواجههم، هكذا يفهم الغزاة الأمريكيون

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص30 - 31.

المعاصرون أبرز من يتشدقون بحقوق الإنسان حق الحياة بالنسبة لشعب العراق، إنه يعنى عندهم فى الواقع الحى ضرورة الموت حتى لا ينغص عليهم هذا الشعب حياتهم واستمتاعهم بخيرات العراق وثرواته الطبيعية!! لقد حطم ما يجرى فى الواقع تلك الرؤية الفلسفية الحالمة القائلة «إن للأبرياء حقاً فى ألا يُحرموا من الحياة»[1].

إن هذا التخطيط الغربى لالتهام العرب ذا جذور تاريخية موغلة فى القدم ولا زالت حتى اليوم، مستغلين فى ذلك التفرق والتشرذم العربى، لذا فإن الوحدة العربية هى أحد أهم دعائم صناعة تلك النهضة التى نسعى إليها حثيثاً، خاصة لما يحدث على الأراضى العربية من اعتداءات صهيونية لا يقبل بها الضمير العربى أبداً.

3- العدوان الصهيونى:

لعل اليوم أدعى إلى صناعة الوحدة والنهضة العربية من الأمس، خاصة بعد كثرة الاعتداءات الصهيونية على شعبنا العربى الفلسطينى وتنوع صور تلك الاعتداءات وسط صمت عالمى مريب، يتحمل العرب وحدهم تبعاته.

وعلى الإنسان العربى أن يدرك بأن جميع الدول صاحبة الأطماع بثروات الشعوب والتحكم بمقدراتها والهيمنة على ارادتها كثيراً ما تألبت ضده ووقفت تدعم الغزوة الصهيونية بأساليب وأشكال مختلفة بمثل ما وقفت أوروبا وراء الغزوات الصليبية، وليس من تفسير لذلك سوى أن سياسات هذه الدول تلتقى دون تنسيق بينها فى العداء للأمة العربية، وفى تمكين

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص20.

الغزوة الصهيونية من الاحتلال والاستيطان لإقامة حاجز بشرى يفصل بين الأمة العربية فى آسيا وأفريقيا[1].

إن هذه الدول على اختلاف أيديولوجياتها ونظمها السياسية والاقتصادية تلتقى على محاربة أى نهضة عربية أو وحدة قومية بدافع ابقاء الوطن العربى مجزأ مفتت الأوصال، فيسُهل عليها تنمية اسرائيل عسكرياً واقتصادياً ويضمنون بذلك التفوق الإسرائيلى من ناحية، والتشرذم العربى من ناحية أخرى.

ولم يفوت اليهود تلك الفرص إلا وأساءوا استغلالها أسوأ استغلال، حيث امتدت أيديهم بالعبث والإفساد لكل شىء، ومن يطالع كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» يدرك مدى الخسة التى يفكر بها هؤلاء، ومدى ما يُضمرونه للبشرية من أحقاد وكراهية لا حدّ لهما، فهم يريدون السيطرة على التعليم والصحافة والإعلام، بل وحتى على الأعمال الفكرية التى تقوم بنشرها دور النشر، إنها الإمبريالية الاستعمارية التى يمكننا أن نطلق عليها لقب «إمبراطورية الشر»، حيث لا يأتى من ورائهم أدنى خير، ولكن ادعائاتهم بالسلام والمفاوضات إنما هو على سبيل كسب الوقت للتفكير فى الضربة التالية.. والخيانة التالية.. والغدر من كل نوع.

ولا أدل على ذلك من افتخارهم بانتشارهم فى العالم ليسهُل عليهم إثارة الفتن وقتل السلام، فقد جاء على لسان أحد حكمائهم ما نصه: «من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت، وهذا التشتت الذى يبدو ضعفاً فينا أمام العالم، قد ثبت أنه كل قوتنا التى وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية.

(1) د. عودة بطرس، الوحدة العربية هى الحل، ج1، ص38.

ليس لدينا أكثر من أن نبنى على هذه الأسس لكى نصل إلى أهدافنا»[1].

بل إن أحد حكمائهم يعترف صراحة بقوله: «نحن اليهود لسنا شيئاً إلا مفسدى العالم ومدمريه، ومحركى الفتن فيه وجلادية»[2].

وتستفحل الأخطار الصيهونية يوماً بعد يوم، وتشتد وطأتها ساعة بعد ساعة لتفرض اسرائيل شروطها على الدوام بلاءاتها الأربعة:

- ❐ لا للدولة الفلسطينية.
- ❐ لا للمفاوضة على القدس.
- ❐ لا لأكثر من حكم ذاتى لسكان الضفة والقطاع.
- ❐ لا للمفاوضة مع أشخاص غير مرضى عنهم!

إنها شروط الأقوى، ولا ضير أن يفرض الأقوى شروطه طالما وجد من يرضخ له و ينصت إليه، وطالما وجد من يرتضى بالعبودية والذلة.

ومورس الضغط من كل نوع على شعبنا العربى الفلسطينى، وأصبح منقسماً على نفسه، حيث منهم من يرى امكانية الحل على أساس إقامة فلسطين على جزء من تراب الوطن، ولعل هذا الاعتقاد نتج عن أسباب ثلاثة فيما يذهب د.عودة بطرس، قد أفلح العدوان الصهيونى فى صنعها:

الأول: عملية غسيل المخ التى تستهدف اشعال الإقليمية فى نفس المواطن

(1) الخطر اليهودى، بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسى، دار الكتاب العربى، القاهرة، 1951م، ص108.
(2) المرجع السابق، ص1.

الفلسطيني ودفعه إلى اليأس من القدرة على استرداد الوطن و إرهاربه من احتمالات تزايد الهجرة اليهودية و إقامة المستوطنات فى القدس والضفة والقطاع.

الثانى: استغلال الأوجاع الحياتية اليومية للمواطن البسيط دون أن تحرك الدول العربية ساكناً.

الثالث: ما يحاوله البعض من اقناع الشعب بأن الدولة الفلسطينية أياً كانت مساحتها ومقوماتها سوف تكون قاعدة للحشد والانطلاق للتحرير الشامل[1].

ولا زال شعبنا العربى منقسماً تجاه تلك القضية دون محاولة وضع حلول جذرية لها، بل إن شعبنا الفلسطيني ذاته، المعنى الأول بالأمر قد انقسم على ذاته بين من يرى امكانية التسوية على جزء من تراب الوطن والاعتراف بإسرائيل، وبين من يرى الثورة والإنتفاضة حتى التحرير الشامل.

وليس علىّ هنا أكثر من استقراء نصوص النشار، تلك التى أوردها فى أكثر من موضع سبق ذكرها رافضاً الإنتهاكات الصهيونية ومنددا، ولكن ليس من شأنه أن يقول كلاماً لا يساوى ثمن الحبر ولا الموقع الذى احتله فى أحد الجرائد الكبرى التى تنشره، فليس النشار ممن يجيدون الكلام بلا فعل، ولكنه حتماً يسوقنا على الدوام إلى الدواء الناجح للداء، فليس هناك من مبرر لتلك الإعتداءات الصهيونية، لا أقصد مبرر حدوثها، ولكن مبرر قبولها، سوى ضعف الإرادة العربية، وضعف القرار العربى وكفى بنقده

(1) د. عودة بطرس، الوحدة العربية هى الحل، ص58.

للدور الهزيل لجامعة الدول العربية إزاء المشكلات التى لم تستطع لها حلاً ولا ربطاً.

إنـه بحق واقع مرير، متـأزم من كل ناحية، شـديد التعقيد حيثما وليت وجهك، فصناعة وحدة عربية هى أحد آليات النهضة، وصناعة نهضة عربية سـبيلها شاق، ليس لضعف الإمكانيات بقدر ما هو ضعف الإرادة السياسية العربية ونحن كالعادة لا نتشـدق بالسـلام مع اسرائيل لأنـه لن يجدى نفعاً، فليس مع هؤلاء الخونة سلام، وكما أنه لا تصالح فى الدماء أبداً، فإنه لا يمكن أن تقوم تسوية سلمية بين طرفين متناقضين تمام التناقض، أحدهما يمثل الحق المطلق، والآخر يمثل الباطل المطلق، أحدهما يمثل الحقيقة والآخر نموذج حى للكذب والنفاق والمخاتلة..

أى سلام هذا بغير خروج المحتل من كافة الأراضى العربية؟!!

وعـلى صانعى القـرار العربى أن يدركـوا إذ لم يدركـوا أن القرآن الذى يدّعـون أنه دسـتورهم لم يتحدث عن سـلام مع اليهـود، ولكنه تحدث عن حرب، عن تطاير لـرؤوس اليهود، عن تخريب لبيوتهم وهروب منها وفزع وجـزع لا حـدّ لهـما ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2] إنه وعد الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، وكان وعد ربك مأتيـا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: 17 - 18].

أليست هذه نصوص خالدة فى الكتاب الخالد!!

الحديـث كلـه عن حـرب لا عن سـلام، حديث عـن العـدة والإعداد

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 60]، من قوة يا أمة الإسلام، أى قوة، قوة العلم، وقوة الجيش، وقوة الاقتصاد، وقوة الإرادة، وقوة المكر والدهاء، وقوة السياسة والساسة.

ولم يطلب مصطفى النشار أكثر من تلك القوة فى صناعة تلك النهضة العربية التى نزعم أننا قادرون على إنشائها، الخلاف كله مع النشار أنه يؤكد على أن بدايتنا لن تكون من العدم، ولكنها مرتكزة على حضارة الماضى التليد ومدنيته التى أشاد العالم بها، ولكنى مؤمن بأن بدايتنا اليوم هى من العدم، ولن ترتكز إلى الماضى أبداً، لسببين رئيسيين، الأول أن الظروف الاقتصادية والسياسية العالمية قد تغيرت إلى حد كبير وليس فيها أدنى مجال للفخر بالماضى، بل المجال كله لمن يصادر على المستقبل و يقفز فوق التاريخ، والثانى أن جانب الحضارة عندنا قديماً كانت أكبر من جانب المدنية، أما اليوم فنحن لسنا فى حاجة إلى حضارة لأنها فعلاً موجودة، ممثلة فى تراثنا وعقيدتنا ومبادئنا التى ما استطاع الزمن إلى تغييرها سبيلاً.

إن كثرة الاعتداءات الإسرائيلية على شعبنا العربى والتى يتعذر حصرها هى أحد أهم دوافع صناعة نهضة عربية، بل لعلها تكون الدافع الأبرز والأقوى ضمن هذه الدوافع جميعاً، فهل يقرأ الشعب العربى، وهل يعى الدرس، وهل يستفيد من أحداث التاريخ وعبره، ذلك كله مرهون بمدى وعى هذا الشعب، أو بالمعنى الأدق، مرهون بمدى القدرة على صناعة الوعى.

4- تناقض النظرية والواقع فى حقوق الإنسان:

فرق كبير بين القول والفعل، ونقد أكبر لمن يقول ما لا يفعل، وكفى بنقد

القرآن من نقد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: 2 - 3].

والمتابع للسياسة العالمية يجد إنفصالا لا أمل فى التئامه بين القول والفعل، لدرجة جعلت النشار يصدر كتاباً بعنوان «حقوق الإنسان المعاصر بين النظرية والتطبيق» ضمن فيه تلك التناقضات التى يبدئها بذاك التعجب شديد العجب: «لقد أصبحت القوة العظمى المنوط بها حماية حقوق الإنسان والحرص على تنفيذها وتطبيقها هى التى تدوسها بالأقدام وتهدد بالمزيد من ذلك لكل من تُسول له نفسه مخالفتها الرأى!!

إذن ماذا تفعل شعوب العالم الأخرى غير الصياح فى وجه المحتل الغاصب، وماذا تملك الشعوب المقهورة والمحتلة غير أن تكافح لنيل حريتها المسلوبة ولاسترداد ثرواتها المنهوبة»[1].

حقاً ماذا تفعل هذه الشعوب المغلوبة على أمرها؟ بل وماذا تملك لصناعة الفعل بالأساس..

لقد امتلأ واقع الحياة بالتناقض، فالجلاد أصبح قاضياً، والمغصوب والمنهوب أصبح معتدياً فى عُرف الجلاد الحقيقى، اختلطت المعايير، وأصبحت الموازين غير مفهومة، أو هكذا يدّعون، يقول النشار: «إن الحقيقة التى لم تعُد خافية على أحد فى العالم المعاصر أن واقع الحياة العملية للإنسان المعاصر وخاصة فى مناطق معينة من العالم وخاصة فيما يطلق عليه العالم الثالث يشهد أسوأ صور التناقض بين الخطاب المكتوب والشفهى حول حقوق الإنسان وما

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص12.

يعانيه هؤلاء البشر فى واقعهم المعاش فالإنتهاكات المتتالية والمتعمدة من قبل دول الشمال وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لدول الجنوب والتعدى على حقوق الأفراد والجماعات سياسياً واجتماعياً واقتصادياً أصبح هو السمة الغالبة التى لم تعُد تُجدى معها أى محاولة للفت أنظار زعماء هذه الدول أنهم تجاوزوا كل الخطوط الحمراء، فمن فى يده القوة العسكرية يفرض ما شاء من أمور على كافة الأصعدة الاقتصادية والسياسية على من لا يملكونها حتى وصل الأمر إلى حرمانهم من الدفاع عن أنفسهم وعن أبسط حقوقهم حتى ولو باستخدام الحجر فى مواجهة الطائرات والدبابات والصواريخ، لقد اختلطت المفاهيم والإصطلاحات بحيث أصبحت أقرب ما تكون إلى الفراغ من المعنى، فالدفاع عن العرض والأرض بأبسط الوسائل أصبح يسمى إرهاباً! والدول رمز القانون والنظام صارت هى من يفرض الفوضى ويخترق كل الأنظمة والقوانين! إن المحتل صار مواطناً، والمواطن صار لاجئاً وإرهابياً، إن المعتدى صار هو المعتدى عليه، إن طالب السلم والسلام صار هو المحارب والإرهابى، بينما صاحب آلة الحرب وصانع المعارك تلو المعارك هو الذى سارع إلى حديث السلم والسلام»[1].

أرأيتم إلى أى حدٍ بلغ التناقض؟[2]

(1) د. مصطفى النشار، المرجع السابق ص17.

(2) جمع النشار فى هذا الكتاب صوراً من النصوص العالمية للمنظمات الدولية لحقوق الإنسان كملحق للكتاب ليقدم للقارئ الفتنة التى عبرّ عنها بقوله: « فقد حاولنا فى هذا الكتاب ألا نكتفى بالدراسة النظرية المتأملة لقضية حقوق الإنسان وما يعتريها فى عصرنا من تناقض بين الخطاب النظرى والواقع العملى، وإنما قدمنا للقارئ العزيز حتى تكتمل الصورة وتصل الرسالة التى تود إيصالها له كاملة نماذج من الوثائق=

المواطن الذى هو أصل البلد يصبح إرهابياً و يتحول من السكن الآمن إلى اللاجئ مهدر الحقوق و فى بعض الأحيان مهدر الدم!!

أليس هذا هو حالنا نحن أبناء العروبة، وحالنا نحن خير أمة أخرجت للناس، نفتخر على الدوام بخيرية لم نقدم دلائلها!!

انقلبت الموزاين لتدور مع القوة وجوداً وعدماً..

دعونا نكن منصفين وواقعيين يا سادة، فالعالم لا يعترف بغير الأقوياء، لا مكان فيه أبداً للضعفاء، لعل هذه مُسلّمة منذ أشرقت الشمس على الأرض، ومنذ أن سجلت الفلسفة أراء فلاسفتها، خرج علينا ثراسيماخوس السوفسطائى ليخبرنا علانية بأن القانون قانون الأقوى لا قوة القانون!!

وها نحن بعد ردح من الزمن تجاوز الثلاثة آلاف سنة لم نستطع تجاوز تلك المقولة، بل زادها الزمان قوةً ورسوخاً، وأصبح العالم اليوم لا يعترف إلا بحق الأقوياء، لا بقوة الحق، وكم من وقائع أثبتت وأيدت، لعل أبرزها ثلاثة مشاهد حية لا تفارق ذهنى على الدوام، المشهد الأول، ما حدث فى مايو 1990م حيث أقامت الصهيونية العالمية الدنيا من شرقها إلى غربها على قدم وساق لأن قبوراً يهودية فى جنوب فرنسا تعرضت للتشويه، فدبرت المظاهرات فى أنحاء العالم من أوروبا إلى الأرجنتين، وشارك فيها رؤساء

= الخاصة بالخطاب النظرى الذى أقرته الاتفاقيات والعهود والمواثيق الدولية حول حقوق الإنسان وكذلك نماذج من الوثائق التى تكشف عن هذا الهدر المتعمد لكل حقوق الإنسان فى ظل الإحتلال الغاشم للعراق، وبالطبع فإن ما يجرى فى العراق يجرى مثله وأكثر فى فلسطين على يد الاسرائيليين ويجرى مثله كذلك على أرض أفغانستان» انظر د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص13.

دول مثل الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران ورئيس الأرجنتين ذا الأصل عربى كارلوس منعم وغيرهما ممن ذهبوا نفاقاً للسامية.

والثانى يأتى صورة بالكربون من هذا المشهد رغم بعده الزمنى بما يقرب من أربع وعشرين عاماً، حيث تظاهر رؤساء العالم كله، بما فيهم قادة عرب سجلهم التاريخ فى قاع عاره وخزيه، إثر وقوع اعتداء على صحيفة شارل إبدو الفرنسية عقب إساءتهم للنبى الكريم ﷺ.

امتلأت مانشتات الجرائد العربية بتعبيرات الإدانة والشجب والرفض، وتكلم الإعلام صارخاً وباكياً، وأنفقت الدول العربية مليارات شجب وإدانة وتعبير عن الرفض القاطع لمثل هذه الوقائع، وما اعترضنا أبداً على هذا الرفض فالدم كله حرام، ومثل هذه الأحداث المؤسفة التى تتم باسم الإسلام وهو منها براء، فهى لا تعرف من الإسلام أدنى صلة لا جوهراً ولا عرضاً، كل ذلك من المسلمات التى لا ريب فيها، لكن العجب كله من تعدد المكاييل وتنوعها..

أين كان العالم حين اجتيحت غزة مئات المرات؟

وأين كان العالم حين اجتيح الجنوب اللبنانى مئات المرات؟

وأين العالم اليوم من المجازر السورية؟

بل أين الرئيس الفلسطينى عباس أبو مازن الذى وقف فى هذه المظاهرة العالمية على أرض فرنسا منددا بهذا الاعتداء، ومخلفاً على أرضه العربية والإسلامية ألوف الشهداء على أيدى الصهاينة ومثلهم مصابين؟!

أين الكرامة العربية إذن؟ وأين موازين العدالة الدولية؟

أما المشـهد الثالـث، حيث تحرك تحالـف دولى تقريباً انضـم إليه العالم بخيله ورجله تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتحرير الكويت!!

وبعدها ذات التحالف لغزو العراق!!

والسؤال الآن لماذا بالذات العين على دولنا العربية وأشقائنا فى الخليج؟!

هل تجامل أمريكا؟

وهل تعلن الولاء والطاعة لـدول الخليج حتى تذهب إلى الكويت بزعم تحريرهـا، ثم تذهب إلى العراق بزعم تخليص شـعبها من الديكتاتور صدام حسين؟!

لا هذه ولا تلك يمكنهم أن يقدموا أدنى درجات الإقناع!!

فأمريكا لم تدخل الكويت تحريراً وإنما دخلت طمعاً، وقد تقدم أنها لا تنفق ديناراً إلا وتأخذ مقابله أربعة أضعاف!!

وهى بالقياس لم تدخل العراق إلا طمعاً فى استنزاف ثرواته وخيراته، أياً كانـت الحجة، وأياً كان الزعم، وأياً كانـت العقول الغبية التى تنفذ بأيديها العربية تلك المخططات الغربية والأمريكية الدنيئة.

وإلا، فاسـألوا أمريكا ذات القواعد العسـكرية فى شرق العالم وغربه، لماذا لم تتدخل لإنقاذ الشـعب السـورى من نيران بشـار وقذائفه وبراميله المتفجـرة وهى الراعية الأولى فى العالم زعماً للديموقراطية وحقوق الإنسـان والعدالـة، وتلك المعـانى والقيم الفضفاة التى ما هى إلا سـتاراً يخفون ورائه أطماعهم الدنيئة وخططهم القذرة للاستيلاء على الثروات العربية واستنزاف موارد الشعب العربى..

أقـل تقديـر يا عقلاء العـالم بشـتى أيديولوجياته وعقائـده، ألا تفرض الناحيـة الإنسـانية عـلى القـوى أن يتدخل لحمايـة الضعيف ولـو من باب المروءة والشهامة.. ولو من باب الرحمة والتراحم.. أليست هذه قيم إنسانية بالأساس.

أليست الدماء التى تسيل فى كل شبر من الأرض العربية السورية ستُسأل عنها أمريكا ومحاور الشر من حلفائها؟!

إذن دعونا نلجأ إلى الله ....

دعونا نحكى كل شىء لله مثلما قال الطفل السورى سأحكى كل شىء لله.

سأحكى كل شىء لله:

الطائرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله، وأصوات المدافع والصواريخ وآلات الفتـك تمـلأ المكان، حصـار فى الجو والأرض، ومـن الممكن أن يصل إلى مـا تحت الأرض، لأنه حصار الظلـم والبغى، وقتل الظالمين والبغاة، القتل على الرأى والفكـر والمذهب، قتال أيسره أن تطير الرؤوس وتنخلع القلوب وتطـير الأرواح بالشـكاية إلى رب البريـة، إنها الفتنة الكـبرى فى التاريخ، الفتنة الأشـد فتكاً من فتنة الإمام على ومعاوية، تلكم هى المحنة السورية، التى تركت فى القلب غصة لا يمحو الدهر أثرها أبداً.

تحـت هذا الحصار غـير المبرر، وفى خضم أصـوات المدافع والطائرات، وتحت وطأة البراميل المتفجرة والقذائف القاتلة، يخرج صوت طفل سـورى يحتـضر، يخرج خافتـاً، ضعيفاً، ملخصاً الحـال والمسـتقبل والواقع فى ثلاث كلمات «سأحكى كل شىء لله».

الواقع فى مرارة الأسى، والمستقبل فى مرآة الواقع...

لم يرد هذا الطفل أن يرحل فى هدوء، ويموت فى هدوء، شأن الآلاف من إخوانه الذين سبقوه!!

فكم من طفل سورى أسلم الروح بلا شكاية!! وكم من طفل قُتل ولم يدر لم قتل، وكم وكم...

لم يعترض أحد، لم يقل أحدهم يوماً ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8-9]، لم يُطل أحدهم الشكاية أو يقصر، بل كثيراً ما رحلوا دون أن نسمع لهم صوت أو نحس منهم ركزاً..

لكن هذا الطفل يأبى إلا أن يطلق مدفعاً مدوياً أشد قتلاً وفتكاً من مدافع بشار، فإذا كانت مدافع بشار تقتل الحياة وتسلب الأرواح فإن مدفع هذا الطفل تهب الحياة من جديد لبنى الإنسانية، يمنحهم الضمير لمن فقده منهم، ويكون حجة على كل من يأبى عودة الضمير.

صوت إيقاظ الإنسانية لمن يراجع نفسه ويعلم أنه يسير على الطريق الخاطئ، طريق اللاعودة، طريق إزهاق الأرواح البريئة، وقتل أنفس خلقها الله لتعيش لا لتقتل أو تسلب منها الحياة للطائفية أو المذهبية أو الخلاف فى الرأى.

وكم بلغ ذكاء هذا الطفل، حقاً، إنه ذكاء الشهيد، حتى ولو كان هذا الشهيد طفلاً..

لقد جرَّب كل مخلص من بنى الإنسانية اللجوء إلى المنظمات الإنسانية لحل الأزمة السورية، وما أفلح أحد فى مسعاه...

لقد حاول البعض من أرباب الضمائر الحية إيقاف آلة القتل المتعمد تلك والوقوف فى وجه نزيف الدماء الذكية هذه، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، لا لعدم صدق نواياهم، ولكن لعمى قلوب القاتلين وذهاب أفئدتهم وانعدام ضمائرهم، وتبلد مشاعرهم وأحاسيسهم .. فلم ينصتوا لصوت العقل، ولم يستجيبوا لأى من المبادرات التى طُرحت، واستمروا فى قتل الأبرياء والعُزل والأطفال، بلا رحمة، وبلا ضمير، وبلا مشاعر.....

ما أسوأ تلك الحياة إذن .. حياة القتل والظلم والبغى!!

ويسلم الطفل روحه وهو يعلم تلك الحقائق، يعلم أن هناك قلوباً نقية رغم قلتها، وأن هناك قلوباً باغية وقاتلة وظالمة رغم كثرتها، وتيقن أن الإنسانية فقدت كل معنى لإنسانيتها، فلم يشأ أن يلجأ إليها هذه المرة، لأنه لا تجربة بعدها، فقد كانت تلك هى المرة الأخيرة التى يشكو فيها حال أمته السورية ومن ورائها الأمة العربية، لأنها هى المرة التى خرجت روحه على إثرها، فلم يشأ أن يلجأ للبشر، وإنما لجأ مباشرة إلى الطريق الذى لا يخيب سالكة أبداً، فقال «سأحكى كل شىء لله»...

نعم يا ولدى، فالله رحيم... كريم... حليم... هو وحده الجدير بالشكوى، وهو وحده الجدير بالسؤال والتذلل، وهو سبحانه العليم بك وبأمتك السورية والعربية، وهو وحده المطّلع على خبايا النفوس ومكنونات القلوب وهمسات الصدور... هو وحده العليم بكل شىء، ما تسقط من ورقة فى ظلمات البر والبحر والجو إلا يعلمها، فهو سبحانه الأحق بالسؤال والأجدر بالإجابة.

لكن المشكلة عندك أنت، لأنك الذى ستحكى، والله حتماً سيسمع لك

حتى النهاية، فى موقف سيراه الأولون والآخرون .. سينصت لك، وسيرق لحالك، سيرحمك رحمة لم تر عيناك مثلها قط، ويسمع لك ما لم يسمع لك أحد، وسيطيب خاطرك كما لم يطيبه أحد، وسينصت لشكواك كما لم ينصت أحد، لكن يا تُرى، هل تقتصر شكواك على حزب الظالمين الذين قتلوا، أم ستطول المكاسين الذين عاونوا، أم ستطول حتى أولئك الصامتين الذين رأوا وسكتوا إما عجزاً، وإما جنباً، وإما إيثاراً للحياة الدنيا!!

هل ستطول شكواك الجميع، بما فيهم أرباب الضمائر الذين قتلتهم كلمتك تلك، وبما فيهم أصحاب القلوب المرهفة الذين ابيضت أعينهم من الحزن، بما فيهم أصحاب الأعذار الذين عذرهم الله من قبل، أم أن شكواك ستقتصر على حزب الظالمين والمكاسين الذين قتلوا، والذين أمدوهم بالسلاح، والذين أيدوا، والذين هللوا لسفك الدماء ورقصوا فوق جثث الشهداء!!

هنيئاً لك يا ولدى، فأنت الرابح فى كل شىء، ونحن الخاسرون فى كل شىء....

أنت الرابح لأنك شهيد فى فتنة لا ناقة لك فيها ولا جمل، لا مغنم لك فيها ولا غاية...

وأنت الرابح لأنك حملت الشكاية إلى الله لا لأحد سواه..

وأنت الرابح لأنك رغم براءة طفولتك، وحداثة سنك، قد عبّرت عن المأساة بما لم يستطعه الطاعنون فى السن، وبما لم يستطعه أرباب العقول الكبيرة.

ونحن الخاسرون من كل وجه، لا أستثنى أحداً من الخسارة، حتى ذاك

الصامت العاجز، فقد خسر أيما خسارة، لأنه بطريقة أو بأخرى مشارك فى الجريمة..

حتى العابد والشيخ الذين لم يبرحوا عاكفين فى المساجد، الله غنى عن عبادتكم ما استغنيتم عن رحمة قلوبكم ورهافة إحساسكم ورقة مشاعركم...

المفارقة بين الإثنين فى صالح الطفل من كل وجه، ليصبح له وحده حق الشكاية وتوجيه الإتهام، ويصبح لله وحده حق الفصل والقضاء، ونحن أمام المتهم صاحب القضية، وأمام القاضى متهمين، أو على الأقل شهود زور، فكيف نخلص من هذا الاتهام، وكيف نخرج من تلك القضية لا لنا ولا علينا، الله وحده أعلم، ولكنى لا أظن الطفل رحيماً كما لم يرحمه أحد، ولا أظنه رفيقاً بنا كما لم يرفق به أحد، يبقى الأمل كله فى الله، فلا أمل سواه، وكان ربك لطيفاً خبيراً.

يبقى التساؤل قائماً، أليست كل هذه الدعائم تصلح لأن تكون أسساً لنهضة عربية ووحدة قومية تتدارك على أساسها المصالح ونتشارك فيها الخيرات ونتقاسم فيها الهموم والأوجاع؟!

ألسنا جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؟!

أليست قضايانا مسئولة من أعناقنا وحدنا أمام الله؟! وألسنا نحن المتهمون أمام الله وأمام التاريخ وأمام أبنائنا وأحفادنا عن ضياع أمتنا العربية والإسلامية بهذا الشكل المخيف؟!

التاريخ لن يرحم أحد يا سادة!! كما أن أبنائنا وأحفادنا لن يرحموا أحد إذا ما آلت إليهم الأوضاع على ما هى عليه الآن!!

من هنا أقف مع النشار فى خندق واحد، وأقف مع كل ضمير حى يريد الخير الحقيقى لهذه الأمة لتنهض نهضة قوية تكسب بها احترام العالم وتقوم على إثرها الكرامة العربية حرة أبية، ويُصنع على أثرها القرار العربى الذى يقف الناس لله إجلالا واحتراماً.

قد يتساءل البعض، نعم، الدوافع إلى الوحدة والنهضة كثيرة، وأكثر من الحصر، وما ذكرته هنا لا يتجاوز ربع تلك الدوافع، ولكن المعوقات أكثر، فهل من سبيل إلى التغلب عليها؟!

وهذا سؤال منطقى مائة بالمائة، فالسؤال لماذا الوحدة وصناعة النهضة كشف أمامنا تطفيفاً غير طبيعى لموازين القوى الدولية، وكشف أمامنا صورة العدالة العرجاء، وكشف أمامنا سوءات القيم التى يتمسك بها الغرب والأمريكان كما كشف عن حقيقة مزاعمهم وراء هذه القيم البالية التى طالما يصدرونها للجميع لتكون ستاراً تختفى ورائه جرائمهم البشعة.. كل هذا حق، وكل هذا صواب!!

لكن، تُرى أتكون العوائق لصناعة تلك النهضة وهذه الوحدة مجرد عثرة فى سبيل صناعتهما!!

إذن سنظل ننتقل من أزمة إلى أزمة منتظرين الفرج من السماء، وهذا ليس أبداً برأى للعقلاء، ليس حلاً يقبله المنصفون والمهمومون بهموم هذا الوطن المؤرقون بقضاياه..... قد يكون هذا سبيل الضعفاء، ومسلك الأغبياء، ومقصد الجبناء، ولكن الأمة العربية غنية برجالها القادرون على صناعة تلك

النهضة، والتغلب على كل معوقاتها، فما هى تلك المعوقات أولاً كما ارتآها مصطفى النشار؟ ثم تكون الإجابة المنطقية بعدها فى كيفية التغلب عليها.

ثانياً: المعوقات

يذهب النشار إلى أن صناعة نهضة عربية ليست بالحلم بعيد المنال، ولكن تلك الرغبة مرهونة بتوافر الإرادة القوية والعزيمة الصلبة للتغلب على أربعة معوقات رئيسة، حيث سيادة ثقافة التخلف، والأمية، وغياب العدالة الاجتماعية وكثرة الأقوال وقلة الأفعال.

هذه هى أهم العوائق التى يراها النشار، و إن كنت أراه متفائلاً إلى حد كبير، لأنى أرى العوائق أكثر من هذا بكثير، ولكنه يجمل ما رأيته كثيراً فى هذا القليل، ثم يرسم لنا آليات صناعة تلك النهضة فى الفصل الأخير من هذا الكتاب، بعد التغلب على تلك المعوقات التى تعرض لها فيما يلى:

1- سيادة ثقافة التخلف:

يُعرف النشار التخلف بقوله: «التخلف فى اعتقادى هو الجمود والتجمد عند نقطة معينة، وعدم القابلية للتطور أو التجدد، ومن ثمّ فإن الفرد أو المجتمع المتخلف هو الفرد أو المجتمع الذى يؤمن بأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وأن الوضع الذى هو عليه هو أفضل الأوضاع، وأن الثبات والحفاظ على ما هو كائن هو الهدف المنشود»[1].

وهذا التعريف يحمل فى ذاته توصيفاً للأزمة أكثر مما هو تعريف،

(1) د. مصطفى النشار، فلسفة الثقافة، ص98.

ولكنه توصيف موجز للهموم التى يمر بها مجتمعنا العربى، للثقافة الضحلة السائدة، للفكر العقيم المحيط على اعتقاداتنا يزيده النشار إيضاحاً بقوله: «إن ثقافة التخلف يتسم الناس فى ظلها بتغليب الدوافع الأنانية على الدوافع الموضوعية، وتتغلب لديهم تحقيق المصالح الشخصية على مصلحة المجموع، فكل فرد رغم أنه ينتمى فى الأساس إلى ثقافة القطيع إلا أنه ينفصل عنهم فى مجال التصرفات الشخصية حيث ينغلق على ذاته محاولاً الحصول على أعلى درجات الإستمتاع بمختلف أنواع المتع واللذات الحسية بعيداً عن أعين الأخرين وفى غفلة منهم»[1].

ولعل السبب فى شيوع تلك الثقافة الحسية التقدم التكنولوجى الهائل الذى أساء أبناؤنا استخدامه وفهموه على أنه الانفتاح بلا رقيب، فسادت الثقافة الحسية واللذية بعيداً عن الثقافة العلمية، وهذا من أشد أوجاع مجتمعنا العربى فيما يقول النشار: «غياب الثقافة العلمية وشيوع ثقافة التخلف بكل قيمها السلبية، فأفراده فى معظمهم يعيشون صباح - مساء ثقافة «الأنامالية» واللامبالاة، الوصولية، والمحسوبية، الرشاوى والفساد المالى والإدارى بكل صوره، وهذه القيم السلبية هى نتيجة طبيعية لمجتمع غاب عن أفراده عناصر الثقافة العملية التى هى أساس ما أسميه دائماً «ثقافة التقدم» تلك الثقافة التى تُكسب أفرادها الموضوعية فى القول والفعل، تحكيم العقل فى كل ما يصدر عنهم من أحكام ومواقف، الشفافية فى الإعلان عن الرأى وفى كل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، التخطيط العلمى الجيد لكل جوانب الحياة عملية كانت أو علمية، الإدارة بالأهداف التى تعنى تفعيل التخطيط العلمى فى مجال الإدارة، فلا يدير أحدهم مصنعاً أو حتى مؤسسة علمية أو

(1) نفس المصدر، ص104.

تربوية أو غير هذه وتلك إلا فى ضوء خطة عمل تحدد أهدافاً بعيدة وقريبة المدى، وتحدد آليات دقيقة لتحقيق هذه الأهداف بصورة ترضى عنها معايير الأداء الجيد والمنتج الذى تتوافر به كل مواصفات الجودة والإتقان»[1].

ويؤيد عالم الاجتماع الدكتور أحمد حجازى ما أكده النشار، إذ يرى أن أهم مظاهر أزمة التخلف العربى ما يلى:

- هيمنة بيروقراطية مركزية على الاقتصاد والمجتمع بشكل يمنع أو يُحد من إمكانيات التنمية الحقيقية.
- استئثار فئات قليلة من المجتمع بمصادر القوة الاقتصادية والسياسية، وهذه الفئات لا تعمل إلا فى المجالات غير الإنتاجية لأنها تمثل بالنسبة لها المصدر الحقيقى للتراكم الاستثمارى المظهرى.
- ضيق القاعدة الإنتاجية وفقدان مجالات الاستثمار الحقيقية حيث تتركز هذه المجالات فى القطاعات الهامشية والسلع الاستهلاكية غير الضرورية.
- تصدير رؤوس الأموال العربية إلى الأسواق الأوروبية.
- زيادة الهوة بين الأغنياء والفقراء فى داخل بعض الدول، وكذا بين الدول النفطية وغيرها.
- ظهور قوى اجتماعية جديدة تابعة للمركز الرأسمالى العالمى تعمل على تسهيل مهمة التغلغل الرأسمالى فى الدول العربية[2].

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص166 - 167.

(2) د. أحمد مجدى حجازى، علم اجتماع الأزمة، رؤية نقدية للنظرية السوسيولجية، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1992م، ص174 - 175.

ومجمل هذه المظاهر تترسخ بقوة فى الثقافة العربية، لذا سنجد أن أحد أهم، بل وأول آليات صناعة النهضة عند النشار سيبدأ من الحل الثقافى كما سنرى فى الفصل القادم، - إن شاء الله - لأن علاج تلك الأزمات والمظاهر السيئة علاج ثقافى فكرى تربوى فى المقام الأول.

أضف إلى كل هذه السلبيات التى قد تودى بحياة أمة بأسرها، سيادة اللامبالاة وعدم الإحساس بقيمة الوقت، ففى الوقت الذى صنع فيه الغرب قطاراً يبدأ رحلاته وينهيها بالثانية وليس بالدقيقة أو بالساعة، لا زال العرب يمرحون ويلهون ويلعبون بالساعات والساعات دون أدنى إحساس بالوقت، ودون أدنى شعور بالمسئولية تجاه هذا الهدر المتعمد لأعظم ثروة منحنا الله إياها، يكفى أن الله أقسم بهذا الوقت أكثر من ثمانى مرات ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 1 - 2] ومعلوم أن الضحى هو وقت الضحى، والليل ومقصوده وقت دخول الليل، بل إن المجرمين يوم القيامة يعللون اجرامهم بقصر الوقت الذى مكثوه فى الدنيا ٢ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ [الروم: 55]، ثم يؤكد النبى الكريم ﷺ على أهمية الوقت بقوله: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**»[1].

والناحية العقلية لا تقل تجريماً لضياع الوقت وإهداره عن الناحية الشرعية، فالأمم إنما تتقدم بالعمل الجاد واستغلال كل لحظة من لحظات حياتها فى العمل المثمر الذى تكفى به احتياجاتها[2].

كذلك من دلائل تخلفنا اهمال اللغة العربية التى هى مناط القومية، فى

(1) رواه البخارى (1251) ومسلم (752).
(2) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص179.

الدرس والبحث العلمى ظناً بأن التوسع فى تدريس العلوم باللغات الأجنبية يزيد من فرص العلم لدينا، مع أن الحقيقة عكس ذلك تماماً، إذ لا يمكن الإبداع بغير اللغة القومية فيما يقول النشار: «إن عجز معظم أبناء الجيل الحالى من علمائنا عن نقل ما تخصصوا فيه من علوم إلى لغتهم القومية هو تقصير ينبغى أن يعترفوا به، وأن يساعدوا مجتمعهم على تربية جيل جديد يتقن اللغتين، لغتهم وأى لغة أخرى، بحيث يمكن لأبناء هذا الجيل الجديد أن يدرسوا و يُرّسوا هذه العلوم باللغة العربية حتى يسُهل على هؤلاء العلماء الجدد أن يستوعبوا هذه العلوم استيعاباً كاملاً، إذ إن الدراسات التربوية العلمية الحديثة أثبتت أن الإنسان لا يمكن أن يبدع بشكل كامل إلا فى إطار لغته الأصلية «القومية»، وأن الإبداع العلمى لابد أن يتوافر له ما يسمى بالبيئة العلمية المشجعة أو المواتية»[1].

إن اللغة العربية التى هى لغة القرآن بالأساس ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2]، جديرة بتمجيد أبنائها، فإذا كان الغرب يقبلون على تعلمها باعتبارها اللغة العالمية التى ستحتل السيادة عقب انهيار الحضار الغربية والإمبريالية الأمريكية، فإن الأولى بذلك هم أبناؤها، وخاصة العلماء والنخبة الذين هم مناط المسئولية الكاملة عنها فيما يقول النشار: «إن قراءة العلوم باللغة القومية هو الطريق الوحيد لأن يصبح أبناء هذه الأمة علماء بحق وقادرين بحق على نشر علومهم وثقافتهم العلمية بين مواطنيهم وتلاميذهم، ولا يمكن أن يتفاعل المجتمع الجاهل بأبسط مبادئ المعرفة العلمية مع التقدم العلمى ولا أن يشجعه، ففاقد الشىء لا يعطيه، إن

(1) المصدر السابق، ص179.

الجيـل الحالى من علماء مصر وغيرهم من العلماء فى كافة البلدان العربية هم مسـئولون أمام اللـه وأمام أوطانهم إن لم يعترفوا بأنهـم إنما يقصرون حقاً فى حـق أمتهم طالما لم يسـعوا إلى نقل ما تعلموه من علـوم ونظريات علمية إلى تلاميذهم ومواطنيهم باللغة العربية»[1].

ويزيد النشـار من لهجة النداء بالاهتـمام باللغة العربية لدرجة تعريب العلوم فيقول «إن قضيـة ترجمة العلوم إلى اللغة العربية قضية قومية خطيرة ينبغـى الالتفات إليها بل أعتبرها - والحديث للنشـار - قضيـة القضايا إذا ما كان موضوع الحديث عن التقدم العلمى، إذ إننى أعتقد ولازلت وسأظل أصر على أنه لا مجال للحديث عن التقدم العلمى طالما أننا بعيدون عن نقل العلوم إلى لغتنـا القومية، بعيـدون عن تدريس العلوم باللغـة العربية، بعيدون عن نشر القافة العلمية باللغة العربية، بعيدون عن الاعتزاز بلغتنا القومية كلغة علمية عالمية»[2].

ولا يفوتنى أن أسجل اعتراض مع محمد عابد الجابرى على قضية التعريب التـى يدعو إليها النشـار، لأنها فضلاً عـن إفراغها العلم مـن مضمونه كون معظم المصطلحـات العلمية وجدت باللغات الأجنبيـة خاصة الإنجليزية، وأن هذا الاعتراض قد يكون مردوداً عليه بما كتبه الأطباء والفلاسفة العرب والمسلمين من قبل وتم تدريسـه فى جامعات أوروبا باللغة العربية[3] إلا أن الاعتراض الأقـوى على قضية التعريب أنه سـيؤدى إلى ضعف تعلم اللغات

(1) المصدر السابق، ص187

(2) المصدر نفسه، ص188.

(3) د. محمد عابد الجابرى، ثورة العقل العربى، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، سنة 1992م، ص134.

الأجنبيـة فى بلداننا العربية، وهو ما سـيؤدى إلى مأسـاة كـبرى، إذ لابد من تعليـم تلك اللغات الأجنبية كونها أحد آليات القوة والعلم ومواكبة التطور العلمى العالمى بلغته التى تطور بها.

نعـم، اللغة العربية فى حاجة إلى الاهتـمام والتطوير، لكن ليس إلى حدّ تعريب العلوم، ولكن تطويرها يبدأ من الاهتمام بها وبتدريسـها وبتقديمها على غيرها من اللغات الأخرى عربياً، مع الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية الأخـرى لمواكبـة التطـور عالمياً، هـذا هو المنـاص الوحيد والمـلاذ الآمن لتصحيح مسار اللغة العربية.

أيضاً من دلائل تخلفنا عربياً ما يسـميه النشـار: «إهدار طاقات الشباب وعرقلـة حركـة الأجيـال» حيث يؤكد النشـار (وهـو ما سـنراه فى الفصل الأخير من الدراسة) أن الشـباب هم صانعوا أى نهضة ومبدعوها، وبدونهم فلا نهضة ولا تقدم، وأن الاسـتبداد السـياسى وانتشـار الشـللية والواسـطة والمحسـوبية أهدر طاقات الشـباب وأضاع الفرص تلو الفرص على الأمة فى صناعة نهضتها، يقول النشـار: «وبعيداً عن النتائج الاجتماعية والسياسـية والاقتصادية للبطالة التى يعانى منها عدة أجيال من شـبابنا المتعلم، الراشـد، الواعـى، تلك النتائج التى عادت بكل ما هو مؤسـف وخـارج على مجتمعنا ورصدهـا علماء الاجتماع وعلماء النفـس، فإن الإحباط الذى يصيب هؤلاء الشـباب نتيجة إهمالهم من مجتمعهم وعدم اسـتفادته من قدراتهم الجسـيمة والعلمية، هو مرض قاتل لهؤلاء الشباب.

فإذا لم يتحولوا بطاقاتهم إلى عوامل هدم و إفساد وتخريب فى المجتمع وهذا مـا نعانى منه فى مجتمعنا فى معظم الأحيان، فإنهم سـيتجهون حتماً إلى الانتحار

بشـقيه المادى والمعنوى، وفى كل الأحوال فإن المجتمع هو الخاسر الأكبر من اهـدار هذه الطاقات المبدعة لهؤلاء الشـباب، إذ لا يصنع الحاضر الزاهى ولا المستقبل المشرق إلا هؤلاء الشباب، و إذا ما ظل الجيل الحالى الذى انتهى عمره الإبداعى الافتراض منذ زمن متحكماً فى مسيرة الحياة والتنمية فى المجتمع لكان معـنى ذلك بكل بسـاطة هو التوقف التام لحركة المجتمـع والانهيار اللامحدود لكل جوانب الحياة فيـه، وبالطبع فإن هذا الانهيار لا يحدث فجأة، بل يحدث خطوة خطوة، وشيئاً بعد شىء، ومجالاً بعد أخر، ونحن الآن وبعد ضياع الأمل الحقيقى فى الاستفادة من امكانيات وطاقات ثلاثة أجيال على الأقل من أجيالنا المبدعـة، نخطو ربما الخطوة قبل الأخيرة فى طريق الانهيار المفاجئ للمجتمع! ولن يكفى لوقف هذا الانهيار ترقيع بعض المواقع وتحديثها عبر قيادات شـابة هنـا وهناك بشـكل فوضوى غير منظـم ولا يعتمد على خطـة واضحة المعالم للاسـتفادة من هـذه الأجيـال المتوالية، فالأمر يجرى بشـكل عشـوائى يعتمد عـلى المصادفة البحتة فى بعـض الأحيان أو على الشـللية والارتباطات العائلية والواسطات والمحسوبيات والرشاوى فى معظم الأحيان»[1].

و يناشـد النشـار أنظمة الحكم العربية بلغة قوية نابضـة بالحياة والثورة معاً ناصحاً إياهم بالوعى بحركة التاريخ وصيرورة الحياة ودوران الأحداث فيقـول: «ينبغـى على هذا الجيـل السـلطوى المتحكم أن يدرك أنـه لن يظل فى تحكمـه فى مقـدرات المجتمع وتطـور حركته إلى النهايـة، لأن لكل جيل - مهـما تحكـم ومهما طالت مـدة تحكمه - نهاية محتومة، ولابـد أن يملك كل جيل الشـجاعة الكافية للسـماح للحراك الاجتماعى والسياسى والعلمى أن

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص177.

يتم بشكل طبيعى، وهذه الشجاعة هى الإنجاز الحقيقى لأبناء هذا الجيل، فالشجاعة هى أن تسمح لغيرك أن يحل محلك وأنت مرحب به بدلاً من أن يزيحك رغم أنفك حسب حركة الحياة وصيرورة التاريخ!»[1].

ولعل صانعى القرار فى مصر قد قرئوا هذا الكتاب «الأورجانون العربى للمستقبل» فاتخذوا خطوات ايجابية نحو تمكين الشباب، نعم هى خطوات غير كافية، فما زال حاملوا المؤهلات العالمية يوضعون فى غير مواضعهم أو ربما ينتظرون طابور العمل على الرصيف، ولا زادت المؤسسات العلمية مكتظة بمشايخها دون الاستعانة بالشباب، ولكنها خطوات جريئة ولها احترامها، يكفى أنها فتحت الباب لأول مرة أمام الشباب.

يبقى التساؤل إذن، من المسئول عن شيوع ثقافة التخلف، والإجابة عليه فى حاجة ماسة إلى المصارحة والمكاشفة بقدر ما هى فى حاجة إلى الجرأة العلمية التى فاجئنا بها النشار بقوله: «إن النخبة هى المسئول الأول عن شيوع ثقافة التخلف لأنها لم تعمل منذ فترة على الأخذ بأسباب وقيم ثقافة التقدم، وتناست فى غمرة البحث عن تحقيق مصالحها الآنية، تناست أن المثقف والعالم والمفكر والكاتب إنما هو ضمير الأمة وهو صاحب رسالة تنويرية فى تثقيف مواطنيه وحثهم على التمسك بكل قيم التقدم العلمى، ومن نافلة القول التأكيد على ألا تقدم علمى ولا ثقافة علمية ولا بيئة علمية مواتية لصنع الإبداع العلمى والمشاركة فى مسيرة العلم المعاصر، بدون انتشار قيم الثقافة العلمية ومفرداتها ونظرياتها بين أفراد المجتمع بلغة هؤلاء الأفراد»[2].

(1) المصدر السابق ص177.

(2) المصدر السابق، ص168.

يمكننا القول بأن المنظومة مشتركة بين الجميع، سيادة ثقافة تخلف، يُسأل عنها أصحاب الثقافة وأرباب الفكر وأهل الرأى، ويتأثر الجميع فى النهاية بهذا العطب الذى يلحق بسفينة الوطن العربى الكبير، الذى وجه إليه النقد الكثير من عدول المفكرين الغربيين، نقداً اراه بناءاً، حيث الرفض القاطع لإنتشار ثقافة التخلف تلك التى تغزو أركان وطننا العربى وتملأه عن أخره، حيث لا عمل فى ظل تخلف لا مفر منه إلا بالعمل، وحيث تحكم بعض المنتسبين للدين ومحاولتهم الإمساك بالسلطة باسم الدين وباسم الخلافة، فى حين أن أوروبا أقامت خلافة هى جوهر النظام السياسى فى الإسلام، بينما ظل هؤلاء المتفيهقون يرمون أوروبا بالكفر والفسق، وتخلفوا هم عن الركب، تلكم كانت شهادة مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى العالم 1900م وهو مفكر سياسى له وزنه، وفى حديث أجراه معه الأستاذ بشارة تقلا رئيس تحرير الأهرام آنذاك جاء فيه[1]: «أنتم تعرفون من تاريخ أوروبا أن أممها ما تقدمت علماً ومدنية واختراعاً إلا يوم تقيدت السلطة المدنية، وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة، وأنا لم أكتب إلا إلى أبناء وطنى الفرنسيين، ولم أستشهد بكيمون وهو يونانى الجنس، إلا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها، فإن كثيرين من الكُتّاب الألمانيين والفرنسيين والإنجليز وغيرهم حذوا حذوه، وقالوا قوله، وخلاصة كتاباتهم أن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد، لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة، وهى أنه كلما تقدمت أوروبا تأخر الشرق، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى، وإن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوروبا علماً ومدنية

(1) رأيت نقل الحديث كاملًا لعموم الفائدة.

نجحت، مع أن الدولة العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه فى السنين الغابرة، و إنما ذكرت من هؤلاء الكُتّاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه، لاعتقادى أن الإسلام لا يحول دون الإصلاح والمدنية، واستشهدت على صحة معتقدى هذا بتونس، فذكرتها مثالاً أؤيد به أقوالى، وسياستى هذه هى روح كتاباتى السابقة، و إنها ستكون روح اللاحقة.

و إنى لا أكلمك كمسيحى بل كمؤرخ، كاتب حر الضمير، لا شأن لغيره فى معتقده الخاص، ولكننى أحترم أدبيات كل دين ومعتقده، وأقدر تلك الأدبيات حق قدرها ولكن الماديات غير الأدبيات والأولى من شئون عالمنا هذا الذى نعيش فيه ونحيا به، وكل أمة لم تتقدم فى ماديتها لابد أن تموت، إذ لا حياة بلا مادة، و إلهكم أنتم أيها الشرقيون إله أوروبا و إله أمريكا، إذ أن إله الجميع واحد ـ ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافاً على الأوربى منه على الأمريكى، فالشرقى، بل إن الشرقيين عموماً أكثر تمسكاً بعقائدهم من الغربيين، وقد علمنا أن أوروبا فاقت شرقكم بمراحل، ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا، وكثيراً ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها، ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل إلى الأمريكى منه إلى الأوروبى أو الشرقى، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حى، هذا يشتغل مجتهداً، وكلما زادت أرباحه زاد نشاطاً و إقداماً، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلماً، ولهذا تقدم الأوربى وتأخر الشرقى، وضيق أوربا بأهلها دفعها إلى الاستعمار فى كل صوب، فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوباً لا حراك بها، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها.

وهنا يسأله رئيس الأهرام قائلاً: إنى أعرف ما سردته لى عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية فى أوربا وعن أحوال شعوب القطرين (تونس والجزائر) ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولاسيما فى الحكومات الإسلامية[1]، والذين يقولون به من الأجانب ليسوا سوى خصوماً للمسلمين لاعتقاد هؤلاء أن فى فصل السلطتين ضعفاً ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم!

قال هانوتو: انا لاأسأل الشرق ذلك فهو حرفيما يفعل، ولكن أعتقد أن أوربا لم تتقدم إلا بعد تعيين حقوق السلطتين، وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة كما أنى أعتقد أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع أن تخسروا فى الحروب الماضية، وأعتقد أيضاً أن صاحب السلطتين ولاسيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يُجرى إصلاحات لا يقدر غيره عليها، ويعلم المسلمون أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس، وانجلترا من التهام الهند، وروسيا من أخذ تركستان وغيرها إلى حدود أفغانستان، كما أنه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس، والمملكتان إسلاميتان، فإذن كان يستحيل توحيد سلطتهما الدينية، وإذا كان الإسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادكم؟ فإذا قلتم إن أوربا تحول دون الإصلاحات، إذن فلم تأخرتم واليابان تقدمت؟ وهى لم تشتغل إلا ربع قرن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم فأصبحت أوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الأقصى.

(1) يقصد السؤال عما عناه مسيو هانوتو من فصل السلطة المدنية عن السلطة السياسية وأوردته لمعانى عظيمة أردت توضيحها

و إذا قال لكم أولئك الكتاب إنا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون إصلاح الولايات الواقعة فى أوربا والقريبة من أوربا كسوريا مثلا سألتكم، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم؟ أيظن رجالكم وكتابكم أننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين.

وأنا اعرف أن أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها، ولكن قد حان لكم ألا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى ما دام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين.

بشارة تقلا: وما شأنكم والشرق وأممه، فكلاهما راض عن حاله ومفضل لها على كل سلامة أجنبية أو أوربية، والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوربا فى سياستها هذه، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوى.

فقال الوزير بعبارة صريحة: إن هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حال أوربا هذا الزمان، فهى بعد أن كانت لا تهتم بغير قادتها، قد اندفعت إلى الاستعمار، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها[1] واعلم أن فرنسا مضطرة، ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى

(1) وهذه من المفارقات الحقيقية التى يعترف بها هذا الرجل صراحة، وهو ما أكده حديثاً مصطفى النشار وأوردته فى هذا الكتاب تحت اسم (وهو الديموقراطية الغربية) وها هو الرجل يصدق ما قاله النشار اليوم، فالغرب يظهر المبادئ فى العلن ويدوسها فى السر، فيكون ما يبطن أخطر بكثير مما يظهر، وما يظهره ليس سوى ستاراً يخفى ورائه أطماعه.

والتجارى إلى الاقتداء بالدول المذكورة و إنى أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون فى غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى نكاية فى الانجليزى و ينتصرون للفرنسى على الألمانى، ولكن أما آن لهم أن يعلموا أن الأوروبيين مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبم من السهل اتفاقهم على الشرقيين؟ لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شئونهم بل لمعارضة دولة ثانية، وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم، وأنت تعلم أن ألمانيا أكثر الدول فى أوربا استقراراً وأبعدها عن الاستعمار، وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصين، وهى التى سألت امتياز إنشاء (سكة حديد) بغداد، مما يدلكم على أن أوربا لا تسعى إلا إلى مصلحتها السياسية».

ثم يردف الوزير نقده للشرق بقوله: «دعنى أتساهل معكم وأقول بأن بعض الأوربيين يريد لكم سوءاً، و إن هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الأوربيين، ولكن إذا كان قد استحال على دول الشرق وهى فى أوج مجدها وشامخ عزها، أن تتحد وتوحد كلمتها، فهل يسهل ذلك عليها اليوم؟[1] و إذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداءاً لمصلحة الإسلام، لأن أوربا مسيحية وهو زعم باطل، فهل كل ما ينادون به من وجوب الاتحاد الإسلامى وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا، ويمنعها عن انقاذ ما يتهمها به المسلمون؟ وكيف يمكن ذلك الإتحاد المزعوم؟ اترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهى طامعة فى غيرهما؟

(1) سؤال أكثر واقعية، فقد تهيأت الظروف واتحدت الغايات أكثر من مرة إزاء مواجهة الأخطار الغربية والهجمات البربرية على الشرق، فلماذا لم يتحد العرب وقتها و يستمر اتحادهم درءاً لأى عداوات قادمة؟

أم تقبله فرنسا مع أملاكها الإفريقية الواسعة؟

أم تؤيده انجلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم؟

أم تعضده روسيا؟

أليس ذلك خرقاً فى الرأى من الذين ينادون بهذه السياسة؟

أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا فى أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على القليل من مبادئها وسياستها فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم، وأن يعملوا فى الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب، بأن يتخذوا إقدام أوروبا واجتهاد أبنائها مثالاً يسيرون عليه، وأنموذجاً يعملون بموجبه أى كما فعل اليابانيون فى السنين الأخيرة، وأنت تعلم أن الذى نبه اليابان هو خوفها من أوروبا، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الأوروبى وذمه والمباهاة بمجد الآباء[1] ولم يقل يابانى بتحقير الأجنبى لأنه عنصر غريب، لأنه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا، ولكن بسلاح أوربا، أى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والإقدام، ولهذا فازت فى مطالبها، وحالت دون فتوحات الأوربى الاقتصادية أولاً، فالسياسية ثانياً، ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من أوربا، ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الأوربية

(1) وهو عادة ما يفعله الشرق، وهو ما وجه إليه النشار النقد أكثر من مرة حيث نجيد الكلام ولا نقدم على الفعل وتلك المأساة الكبرى، فالغرب لا يعرف الكلام بقدر ما يعرف العمل، بل ولا بأدنى قدر.

سـواء كان فى أوربـا أو فى الشرقيـة الأقصى والأقرب لكان دون شـك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوروبية[1].

وتقـول لى إن النهضـة العلميـة بدأت فى مـصر، وأن بعض الأفراد أنشـأوا المدارس، وأن السلطان قد اهتم كثيراً بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية وأن أصحاب النشـأة الجديـدة أدركوا قصـور الحكام، وتأخر البـلاد، فقاموا يجهـرون بوجـوب الإصلاح وتعميـم العدالـة، والأمل وطيد بالنجـاح، ولكن الطفـرة محال، ويجب أن تعلموا أن العبرة ليسـت فقط فى إقامة المدرسـة بل فى وضع (البرامج) المدرسـية، كـما أن العلم وحده لا يكفى وقد يضر إذا لم يُمزج بالتهذيـب، فـإنى لا أجهل أن كثيرين مـن أبناء الشرق درسـوا فى أوروبا، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسـوا فى أوروبا أيضاً، ولكننا رأينا فى اليابـان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم، ولعلنا نراها يوماً لأنى أعتقد أن رجال النشـأة الجديدة ينجحون نجاحاً كامـلاً إذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية، لأن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع إلا عنصراً واحداً، وأنت تعلم أن الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتسـتانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعايا فرنسا، ولكن الكاثوليكى الفرنسى والأرثودكسى الفرنسى لا يشمل كل فرنسا»[2].

(1) وهذه خير شهادة على أن قوة العرب والمسلمين إذا ما اتحدت كانت أعظم من أوربا بمراحل، لأن وحدة أوربا تقوم على المصلحة، أما الوحدة العربية والإسلامية فتقوم على العقيدة واللسان والهوية أولاً ثم المصالح فى المقام الأخير.

(2) هذا الحديث نقلته بتصرف من كتاب «الإسلام دين العلم والمدنية» للشيخ محمد عبده، دراسة د. عاطف العراقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة2009، ص79 وما بعدها.

لعـل هذا الحديث قديم، فهو تاريخياً يرجـع إلى قرن من الزمان أو يزيد قليلاً، ولكن جرحه عميق، لأن هذا الرجل وضع يده على كل الجراح العربية التـى تمثل بحـق ثقافة التخلـف، هو تكلم عنهـا إجمالاً، ومصطفى النشـار فصلها تفصيلاً مع إضافة بعض السلبيات السائدة فى مجتمعاتنا العربية، لكنه حديث مكاشـفة لا شـك، حديث الصراحة والوضـوح والمواجهة التى لا مواربـة فيها ولا تجمل، وهكذا تبنى الأمم، تبنى بالمصارحة وكشـف العيوب والأخطـاء والبحـث عـن السـلبيات، ولا تبنى أبـداً بدفن الـرأس فى الرمال كالنعام، تبنى بتوجيه النشار النقد إلى السياسة والساسة عربياً، ولا تبنى أبداً بالنفاق والرياء ومداهنة صانعى القرار حتى يغرق الوطن ومن فيه.

لقـد وضع الرجل أيدينا على سـبع حقائق تكاد تكون مسـلمات لا تقبل الجدل.

أ- اللغة السائدة فى العالم هى لغة الأقوياء لا الضعفاء، والعالم لا يعترف بغـير الأقوياء، لا يعترف بالمبادئ، ولا يعـترف بالقيم، ولا يوجد شىء اسمه انسانية، فقط توجد مصلحة، وفقط توجد قوة.

ب- يسـأل الرجل أسـئلة واقعية، وعلى العرب أن يجيبـوا، أولاً لماذا تقدم الغـرب وتأخرنا نحن، وثانياً لماذا تقدمـت اليابان وتخلفنا، وثالثاً لماذا لم تقم وحدة عربية وقد واتتها الظروف غير مرة؟

ج- العمل وحده هو الذى يصنع التقدم وليس العجز والكسل.

د- وجـه مُـر النقـد إلى العلـماء والنخبـة الذين يـراءون الحـكام وينا فقونهم.

هـ- أرسى حقيقة أن أوروبا تجمعها المصالح المشتركة وهم أمة واحدة على من سواهم، أمة تقوم على المصلحة لا على المبدأ.

و- أكد على أن الدول الأوروبية ستعارض صناعة أى نهضة عربية وستقف حجر عثرة فى وجه أى وحدة عربية منشودة.

ز- لا بديل عن التسامح الدينى و إقصاء الخلافات المذهبية والطائفية لصناعة أى نهضة حقيقية، فالدين لا يمنع النهضة و إلا لما نهضت أوروبا ذات الأديان المتعددة والمذاهب اللامتناهية، ولكنها تقدمت عندما قامت على المصلحة المشتركة لا العقيدة المشتركة، ولا المذهب المشترك، فالرجل يؤكد بكل صراحة أن فرنسا بها المسيحى واليهودى والمسلم، وعلى مستوى الدين الواحد، فيها المسيحى الأرثوذكسى والبروتستاتتى (الطائفية) ولكنها ما أقامت وزناً لهذه الاختلافات العقائدية أو المذهبية بل هى لكل الفرنسيين و بهم جميعاً، و بما يعنى تقديم فرنسا لفكرة المصلحة القومية على الطائفية والمذهبية.

درس فى الصميم لعقلاء العرب .. حقاً ـ وما يعقله إلا العالمون- إن سيادة ثقافة التخلف نذير خطر، لأن سلبياتها كثيرة وكبيرة و فى حاجة إلى مشقة كبرى للتغلب عليها، إذ أن عملية التحول من ثقافة التخلف إلى ثقافة التقدم تستلزم عدة مطالب أجملها النشار فيما يلى:

- ❐ توافر الإرادة المجتمعية والسياسية لإجراء التحول.
- ❐ تعديل فلسفة التعليم لتصبح فلسفة للإبداع لا للتقليد والتبعية، وهذا يستلزم تغيير منظومة التعليم بالكامل.

- ❐ القضاء التام على الأمية.
- ❐ الدعم اللامحدود للبحث العلمى، حيث يسخر النشار من نسبة الإنفاق العربى على البحث العلمى والتى لا تتجاوز 3 %.
- ❐ توافر الإدارة القادرة على قيادة العمل بحرفية وكفاءة.
- ❐ الثقة فى قدراتنا الذاتية على الإنجاز والابتكار.
- ❐ تجديد كافة أشكال الخطاب، سواء الثقافى أو الدينى أو السياسى أو الإعلامى.
- ❐ التحول من القول إلى الفعل أو من الخطاب اللفظى إلى حضارة الأداء[1]...

تلك هى العلة، وتلكم هى آليات الخروج منها فهل من مجيب؟

2- الأمية:

لعل أخطر عائق لصناعة نهضة عربية هو الأمية التى تفشت فى أرجاء وطننا العربى بصورة مخيفة، إذ تشير التقارير غير الرسمية إلى أن نسبة الأمية عربياً تتعدى حاجز الثلاثون بالمائة، وهذا نذير خطر لأن الأمية قائد للجهل بكل شىء، والجهل يشكل الضلع الأهم والأخطر فى مثلث الجهل والفقر والمرض باعتباره علة الإثنين الآخرين[2]، يقول النشار: «إن العائق الأهم والأعظم الذى يعوق تقدم أية أمة إنما هو الجهل الذى يرزخ تحته أبناؤها،

(1) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، ص60 وما بعدها
(2) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص94.

إذ أن أمـة لم تنجح فى تعليـم أبنائها وتأهليهم التأهيل المناسـب لا مكان لها تحت شـمس الحضارة من قريب أو من بعيد!! فالفرق بين الإنسان والحيوان بداية هو قدرة الأول على التعلم فإن لم يفعل ظل فى المرتبة الحيوانية سـلوكاً وأسـلوب حياة، وفقـد المجتمع الذى ينتمى إليه إنسـاناً كامـل الأهلية كان يمكن أن يكون إضافة حقيقية للتنمية فى وطنه وربما للبشرية عموماً»[1].

إن الأميـة عائق ليس للتقـدم أو صناعة النهضة وحسـب، ولكنها عائق للوجود الإنسانى السوى على الأرض، فأول آية من القرآن الكريم نزلت على النبـى الكريم ﷺ كانت ﴿اقْرَأْ﴾، لتكون بمثابـة صناعة أمة اقرأ التى لم تقرأ، وليضع لنا سبحانه أهم آلية لأمة إسلامية متقدمة بحق، أمة ترتكز على العلم وتأخذ بأسبابه وتنهض بمسبباته.

إن ظاهـرة الأمية بتوصيف د. إبراهيم شـحاته تُعد: «عاراً قومياً ليس لنا عذر فى استمراره، وخسارة محضة فى كل المجالات»[2].

فمـن الناحيـة الأولى هـى عار لأننـا أمة القـرآن وأمة الحضـارة وهما لا يسـتقيمان أبـداً مع الأميـة، ومن الناحيـة الثانية أنها تمثل خسـارة فادحة فى شـتى المجالات لأنها تصنع الجهل صنعاً، وتفشى الجهل يؤدى إلى كوارث من المشـكلات التى لا حـدّ لها ولا حصر، فأكثر القضايـا المنظورة أمام القضاء لمواطنـين يرتعون فى الجهل، وأكثر المعتدين عـلى القانون هم هؤلاء الجهلاء أيضـاً وفق الإحصائيات الرسـمية، كما أنهـم الفئة الأكثر عُرضـة لعلميات غسيل المخ التى تفرز متشددين وقتلة باسم الدين.

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص92

(2) د. إبراهيم شحاته، وصيتى لبلادى، ص130.

كل هـذه المشـكلات وليدة الأمية، و ينبغى مواجهة السـبب لا النتيجة، حتـى تقطع الطريق أمام كافة النتائج المتولدة عن ذاك السـبب، ولكم كان الدكتـور فتحـى سرورصادقـاً فى تعجبـه: «إنه لمـن العجيب حقـاً أن تثور المشـاعر وتهتـز أركان البـلاد وتكثف الجهود إذا احتُل شـبر مـن أراضيها، وتركـن حتى الآن إلى الدعة والهدوء وعقـول الغالبية الكبرى من المواطنين تحتلها حجافل الجهل والأمية»[1] .

حقـاً ما أصدق هـذا القول، لأن الأمية أخطر من الاحتلال العسـكرى، وما استطاع الغرب يوماً أن يحتل الشرق عسكرياً إلا باستغلال جهل القاعدة العريضـة فى بلاد الـشرق، واللعب على وتر سـوء التعليـم، كى يضمن إنتاج أجيال جاهلة و إن كانت فى ظاهرها متعلمة وتحمل الشهادات.

و إن كنت أعتقد أن الأمية التى تعنى العجز عن القراءة والكتابة ليست هى كل المشكلة، ولكن الأمية المتفشية بين المتعلمين ذاتهم هى أخطر ما فى الأمر، فواقعنا التعليمى كارثى، وشواهده تنذر بالخطر، فطالب الدبلوم الفنى يتخرج من مدرسـته دون أن يجيد القراءة والكتابة ولو ربع إجادة، وطالب الثانوية العامة يعتمد على النجاح فى الدور الثانى، بل وطالب الجامعة رأسـه خاوية إلا من الفيلم والمسلسل والبنت التى يحبها ولون التيشيرت وغيرها من أمور تافهة أقل من مستوى تفكير ابن الثمانى سنوات.

واقع مرير وجه إليه النشـار مر النقد، إذ لا بناء لأمة من الأمم فى وجود أى نسـبة من الأمية، ولا تقدم ولا نهضـة بدون ركوب مركب العلم و إعطاء

(1) د. أحمد فتحى سرور، استراتيجية التعليم فى مصر، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ص113.

العلـم والعلماء والبحـث العلمى الأولويـة على كل شىء، عندهـا، وعندها فقط، نستطيع أن نقول أننا بحق أمة تسير على طريق النهضة.

3- غياب العدالة الاجتماعية:

من أكبر عوائق صناعة النهضة عربياً غياب العدالة الاجتماعية بمظاهرها المختلفـة، حيث أن الإحسـاس بالقهر والظلم وانعدام الأمـن والأمان عادةً ما يؤدى إلى سـيادة مظاهر الأنانية والتعدى عـلى الآخرين والتمرد على كل اللوائح والقوانين وسـيادة روح اللامبالاة والسـلبية والعنـف لدى الأغلبية العظمى من الأفراد[1].

وترجع جذور العدالة فى مـصر إلى الحكيم المصرى إيبوور (ت 2300 ق.م) والـذى دعا إلى إصلاح الحياة السياسـية إبان انهيار النظام السـياسى القائـم على ثيوقراطية الفرعـون والكهنة وظهور الثورات الشـعبية التى تندد بالظلم وفساد الطبقة الحاكمة ودعا فى تعاليمه إلى ضرورة وضع قانون عام يحدد فيه حقوق الشعب وسمات الحاكم ووظيفته والدور الذى يجب أن تلعبـه الحكومة لتحقيق العدالة والمسـاواة بين أفراد الشـعب بمختلف طوائفـه وحماية المـوارد الاقتصادية والدفاع عن حدود البلاد واسـتتباب الأمـن فى الداخـل، كما أوضح الفـارق بين الثـورة التى تطالـب بالعدالة والمسـاواة وأدان فى تعاليمـه أول ثـورة فى التاريخ المعروفـة بثورة الجياع فى عهـد بيبى الثـانى، وأكد عـلى أن القوانين وحدها لا تحقـق العدالة، بل إيمان الشعب والحاكم معاً بقيمتها الأخلاقية وأثرها فى المجتمع، فالتواصل

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2004م، ص132.

والحب والاحترام بين الحاكم والمحكوم هو القاعدة الرئيسة لكل دساتير العالم[1].

أيضا تـدل آثار الحضارة المصرية القديمة بـكل وضوح على مدى اهتمام قدمـاء المصريـين بالعدالـة، فقد كانـت حضارة عـلى النقيض مـن حضارة الرومان، كانت تهتم كثـيراً بالعدالة بينما كان اهتمامها نادراً بالقانون، فلم يتركـوا تراثاً لمجموعة قوانين كما فعل الرومان، تقول أنا ما نسـيني ما نصه: «ومن خلال الآثار المتبقية للحضارة المصرية القديمة يمكن القول بأن الحياة المصريـة بالكامل تديرها ماعت، ففى مجتمع كهذا، لا يوجد ثمة خلاف بين العدالـة الإلهية والعدالة البشرية، فالإنسـان العادل فى الحياة الدنيا هو أيضا الإنسـان العادل فى الحياة الأخرى، ويكافئ بالحيـاة الوفيرة ورغد العيش فى الحيـاة الدنيا والآخرة، فمصر لكونها هبة النيـل تتميز برخاء مادى لم يقف حجر عثرة أمام اندفاعها نحو مجتمع مثالى تسوده العدالة»[2].

فكرة العدالة إذن راسخة فى وطننا العربى، وغيابها الآن أحد أكبر العوائق التى يدعو النشـار إلى التغلب عليها، وإقامـة اقتصاد عادل يقوم على الموارد الضرورية لا على الاحتكار والادخار، حتى لا تتحول إلى الرأسمالية الغاشمة التى لا مجال فيها لمعانى الإنسانية، يقول النشار: «علينا أن نحرص على تنمية مواردنا المستقلة وابداع الوسائل الكفيلة بصنع التقدم على الطريقة العربية الإسـلامية، وليس مهماً أن نمتلك الثروات الطائلة والأموال السائلة بل الأهم

(1) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، دار الهداية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2012م، ص118.

(2) أنا مانسيتى، ماعت، فلسفة العدالة فى مصر القديمة، ترجمة محمد رفعت عواد، تقديم د. على رضوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2009م، ص22.

أن نمتلك ما يكفينا من الغذاء والكساء وسُبُل العيش الكريم، دون الاعتماد على المساعدات الغربية ودون الدخول فى آليات الرأسمالية الجهنمية التى حوّلت العالم بالفعل إلى ما أطلقوا عليه الرأسمالية النفاثة التى لا مجال فيها إلا لأحد احتمالين، إما أن تأكل و إما أن تؤكل، ونحن بالطبع لا نريد أياً منهما، بل نريد أن نخرج من دائرتهما الجهنمية وتوعية العالم بالالتفات حول نموذج اقتصادى جديد يراعى العدالة ويحفظ حقوق الجميع، جميع الدول وجميع العاملين، وعدالة توزيع الموارد وتوظيفها لخدمة الإنسان على هذه الأرض التى استخلفنا الله عليها»[1].

ويزيد النشار قضية سوء توزيع الثروة أو ما يطلق عليه فلسفياً اسم «العدالة التوزيعية» وضوحاً بتوجيه النقد إلى انعدام المساواة وغياب الأطر العامة للعدالة التوزيعية التى زادت فيها الهوة بين الطبقات فيقول: «فالتمايز الطبقى فى موضوعات الخطاب اليومى هو تمايز بين مقولات الجسد والمعرفة والمعدة، فالطبقة العليا أكثر اهتماماً بموضوعات تتصل بالجسد والمتع الحسية، فى حين أن الطبقة الوسطى أكثر اهتماماً بموضوعات تتصل بالعلم والمعرفة ومشكلاتها، أما الطبقة الدنيا فأكثر اهتماماً بموضوعات الطعام والمأوى وكافة مشكلات المعاش.

ولو دققنا النظر فى الموضوعات التى تتداولها هذه الطبقات الثلاث فى خطابها لوجدنا أن الطبقتين العليا والدنيا لا يهتم الناس فيها إلا بالمطالب الحسية - الجسدية، و إن كان اهتمام الأولى بها للاستزادة من المتع الحسية ورفاهتها إلى أقصى حد ممكن، بينما اهتمام الثانية ينصب على توفير ما هو

(1)) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص148.

ضرورى فيها للاستمرار فى الحياة لا أكثر، وبين هاتين الطبقتين التناقض بين قيم الثراء والغنى الفاحش، وبين قيم الفقر والخوف من الموت جوعاً، إنه: «التناقض الذى يكشف وجود الخلل فى التركيبة الاجتماعية والنظام الاجتماعى الذى لا يوجد فيه آلية محددة للتأمين الاجتماعى ضد الفقر والحرمان تأخذ من ثراء الغنى لتسد جوع الفقير وتقرب المسافة الاجتماعية بينهما»[1].

أضف إلى ذلك أحد أهم مظاهر غياب العدالة الاجتماعية، والتى تتجلى فى عدم المساواة أمام القانون، إنها عدالة عرجاء، مزدوجة المعايير، تطبق على الضعفاء فقط دون الأقوياء، يقول النشار: «إن من أهم أمراضنا وأوجاعنا إذن غياب العدالة، ومن ثمّ غياب النظام، والتخلص من هذا الوجع لا يمكن إلا بالعودة إلى تحقيق العدالة بالتطبيق الحازم للقانون فى كل صغيرة وكبيرة، على كبار القوم قبل صغارهم، على أثريائهم قبل فقرائهم، على الحكام قبل المحكومين و إن التزم الأوائل بالقانون وطبقوه على أنفسهم قبل غيرهم فى كل صغيرة وكبيرة التزم به الآخرون وكانوا فى غاية السعادة بهذا الالتزام لأنه سيعود عليهم بكل فائدة»[2].

تلك هى الثمرة الطبيعية لدولة القانون، سيادة القانون تعنى سيادة العدالة، وسيادة العدالة تعنى سيادة الأمن والاستقرار، وغياب العدالة يعنى الفوضى وعدم الاستقرار، يقول النشار: «إن غياب العدالة وشعور الإنسان العادى بهذا الغياب هو ما يجعله فوضوياً غير ملتزم بأى نظام، لأنه فى قرارة نفسه

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص108

(2) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص161.

يـدرك أنه وحده الذى عليـه أن يلتزم، بينما الآخرون من أصحاب السـطوة والسـلطان يتباهـون بأنهم فوق القانـون!! وحينما تغيـب العدالة ولا يحترم القانون فلا مدنية هناك ولا تحضر»[1].

فـما أكثر ما تسـمع عبارات «أنا فـلان» و«أنا ابن فلان» على المسـتوى الشـخصى، وعلى المسـتوى الاجتماعى «هذا المستشـار فلان» أو «الضابط فـلان» مع أن هـذه الوظائف أدعـى لأصحابها لاحـترام القانـون واحترام مبادئ العدالة إلا أنه نظراً للثقافة المتخلفة السائدة لدينا، فإن الموازين كلها تتقلب، ليصبح الضابط المنوط بحفظ النظام هو أول من يكسر لوائح النظام وقوانينه، وليصبح المسئول المنوط به الالتزام بالوقت واحترام المواعيد كونه قـدوة للجميع هـو أول من ينتهك هـذه المبادئ، والكل يلتمـس له الأعذار بمنتهـى اللامبالاة، دون أن يعلم هؤلاء وأولئك أن المسـئولية ليسـت شرفاً ولا ترفاً بقدر ما هى أمانة فى عنق صاحبها عليه أن يرعاها حق رعايتها.

إن غياب العدالة بشتى أنواعها، سواء عدالة توزيع الثروات والتى تعانى منهـا مجتمعاتنا العربية أيمـا عناء، وهو ما أدى إلى ازديـاد الهوة بين الطبقات لدرجة وصلنا معها إلى انعدام الطبقة الوسطى، فالطبقة العليا تملك كل شىء، والطبقة الدنيا لا تملك أدنى شىء، وما بين الطبقتين تكمن الأوجاع التى تؤرق الضمائر الحرة....

أيضاً غياب العدالة القضائية وحق المسـاواة أمام القانون يُشعر المواطن بانعدام المواطنة، بل و يتحذ من وطنه عدواً له، وتتفشى هذه المشاعر خاصة بـين المطحونين والأميـين الذين لا يمتلكـون أدنى وعى بحقـوق أو واجبات

(1) المصدر نفسه، ص160.

المواطنة، وتغزوهم تلك القيم السلبية التى لو استمرت لأغرقت الجميع..... ولأحرقت الجميع.... ولأضاعت الجميع....

إن غياب العدالة هو الوقود المستعر لهباً لأى ثورة أو فوضى، ومن ينسى ثورة يناير 2011م، تلك الثورة التى كان من أهم دعائمها غياب العدالة الاجتماعية، لذا كانت هى المطلب الأول الذى رفعه الثوار وحلموا به، وهى أحد أهم عوائق صناعة نهضة عربية، على الأقل لأن هؤلاء المطحونين هم وقود تلك النهضة على الأقل وهم صانعوها، فكيف وقد حُرموا من العدالة؟

إنها الحلم الذى طال انتظاره، العدالة الاجتماعية، التى وضعنا النشار أمامها وجهاً لوجه كأحد شروط صناعة مجتمع يحترم ذاته و يستطيع صناعة نهضة حقيقية، ليضعنا مباشرة أمام الحلم الفلسفى كامل الأركان بقوله: «إن شعور الإنسان بالحرية وبالسعادة لا يكتمل إلا إذا عاش فى بيئة نقية وفى مجتمع مستقر يسوده قيم العدالة والإخاء والمساواة والتوزيع العادل للثروة، و يسوده كذلك التعاون البنّاء والحوار المشترك بين جميع البشر، فهل ينجح الفلاسفة التطبيقيون ومن يناصرهم من المعنيين بقضايا التقدم العلمى ومن المحملين بهموم البشر وخاصة فى دول العالم النامى أو المتخلف، هل ينجحون فى مهمتهم المستحيلة وهى الدعوة إلى مجتمع إنسانى خال من كل صور التمييز والتعصب، خال من الفقر والأمية، خال من الظلم والاستبداد»[1].

إنه حلم جميل، ليس يوتوبياً بإعتبار سمو دعوته، ولكنه واقعياً تماماً بإعتبار فطرة الإنسان التى جُبلت على حب الخير والسلام والأمن والأمان، فهل نعى تلك الدعوة، وهل نجدد روافدها؟ وهل نحن قادرون على تخطى

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص10.

تلـك العقبة الكؤد وصولاً إلى صناعة نهضة حقيقية؟ نعم، كل ذلك فى تقدير الله، ولكنه وقف على مدى عزيمتنا، ومرهون بإرادتنا.

4- كثرة الأقوال وندرة الأفعال:

من أكبر عوائق صناعة نهضة عربية، بل ولعله العائق الأبرز لأنه متأصل فى فطرة وجبلة الإنسان العربى، كثرة الأقوال وقلة الأفعال، فنحن أمة فُطرت على حب الكلام، أمة اشـتُهرت بالشـعر والفصاحة والبيان، لذا جاء القرآن الكريـم إعجـازاً كونه من جنس ما برعـت فيه تلك الأمة، فجـاء بإعجازه اللغوى وبيانه المحكم والمتشـابه تحدياً لنحاة وعباقرة العرب ليأتوا بسـورة من مثله وما اسـتطاعوا لأن القـرآن ليس بكلام بشر، ولأن البشر مهما بلغوا سمواً ونضجاً فى التعبير اللغوى فلن يبلغوا براعة القرآن.

وينتقد النشار أمة القول هذه، فالأقوال لا تبنى، والأمم لا تُبنى إلا بالعمل، لا بالكلمات الرنانة، لذا ينبغى أن يكون الحديث مساوقاً للفعل، وأن تكون اللغة واضحة المعنى، بحيث ينتج عن اللغة الصحيحة فعل صحيح، يقول النشار: «إن قيـم المجتمعات المتخلفة قيـم ضبابية يفقد فى ظلها الأفراد الصدق والشـفافية ويستبدلونها بقيم الغموض والكذب واستخدام لغة يغلُب عليها الطابع اللفظى، إذ تجدهم يسـتخدمون الألفاظ الرنانة الفضفاضـة التى تعبر عن معانى ضخمة وقيم تبدو فى ظاهرها عظيمة ولكنها لا تشير فى الواقع إلى مدلالوت محددة! إنها ألفاظ معبرة عن معانى فضفاضة مطاطة ليس تحتها أى واقع»[1].

لقـد اتخذنـا من الخطابة سُـلماً للرقـى، فإذا به سـلماً للنكسـة والتخلف والتأخر، ظننا سـحر الأقوال مطية للتقدم، فإذا به مطية التخلف عن ركب

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص50 - 51.

الأمم، فسبق الباقون، فسبق الباقون ومكثنا فى أماكننا ننظر يُمنة ويُسرى لعلنا نجد طوق نجاة، فلم نجد سوى مزيداً من التأخر، يقول النشار :" لقد عُرف العرب منذ فجر تاريخهم بحب اللغة الأدبية وبتفضيل الخطابة على الأداء ومن ثمّ اهتموا بحب العيش بين الكلمات والدوران حول المعانى الفضفاضة والكلمات الرنانة، تلك المعانى والكلمات التى يصعُب تحويلها إلى واقع، وما ذلك إلا لأنها ببساطة معانى وكلمات لا تشير إلى واقع محدد يمكن التفاعل معه بعد الإشارة إليه!!

وهنا يكمن سر كبير من أسرارا تخلفنا عن الركب الحضارى العالمى المعاصر، إنه المتعلق باستخدامنا للغة غير أدائية وغير قادرة على التفاعل مع الواقع ومن ثمّ فهى أصبحت غير ذات تأثير عليه، وأصبحنا بحق نعيش بين الكلمات ولا نتخذ منها وسيلة للعمل إلا فى أضيق الحدود»[1].

ما المطلوب إذن؟

بكل بساطة، وبدون تفلسف، لا أمل فى غير الموازنة بين اللغة والأداء، فإذا ما أتقنا الأداء، لا مانع بعد ذلك من الإشادة بأمجادنا لغوياً، والتفاخر بتقدمنا وبما أنجزناه فى سُلم الحضارة، أما قبل صناعة تلك النهضة وذاك التقدم، فلا حق لنا أبداً فى التغنى باللغة وتشييد بنيانها على حساب الفعل، خاصة وأننا فى وطننا العربى لا نجيد سوى الكلام، الكلام الذى لا يقدم ولا يؤخر، يقول النشار: «إننا نُقر بأن ما نقرأه وما نقوله وما نسمعه صباح مساء يختلف عما نراه فى واقع الحال من أفعال على أرض الواقع، لقد تربينا على العيش بين الكلمات وأدمنا الكلمات المعسولة الفضفاضة ذات المغزى التفاؤلى المخدر،

(1) المصدر السابق، صـ50 - 51.

أدمنا ان نؤجل المشكلات أو نحلها مؤقتاً عبر الكلمات والخطط النظرية الفضفاضة للإصلاح، وكم كان نزار قبانى صادقاً حين قال: «مقتلنا يكمن فى لساننا - فكم دفعنا غالياً ضريبة الكلام» وكم كان بليغاً حينما عبّر عن حالة الإنفصال بين الأقوال والأفعال: «إذا خسرنا الحرب... لا غرابة، لأننا ندخلها بكل ما يملكه الشرقى من مواهب الخطابة .. بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة، لأننا ندخلها بمنطق الطبلة والربابة»[1].

هذا هو منطقنا، حتى فى ساعة الأزمة، وعند اشتداد الخطوب، ما أكثر ما نقول وأقل ما نعمل .. لا سبيل إلى الخلاص إذن غير إخلاص السبيل والتوجه ناحية العمل، ناحية البناء، بناء المصانع و إنتاج السلاح الذى ندافع به عن أرضنا ومقدساتنا وكرامتنا، لا أن نهلل للأحداث أونصول ونجول شعراً ونثراً، بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة بتوصيف نزار قبانى، يقول النشار بعد الحديث عن استمرار الإنتفاضة فى فلسطين والرفض العربى لإسرائيل فى حديث يُعد أبلغ توصيف لحال أمتنا: «.. لقد هللنا كثيراً وفرحنا، وعبرّنا عن فرحتنا بكلمات، ثم بكلمات ولا أفعال! وهذه آفة آفاتنا فى العصر الحاضر، حينما نحزن نتكلم، وحينما نفرح نتكلم، وحينما نشجُب نتكلم، وحينما نُهنئ نتكلم، إلخ... لقد استبدلنا الفعل بالكلام!! وكأننا صدقنا قول من قال منا أننا (أى العرب) مجرد ظاهرة صوتية!

لقد كان رد فعلنا إزاء هذه الأحداث سواء المؤلمة أو الإيجابية رداً كلامياً لا أكثر! فلم نكن على مستوى الحدث بأى صورة من الصور، وضاع منا إيماننا الواعى بهذه الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة ص55 - 56.

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]، وبمثيلاتها مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2 - 3] إن القول فى الآيتين الكريمتين يرتبط بالفعل، و إذا انفصم هذا الارتباط فقد فقدنا أحد جوانب الإسلام وأحد أركان الإيمان».

ويتم النشار حديثه متسائلاً :" فماذا فعلنا لمسلمى أفغانستان!، لم نساعدهم على امتلاك استقلالهم الفعلى، فتركناهم يتحاربون دون أن نتحرك لرأب الصدع ولم الشمل والتوفيق بينهم، تركناهم دون مساعدة اقتصادية حقيقية تُحول الدمار الذى خلفه الحرب إلى بناء.

وماذا فعلنا لإخواننا فى البوسنة والهرسك الذين ما إن أعلنوا الاستقلال حتى اجتاحتهم جحافل الصرب تشبعهم قتلاً وتشريداً واغتصاباً؟

لقد أصدرنا بيانات الشجب والإدانة وكأن أمرهم كأمر أى حدث عالمى تعودنا إدانته تقليداً واتباعاً فى الوقت الذى كان يجب علينا - لو تحلينا بقليل من الوعى والضمير اليقظ والإحساس بالجسد المسلم الواحد - أن نهُب لنُعلن للعالم أجمع أننا سنقاتل من أجلهم! إن مجرد هذا الإعلان لم يصدر حتى بعد أن عُقد مؤخراً مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية بعد أن كادت تُمحى سراييفو من الوجود، وبعد أن أدان العالم كله تلك الجرائم البشعة التى تُرتكب بحق هؤلاء المسلمين، فكنا نحن آخر من أدان وآخر من تكلم!!

وحينما تكلمنا كان كلامنا ناعماً كالحرير، فلم نهدد بالمشاركة فى الحرب الدائرة هناك نجدة لإخوان لنا فى الدين رغم بُعد الوطن»[1].

(1) د. مصطفى النشار، ضد العولمة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط2،سنة 2001، ص268 - 269.

والسؤال الآن، هل استنكار النشار استنكار يأس أم استنهاض للعزيمة؟

ولعل الإجابة تتضح بين ثنايا الكلمات، فالهموم العربية والإسلامية كثيرة، والواجب علينا استبدال فلسفة تجميل القول بفلسفة اتقان الفعل، لأن الأقوال لن تقدم أو تؤخر، ولو تكلم العرب كلهم من المحيط إلى الخليج فى أزمة مثل الأزمة السورية، لما ساوى كلامهم صاروخاً واحداً يطلقونه على مقر بشار الأسد، ذالكم الطاغية الذى شرّد شعبه وأعطى الفرصة على طبق من ذهب للمتشددين لحمل السلاح، والمقصد الرئيسى هنا أن أدنى إجراء فعلى تقوم به الحكومات العربية والإسلامية أفضل من كلامهم مجتمعين لمدة ألف سنة، فهل نعى هذا الدرس.

ويا ليت الأمر يقتصر على صانعى القرار ومتلقوه، ولكن تلك الآفة تطال النخبة أيضاً، إذ عليهم عبء تغيير تلك الثقافة، ولكنهم للأسف متورطون فيها من النخاع حتى أخمص القدمين، إنهم لا دور لهم، ولا وعى، ولا أدنى تقدير للمسئولية، يقول النشار: «لكن ماذا يفعل المثقفون العرب الآن، إنهم يمارسون «اللافعل» ويستمتعون بذلك، فهم قد اكتفوا فى معظم الأحيان «بالرغى والثرثرة» فى كافة الميادين دون هدف قومى واضح يستهدفونه ويُلحون فى طلبه وتحقيقه! فهم إما من كاتبى الأشعار والروايات، وهؤلاء باستثناءات جد قليلة - يكتبون ما يستغلق على الأفهام، ويعيشون بين الكلمات المستغلقة التى يكتبونها، ولم يُعد التفاعل مع غيرهم يعنيهم فى شىء، فقد اكتفوا بحضور ندوات بعضهم البعض، والكتابة للصحف والمجلات التى تدفع أكثر للحصول على المال الوفير، وتحقيق رغد العيش! وإما أنهم من كُتّاب المقالات والأبحاث، وهؤلاء إن كانوا من المتخصصين

فى السياسة اكتفوا فى الغالب بكتابة مقالات لا تخرج عن كونها «ثرثرة سياسية» كثرثرة الرجل العادى دون تعمق أو دراية، أو هى تحليلات ناقدة يكتبونها دون أن يرسموا أمامنا طريق الخروج من الأزمات السياسية التى يحللونها ودون أن يُبصروننا بالطريق الذى ينبغى أن نسلكه للإفلات من السياسات والمخططات العالمية التى تحاك لنقع فى حبائلها!»[1].

فإذا كان هذا حال ما يُسمى بالنخبة، فكيف يكون حال العامة؟!

إن من يسمون أنفسهم بالنخبة عليهم عبء كبير ومسئولية أكبر لن يستطيعوا الإفلات منها أمام الضمائر الحية فى الدنيا، وأمام الله يوم القيامة، فهم المسئولون عن توعية الشعوب العربية والإسلامية وتبصيرها بالصواب وتحذيرها من الخطأ، لا أن يدوروا فى فلك السلطة وجوداً وعدماً، فأياً كانت السلطة فهم فى ركابها، وأياً كان السلطان فهم من أتباعه، ليملئوا كروشهم على حساب الشعوب، على حساب المصلحة العامة، وعلى حساب توعية حقيقية للشعوب الغافلة لتنهض من رقدتها.

ما الحل إذن؟ وما المخرج؟

ليس من سبيل سوى التفكير العلمى واتباع سبيل الغرب فى تلك المنهجية، حيث التتبع للمشكلات والأخذ بالجوهر لا بالعرض، باللب لا بالقشور، يقول النشار: «إن التفكير العلمى ومهاراته أصبحت من مكتسبات الإنسان الغربى فى كل مجالات حياته، وهذا ما نريده نحن لقومنا، نريد لهم أن يفكروا بهذه الطريقة العلمية الموضوعية الدقيقة فلا يجرون وراء حلو

(1) المصدر نفسه، ص282 - 283.

الكلام ومعسول الألفاظ، وإنما يزنون كل لفظ بميزان الواقع، يزنونه بميزان فائدته فى حل مشكلة، أو تفسير أى شىء غامض، نريدهم أن يخرجوا من إطار اللفظ إلى اطار المعنى الذى يشير إليه، فإن وجدوا أنه يشير إلى معنى يمكن التحقق منه أو رأوه فى الواقع فأهلاً به، وإن لم يجدوا ذلك فلا جدوى من هذا اللفظ ولا جدوى من العبارات التى يتواجد فيها!»[1].

وهذا هو أكبر فارق وأعظمه بين الحضارة العملية التى تلتمس أبواب العلم والمدنية ليرتفع شأنها وبين الحضارة اللفظية التى لا تتعدى مجرد القول، بضعة بيانات، وبضعة كلمات، وبضعة ورقات لا تُغنى ولا تُسمن من جوع.

تلك هى أبرز عوائق صناعة نهضة عربية فى فكر مصطفى النشار، تُرى كيف السبيل إلى الخلاص منها؟ أو بمعنى أدق، إذا كانت تلك هى المعوقات التى تقف حجر عثرة فى وجه صناعة التقدم، فما هى آليات تلك الصناعة؟ وكيف السبيل إلى نهضة عربية حقيقية تنال احترام العالم بأسره، كما سبق وفعلت اليابان، وكما سبق وفعلت الصين، وكما سبق وفعلت النمور الآسيوية؟ فهل نحن أقل منهم فى شىء؟ وهل اليابان التى هى ثلث مساحة مصر وعدد سكانها ضعف عدد سكان مصر، ورغم كافة تلك المعوقات استطاعت أن تصنع نهضة حقيقية، فهل قوة العرب مجتمعة وإمكانياتهم مجتمعة إذا ما توافرت الإرادة وخُلصت النوايا غير قادرة على صناعة النهضة؟ إنه السؤال منقوص الإجابة، هكذا،- وعلى أقل تقدير - شاءوه أن يكون منقوصاً، فكيف السبيل إذن إلى الاكتمال؟!

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص52 - 53.

الفصل الرابع

البداية ثقافياً

ويتضمن:

تمهيد.

أولاً: أهمية الإصلاح الثقافى.

ثانياً: مجالات الإصلاح الثقافى.

ثالثاً: الحرية الفكرية.

رابعاً: فيلسوف الثورة.

«إننا نتطلع إلى إعادة بناء الثقافة حتى تكون العامل الأول فى التنمية إذ لا يمكن مواجهة ثقافة الفقر بفقر الثقافة»[1].

❐❐❐

«ولا أعنى بالتقدم أو بالتخلف هنا، التقدم والتخلف المادى أو الاقتصادى، فليس الاقتصاد هو المعيار الوحيد لقياس التقدم الحضارى أو التخلف الحضارى، فربما يكون أفقر شعب على وجه الأرض أكثر شعوب العالم تحضراً ورقياً فى المبادئ الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى يؤمن بها، وربما يكون هو المعلم الذى ينبغى أن يتعلم منه أكثر شعوب الأرض تقدماً تقيناً واقتصادياً»[2].

❐❐❐

«إننى أعتقد أن الإصلاح الثقافى هو أساس التحديث وذلك الإصلاح الذى ينبغى أن يكون نقطة البداية لأى صورة أخرى من صور الإصلاح والتحديث هو الذى ينبغى أن يعمل الجميع من أجل تحقيقه لأنه يمثل جوهر المنظومة الإصلاحية ككل،

(1) د. حسن حنفى، هموم الفكر والوطن، ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1998م، ص545.

(2) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة، سنة 2005م، ص19.

فبدون اقتناع الجميع بضرورة سيادة قيم العقلانية والعلم فى كل نواحى حياتنا لن يكون الطريق ممهداً أمام أى تحديث، ولذلك وجب على كل أجهزتنا الثقافية والإعلامية والتعليمية أن تركز كل الجهود على نشر ثقافة التقدم»[1].

❐❐❐

«لابد من الربط الجوهرى بين النشاط الفلسفى والحرية، فلا إمكان للفلسفة فى إطار العبودية لسلطة ما أياً كانت، ويترجم هذا على المستوى الشخصانى بما يسمى باستقلال الفيلسوف، فالفيلسوف «الموظف» أو « الأيديولوجى» أو «المرتزق» إن هو إلا فيلسوف زائف، بل هو فى النهاية عدو الفلسفة، وليس استقلال الفيلسوف مؤدياً إلى انفصاله عن المجتمع، بل هو استقلال عن السلطات القائمة فى المجتمع ليكون هو نفسه سلطة جديدة، من نوع أعلى، وربما نجح فى التعبير عن القوى الحقيقية فى الثقافة، تلك التى تتعدى مصالح السيطرة الاقتصادية والسياسية، بقدر ما يمكن ذلك، لتكون هى «الذات العليا» فى مقابل «الأنا» الفاعل فى ثنايا الأحداث اليومية»[2].

❐❐❐

«إننى أدعو شباب الأمة الواحدة، الواحدة رغم أنف

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص80.

(2) د. عزت قرنى، الفلسفة المصرية .. شروط التأسيس، ص27 - 28.

المخططـين لفرقتها، ورغم أنف المنتفعين من تمزقها، أن يقرئوا المشروع الحضارى لفيلسوف الثورة، المفكر مصطفى النشار، بكل أبعاده.... خاصة لأنه مـشروع مترابط ومتزن ومتناغم الأجـزاء، كل مقدمة أخص تنقلك إلى مقدمـة أعم، وبإنتهاء المقدمـات تتولد النتائج، نتائج مـشروع كبير خطط لثورات الربيع العربى منذ مايزيد عن خمسـة عشر سنة، لكنه أرادها ثورات ثقافية تعالج عقيم الموروث، وتقفز فوق جثة التخلف والرجعية عابرة إلى آفاق المستقبل القريب»[1].

❐❐❐

(1) د.محمد ممدوح، فيلسوف الثورة، مقال منشور بجريدة الرؤية الإماراتية.

الفصل الرابع

البداية ثقافياً

تمهيد

لعل آخر سؤال فى الفصل السابق يقتضى إجابة غير عنوان هذا الفصل، هكذا يفكر البعض!! ومع كامل احترامى لحريتهم الفكرية إلا أن البداية حقاً لابد وأن تكون من بوابة الثقافة، لأن معظم أزماتنا التى نمر بها وتعتصر أمتنا عصراً ترجع إلى جذور ثقافية وفكرية، لا يكون الخلاص منها أبداً بغير تغيير النمطية الفكرية والثقافية السائدة بمثل ما يقول حسن حنفى: «إننا نتطلع إلى إعادة بناء الثقافة حتى تكون العامل الأول فى التنمية إذ لا يمكن مواجهة ثقافة الفقر بفقر الثقافة»[1].

وفقر الثقافة هو الإشكالية الكبرى التى نعانى منها فى حياتنا العلمية والعملية، خاصة أننا تربينا على ثقافة الروح لا ثقافة المادة، وهو ما يؤدى إلى الفقر والتأخر والتخلف عن ركب الأمم، وأوروبا أخذت بثقافة المادة وابتعدت كل البعد عن الروح فشيدت مدنية لا مثيل لها، لكنها معرّضة

(1) د. حسن حنفى، هموم الفكر والوطن، ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1998م، ص545.

للإنهيار فى أى لحظة لأنها أعلت من كل ما من شأنه المادية على كافة القيم الإنسانية والروحية، تلك المأساة التى لخصها جارودى بقوله: «ولكن التقنية لا توفر لنا أبداً إلا وسائل، ونحن الآن نواجه خطر الموت من جراء كثرة الوسائل وغياب الغايات»[1].

المأساة بكافة أبعادها ملخصة فى كلمتين، وسائل وغايات، الوسائل على الدوام مادية، ولكن الغايات تجمع بين المادة والروح مع تفوق مشهود للجانب الروحى، والشرق أخذ بالروح، لكن لايمكننا القول أنه قصد الغايات أبداً، لأنه لا غاية بدون وسيلة، بالمثل تماماً لا نتيجة بدون مقدمة، فإذ لم يتخذ من الوسائل ذريعة فالنتيجة الحتمية أنه لا غاية، ومن ثمّ تخلف الشرق وتخلفت الأمة العربية والإسلامية التى شهد لها القرآن قبل بالخيرية المعلقة فظنوها أبدية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: 110] ظنوا هذه الخيرية مطلقة، لا قيد، ولا شرط... ولكنهم ساء ما يحكمون، وساء ما يفهمون، وضل سعيهم فى الدنيا وهم فى الآخرة هم الأخسرون. لم يقف الإسلام مكتوف اليدين أمام الحضارات..

ولم يكف الإسلام عن الدعوة إلى تشييد المدنية والأخذ بالعلم النافع الذى يمنح صاحبه القوة، بل كثيراً ما أشاد بحضارات ومدنيات شيدها الكفار الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد مثلما قال سبحانه عن حضارات عاد وثمود ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: 7 - 10] فهؤلاء شيدوا مدنيات

(1) جارودى، الإسلام، ص121.

كبرى يقف أمامها التاريخ إجلالاً واحتراماً، لم يُنفر الإسلام منها، ولم يكن أبداً داعياً إلى العزلة للعبادة والكف عن الضرب فى الأرض والسعى فيها، بل جاء ناصحاً للمسلمين باتخاذ سُبُل القوة التى ستوفر لهم الكرامة وتضمن لهم الحماية فقال لهم ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

إذن كل دعوى تظن الإسلام حجر عثرة باطلة المعنى والمبنى، فارغة الشكل والمضمون، لأن الإسلام مع المدنية وليس ضدها، مع إعمار الأرض والتماس أسباب القوة وليس أبداً مع العزلة وتكفف الناس، وما أكثر النصوص القرآنية والنبوية التى تسير فى هذا الإتجاه، داعمة قوة المسلمين ومؤيدة لتقدمهم وآخذة بأيديهم إليه.

الإسلام يدعو إلى العمل، وثقافة المسلمين، أقصد المنتسبين إلى هذا الدين العظيم تأبى إلا الكسل، أمة ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ [التوبة: 105] لا تعمل، وأمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ لا تقرأ، وأمة الوحدة والجماعة والاعتصام ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103] متفرقة، إنها النقائض التى يعانى منها واقعنا، النقائض فى كل شىء، فالزيادة السكانية أزمة وليست ثروة، والحرية الفكرية فوضى وليس إبداعاً، وهكذا كل القيم مقلوبة رأساً على عقب.

من أين يبدأ العلاج إذن؟ من تغيير النمطية الثقافية التى نفكر بها، من تجديد النظرة إلى واقعنا، المتاح والمطلوب، وتغيير طريقة التفكير التى نظنها هينة وهى عند الله إثماً عظيمة، هذا ليس كل الحل، ولكنه بداية الحل، ولن يكون هناك حلولاً أبداً بغير البداية ثقافياً لهدم الأصنام الفكرية النمطية المتخلفة التى لم نجن من ورائها سوى التخلف والتأخر والدمار.

أولاً: أهمية الإصلاح الثقافى

إذا كانت لدينا القناعة الشخصية بأن أى إصلاح لواقعنا العربى والإسلامى، وأى سبيل لصناعة النهضة لابد وأن يأتى أولاً من باب الإصلاح الثقافى، فهو البداية قبل أى بداية، لذا فإن الإصلاح الثقافى مرهون بمدى وعى و إرادة الشعوب.

و يُعرف النشار الثقافة بأنها: «الإطار النظرى لمعتقدات الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه وهى كذلك ما يبدو ماثلاً فى سلوكهم الأخلاقى والدينى والاجتماعى والاقتصادى، إذ لا ينفصل النظر عن العمل، بل هما مرآة ينعكس إحداهما على الآخر»[1].

ومن أهم دعائم استمرار الثقافة انفتاحها على الثقافات الأخرى دون تعال أو غرور، وبالتالى تُصبح ثقافة قابلة للتجدد والاستمرار بعكس الثقافة المتعصبة التى ينظر أصحابها إلى أنفسهم على أنهم الأفضل والأعظم والأعلى قدرة وقوة، فإنها تُعد ثقافة جامدة، جاحدة لما أخذته بالتأكيد من عناصر الثقافات الأخرى، ومن ثمّ فهى ثقافة مؤهلة لأن تنتحر ذاتياً، إذ لم توجد بعد الثقافة القادرة على البقاء جامدة بعناصر ثابتة لا تتغير!! فمآل عناصرها الثابتة إلى الجمود والتحجر ومن ثمّ الموت[2].

إن الثقافة بحد تعبير النشار، هى مرآة الحضارة لأى مجتمع من المجتمعات، وهى الدالة على مدى التقدم الذى أحرزه أبناء هذه الحضارة أو مدى التخلف

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص17.
(2) نفس المصدر، ص19.

الذى يعانون منه، فهى دليل وعلاقة إذن، ولكن التقدم المادى أو التقنى ليس هـو كل دلائل الحضارة، لأن للحضارة جانبـاً أخر روحياً وقيمياً، وليس كله مادة، يقول النشـار: «ولا أعـنى بالتقدم أو بالتخلف هنـا، التقدم والتخلف المـادى أو الاقتصـادى، فليـس الاقتصاد هو المعيـار الوحيد لقيـاس التقدم الحضـارى أو التخلف الحضارى، فربما يكون أفقر شـعب على وجه الأرض أكثر شـعوب العالم تحضراً ورقياً فى المبادئ الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى يؤمن بها، وربما يكون هو المعلم الذى ينبغى أن يتعلم منه أكثر شعوب الأرض تقدماً تقيناً واقتصادياً»[1].

وهذا يعنى أن المقياس المادى ليس المقياس الوحيد، بل الحضارة المتكاملة هى التى يسـير فيها الجانبان معاً، المادى والروحـى، أما تلك التى تنغلق على أحداهمـا فمصيرها إما التخلـف، و إما الانهيار، وأن السـبيل إلى تجنب ذلك المصير البدء من تغيير النمطية الثقافية السائدة، يقول النشار: «لكن الحقيقة التـى أراها من منظور اسـلامى حقيقى، يبدأ بالجـذور وليس بإنضاج الثمار قبـل أوانها، هى أن الطريق ينبغى أن يبدأ مـن الإصلاح الثقافى»[2] ثم يزيد الفكـرة وضوحـاً، بـأن الفكر هو أسـاس العمـل، وأن النهضـة والتقدم لن يكونا بغير العمل، ومـن ثمّ فإن الإصلاح الثقافى هو البداية: «إننى أعتقد أن الإصلاح الثقافى هو أسـاس التحديث وذلك الإصلاح الذى ينبغى أن يكون نقطـة البدايـة لأى صورة أخرى مـن صور الإصـلاح والتحديث هو الذى ينبغى أن يعمل الجميع من أجل تحقيقه لأنه يمثل جوهر المنظومة الإصلاحية

(1) المصدر نفسه، ص19.

(2) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة، سنة 2005م، ص9.

ككل، فبدون اقتناع الجميع بضرورة سيادة قيم العقلانية والعلم فى كل نواحى حياتنا لن يكون الطريق ممهداً أمام أى تحديث، ولذلك وجب على كل أجهزتنا الثقافية والإعلامية والتعليمية أن تركز كل الجهود على نشر ثقافة التقدم»[1].

ويُجمل النشار كافة تلك المجالات التى هى فى حاجة إلى الاصلاح الثقافى بقوله: «وبالطبع فإنى لا أمّل من تكرار أن الإصلاح والتحديث ينبغى أن يبدأ من الإصلاح والتحديث الثقافى، لأننى لازلت وسأظل أرى أن تغيير نمط الثقافة المتخلف السائد فى مجتمعنا هو نقطة البداية لأى إصلاح منشود فى كافة المجالات إذ كيف يمكن المناداة بالإصلاح السياسى فى الوقت الذى تسود فيه الثقافة القبلية، وثقافة الشللية والوساطة والمحسوبية والرشوة، وكيف يمكن لهذا الإصلاح السياسى أن يقوم فى ظل انعدام القدرة على القراءة والكتابة لدى أكثر من ثلاثين بالمائة من أفراد المجتمع وفى ظل أمية ثقافية بأبسط المبادئ السياسية لدى كل أجيال المجتمع تقريباً»[2].

إن أبسط حقوق المواطنة الخروج من مأزق ثقافة التخلف واستبدالها بقيم ثقافة التقدم، فخندق التخلف لا يمكن الوقاية منه بغير القضاء عليه[3] وتالياً صناعة نهضة قومية تبدأ من تغيير الجذور الفكرية والثقافية العقيمة شريطة توافر إرادة حقيقية لدى الجميع، إرادة صناعة التقدم وتحقيق الرفاهية، يقول النشار: «إن الناس إن أرادوا وتولدت لديهم دافعية

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص80.
(2) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، ص11
(3) د. المنصف المرزوقى، تخلف العرب، بيان للنشر والتوزيع، تونس، 2009م، ص4.

التقدم وتمسكوا بها وتعلقوا بأهدابها وسلكوا وفقاً لمبادئ التقدم وعناصر ثقافة التقدم نهضوا وحققوا التقدم بالفعل، و إن خملوا وتكاسلوا وتملكهم الإحساس بالإحباط والفشل والخوف نفروا من ثقافة التقدم وأقلعوا عنها وعاشوا على عناصر الثقافة النقيض، ثقافة التخلف والجمود»[1] .

إذن يبدأ العمل حيث يبدأ الفكر الجاد والفعّال، وتولد النهضة من رحم العمل، و يولد العمل من رحم الفكر البنّاء والثقافة غير النمطية، تلك التى تقفز على المستقبل وتسابق الزمن.

لكن يبقى السؤال، هل نستطيع النجاح فى تغيير تلك الثقافة السائدة عندنا والتى لا أجد لها توصيفاً أرقى من ثقافة التخلف، فى ظل العولمة التى أتت بخيلها ورجلها من كل فج عميق، وتأثر بها شبابنا سلبياً؟ ذاك هو السؤال الجدير بالإجابة، و إجابته تقتضى الذهاب فوراً إلى المقارنة التى عقدها النشار بين الشباب الذى لم ينل حظه سوى من سلبيات العولمة وآثارها المدمرة، وشباب فهموا العولمة وأحسنوا توظيفها جيداً لصالحهم، أولئك الذين تحدث عنهم بقوله «... وكثيراً ما يجب أن يلتحق بعد تخرجه من الجامعة سواء كانت خاصة أو حكومية و يفضل أن تكون الجامعة الأمريكية أو الألمانية أو الفرنسية مثلاً، يجب أن يلتحق بوظيفة فى شركة من الشركات الأجنبية متعددة الجنسيات حتى يحصل على راتب شهرى بالدولار يفوق ما يحصل عليه والديه فى كل سنوات خدمتهم الحكومية أياً كانت المهنة التى يعملان بها وأياً كانت سنوات خبرتهم فى هذه الوظيفة الحكومية أو تلك، وقبل كل ذلك و بعده فهو عادة ما يفضل تناول الوجبات الجاهزة

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة ص94

التـى تعدهـا مطاعم بعينها عـلى الطريقة الأمريكية ولا يُـرى إلا وفى يديه «الكانز» و«البريل» والسيجارة المارلبورو أو الكنت... إلخ.

والحقيقـة أن هذه الخصائص للشـباب المعولم إنما هـى خصائص ايجابية لشـاب نجـح فى أن يلتقط الخيط الإيجابى لعصر العولمـة ونجح فى أن يتعامل مع هذا العصر بآلياته ومؤهلاته ومن ثمّ فهو شـاب عصرى ناجح بالمقاييس المعرفية والاقتصادية و إذا ما أضاف إلى تمتعه بالمؤهلات السابقة كونه شخصاً متواضعاً تقياً متحلياً بالفضائل الأخلاقية والدينية التى تمثل العنصر الأهم فى هويتنـا الثقافية القوميـة لكان بكل المقاييس النموذج الأمثل للشـاب الذى نطمح أن يكون عليه كل أبنائنا، فنحن نطمح أن يكون شبابنا شباباً عصرياً يمتلك المعرفة بكل آليات العصر متمسـكاً بتلابيب كل مقوماته الإيجابية من تفكير علمى منظم وقدرات خاصة فى التواصل مع الآخرين ومنافسـتهم فى كل مجالات العمل المختلفة، وفى ذات الوقت يكون شبابنا متمسكاً بكل قيم هويته الأخلاقية والدينية التى تمثل عناصر هويتنا القومية هى التى ستجعله قـادراً على توظيف كل إمكانياته المعرفيـة و إبداعاته العلمية لخدمة مجتمعه وبيئته فى المقام الأول، وسـتجعله بحق ابناً لهـذا المجتمع وقوة دافعة لتقدمه ورفعته»[1].

معنى ذلك أن نمط الثقافة المعولم يملك آليات التأثير على شـبابنا، ويمكننا الإستفادة من إيجابياتها، وذلك باستغلال كمّ المعلومات والتقنية التى توفرها العولمة وتسخيرها وفقاً لمبادئنا وقيمنا السائدة، أما أن تفصلها عن تلك المبادئ وهذه القيم، فهذا هو النموذج الأسـوأ الذى لم ينل حظه سـوى من سلبيات

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص60.

العولمة، يقول النشـار «وفى المقابل ستجد شباباً معولماً من نوع آخر، وهؤلاء الشـباب قد يشتركون مع أقرانهم السـابقين فى المظهر الذى يظهرون به وفى امتلاك ثقافة العصر وآلياته، لكنهم يبرعون فى تحويلها إلى تحقيق أكبر قدر من السـعادة الفردية الزائفة حيث تجد هذا الشـاب يجلس خاملاً بالساعات أمام جهاز الكمبيوتـر يتصفح المواقع الإباحية ويدير المحادثات مع فتيات ساقطات وشباب فاسد منحل أخلاقياً، ويبحث عن كل ما يُقوى لديه القدرة الجسـدية على ممارسـة الرذيلة فيتجه إلى إدمان المخدرات بأنواعها، ويبحث عن التمويل اللازم لممارسـاته اللاأخلاقية تلك بالسـطو على حسـابات غيره مـن البنوك وبطاقات الإئتمان عبر اتقان آليات الهاكرز المعروفة والمتجددة وذلك بعد أن يكون قد جرّب وقام بكل وسائل النصب والسرقة من المحيطين به ومن نظرائه»[1].

هـذان هما نموذجـا العولمة والتأثر بها، لكـن يُرجع النشـار أزمة العولمة الحقيقيـة إلى العلمنـه ونتائجهـا الكارثية التى تجلت عندنـا فى ظهور الإلحاد وعبدة الشـيطان ودعاة الانحلال الأخلاقـى، فهذه هى الآفة الكبرى، يقول النشـار: «إن هذيـن النمطين من أنماط الشـباب المعولم فى عصرنا يشـير إلى أنه من النادر أن تجد ذلك الشـاب الذى يمتلك المهارات التى تؤهله للمنافسة العالميـة فى عصر العولمـة وفى ذات الوقت تجده من الملتزمـين أخلاقياً ودينياً فمـن المقولات الشـائعة لدى الكثير من دعـاة العولمة: «أنه لا سـبيل لفصل علمنـة المجتمـع عن عولمته» وهذه إشـارة إلى أنه لا يهـم فى عصر العولمة أن نتحدث عن قيم أخلاقية ودينية لأن أساس التقدم فى هذا العصر هو امتلاك

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص6

آلياتـه العلمية والتفوق الاقتصادى ويحقـق القيادة من خلالها، وعلى الجانب الآخر فالقليل من شـبابنا هو الذى انجذب ناحية الإنحراف الأخلاقى بفعل ثقافة وآليات عصر العولمة»[1].

إذن، العولمـة نعمـة ونقمة فى ذات الوقـت، يمكننا الاسـتفادة منها ثقافياً بالارتـكاز إلى قواعدنا الأخلاقية والدينية وعاداتنـا الاجتماعية والتربوية، ونقع تحت سـيف إغرائها وماديتها البحتة وحسـها المجـرد إذا فصلنا الوعى عـن الدين، وأصبح اللاوعى الأخلاقى سـائداً، فذاك مكمن الخطورة ميزان الانهيار.

ثانياً: مجالات الإصلاح الثقافى

لعلنا لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن كافة المجالات لدينا فى حاجة إلى تغيير نمط الثقافة السائدة، سواء فى الزراعة أو الصناعة أو العمل أو التعليم أو الإعلام، كل شىء فى حاجة إلى صناعة هذا التغيير.

ففـى ميدان العمل نريد تغيير ثقافـة البطالة وظروف البلد وتلك الثقافة السـلبية التى تلقـى دوماً باللوم على الظروف والآخريـن، لنتحول إلى ثقافة عمل حقيقية، ثقافـة تبحث وتنقب عن كل جديد فى ميدانها، ليصبح العمل لدينا مرادفاً للحياة كما يقول حسـن حنفى: «إن نمطنا الثقافى يتطلب إعادة بنـاء ثقافـة البطالـة لتصبح ثقافـة عمل من أجل خلـق قيم العلـم والإنتاج والسعى والكدح حتى يصبح العمل مرادفاً للحياة»[2].

(1) نفس المصدر، ص61.
(2) د. حسن حنفى، المرجع السابق، ص546.

ويؤكد النشـار على أن التقـدم لن يتم إلا بتغيير ثقافـة الأمة كلها، حتى القائمين فيها من عمال وبسطاء: " يظن البعض خطأ أنه يمكن لأى أمة أن تقوم بتحديث نفسها عبر تحديث الإدارة أو الصناعة أو الزراعة أو التعليم.. إلخ، والحـق فى اعتقـادى أن كل ذلك لن يتم إلا عبر تحديث ثقافة أبناء هذه الأمة أو موازيـاً له، إذ لا جدوى مـن أن تقوم بتحديث تلـك الجوانب «النخبة» وحدها، لأنه من غير الوارد مطلقاً أن نقوم بتحديث الآليات دون أن نُحدّث من سيقومون بتشغيلها وصيانتها فى كل مجال من المجالات»[1].

تغيير تلك النمطية الثقافية السـائدة هو الرهان الأكبر على صناعة نهضة شريطة أن يلتزم التغيير بكافة المجالات، حتى الإعلام، ولكم كان النشار ذا نقدٍ بناء للإعلام المصرى حين تساءل عن جدوى نقل كل المباريات والأفلام والمسلسـلات على حسـاب التربية العقلية والثقافية والروحية للمشاهدين، فلماذا لا يفكر القائمون على الإعلام فى صناعة وعى حقيقى لدى الأمة، وعى يقوم على الجذور الحضارية والفكرية والدينية الراسخة لهذه الأمة ضاربة الجذور تاريخاً وحضارةً: «ألا يفكر المسـئولون عن هذا الجهاز يوماً ما فى أن ينتقلوا على الهواء مباشرة إلى أحد المؤتمرات العلمية أو الندوات أو أن ينقلوا مناقشـة علنية لرسـالة علمية هامة مقدمة لإحدى الجامعات، مما يكون من شأنه ابراز ذلك النشاط العلمى المُضنى الذى يسهر عليه خيرة أبناء مصر من العلماء، كما يعطى القدوة الحسـنة للشباب ويقدم لهم أحد النماذج المشرفة لخدمة بلدهم، ألا يفكرون يوماً فى الانتقال بكاميراتهم إلى المواقع الإنتاجية فى المصانـع والحقول لينقلوا لنـا جانباً من عرق وكد المصرى الحقيقى لنعرف

(1) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم، ص57.

أن فى مصر أبطالاً حقيقيين فى مجالات العمل والإنتاج وليس فقط فى مجالات الكرة والسينما»[1].

أليس هذا مجالاً يستحق التفكير لأجل التغيير، وتكون ثمرته سريعة ومؤثرة ....

ومما زاد الطين بلة أننا فى بعض الأقطار العربية ننظر إلى الزيادة السكانية على أنها أزمة لا ثروة، عقبة للنجاح لا آلية من آلياته، وغذا إعلامنا هذه الفلسفة البغيضة، وأصبحنا نفكر فى التخلص من السكان بدلاً من استثمارهم، وبدلاً من التفكير فى صناعة نهضة حقيقية تقوم على أكتافهم، وهو ما أثار انتقاد النشار بقوله: «أصبحت قضية تحديد النسل من أخطر القضايا التى تواجهها حكومتنا بكل ما تملك من أموال تُنْفق على الدعاية بشتى الوسائل وفى مختلف أجهزة الإعلام.. ومع كل هذه الأموال التى تُنفق، ورغم كل الأجهزة التى تعمل ليل نهار من أجل الحد من زيادة النسل إذ أن كل ذلك يضيع هباءاً، فالنسل يزداد بمعدلاته شبه الثابتة سنوياً رغم اقتناع قلة من أفراد المجتمع بضرورة هذا التحديد، والسؤال الذى يدور فى ذهنى صباح مساء، كلما فكرت فى هذه القضية، لماذا لا توجه هذه الميزانية الضخمة التى ننفقها بلا فائدة على أجهزة تحديد النسل وأبواق دعايتها إلى عمل مشروعات إنتاجية ضخمة فى صحرائنا الشاسعة تستوعب هذه الأعداد الهائلة من العاطلين كما يمكن أن تستوعب أى زيادة محتملة فى نسبتهم على مدار السنين فتصبح هذه الزيادة فى النسل قوة إنتاجية قادرة على تعمير الصحارى وتخضير أراضيها وتصدير منتجاتها الزراعية والصناعية

(1) د. مصطفى النشار، بين قرنين، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 1999م، ص161.

إلى أنحـاء العالم العربي والإفريقى، إن القـوة البشرية يمكن أن تكون - إذا أحسنا استغلالها - هى العامل الحاسم فى تقدمنا اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً لنعـود إلى مكانتنـا الحضارية الرائدة فى منطقتنا وفى العـالم، وكثيراً ما تقفز إلى ذهـنى دائماً حين إثارة هـذه القضية عبارة لجان جاك روسـو أطلقها حين أراد الإجابة على سؤال عن أفضل الحكومات بصورة مطلقة حيث قال: «أنه إذا تسـاوت جميع الظروف تكـون الحكومة التى يتكاثر فى ظلها السـكان ويعمرون البلاد دون وسائل خارجية أو التجسس أو إقامة مستعمرات هى الأفضل بكل تأكيد، والحكومة التى يقل فى ظلها الشعب ويهلك تكون هى الأسوأ»[1].

فهـل يمكننا بحق التوجه نحو تغيير جذرى لهـذه الثقافة الهدامة، ثقافة أزمة الزيادة السـكانية واسـتبدالها بمصطلح «الثروة البشريـة» لنصنع منه تقدماً كذاك الذى حققته الصين، وما أدراك ما نسبة نموها!!

وهل نقفز من تلك الثقافة البالية فى العمل واسـتغلال الوقت الاسـتغلال الأمثل والتوجه نحو كافة قيم البناء.

نعـم، كل ذلك ممكن، وكل ذلك لابـد منه، ومنه البداية، ولكن لن يصلح أى تغيـير للثقافـة السـائدة بدون وجـود حرية فكريـة حقيقيـة ينعم بها الفلاسـفة والمفكرون والنخبة ليكونوا هداة مرشـدين بحـق إلى أمراضنا، وأمناء واقعيين بحق فى وصف الدواء.

(1) د. مصطفى النشار، المصدر السابق، ص67 - 68.

ثالثاً: الحرية الفكرية

لعل وعى الشعوب مدرك تماماً أن الفكر يصنع التقدم، وأن أمة بلا فكر أو بلا مفكرين بمثابة جسد بلا قلب ولا لاروح فيه، والفكر ضد الاستبداد، بمعنى أن الفكر لا يُقيد ولا يُغل، ولا ينبغى بحال من الأحوال أن يقف أى شيء فى وجه حرية الفكر أياً كان هذا الشيء وأياً كانت سلطته، لأن معنى ذلك انهيار الأمة التى يقف فيها الاستبداد من أى نوع ضد حرية الفكر، يقول النشار: «ولا شك أن أمة بلا فكر ولا فلسفة هى أمة بلا عقل، لأن أول أدوار العقل ووظيفته الأساسية هى التفكير، والتفكير لا يكون إلا بشروط أولها الحرية، ولمّا كنا محكومين بالاستبداد فى الداخل والخارج، فالأسلم دائماً هو ألا نفكر، و إذا فكرنا فينبغى - حتى لا نقع فى المحظور - أن نكتفى بالتفكير إما فى تدبير شئوننا العملية أو فى المُفكر فيه وتكراره، والحقيقة أنه كلما استسلمنا لهذا الوضع القائم، كلما ازددنا كمجتمع وكأفراد اتجاهاً نحو الهاوية ونحو الانهيار، وكلما أدركنا أهمية الخروج من هذا الوضع الذى تجمد فيه، وفى التخلص من حالة الإبداع، كلما نجحنا فى تجاوز أزمة الجمود الذى نرزخ فيه، وفى التخلص من حالة الإحباط والانهيار الذى نشعر به.

إن إطلاق حرية التفكير والإبداع يعنى ببساطة الرغبة فى التقدم والأخذ بأسبابه على كافة الأصعدة وفى كل الاتجاهات»[1].

إننا بحق فى حاجة ماسة إلى استقلال الفيلسوف عن السلطة و إحاطته بسياج آمن من الحرية التى تضمن له السلامة وعدم المحاسبة على الأفكار

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة ص63

كي يبدع بحرية، أما إذا أحاط به الاستبداد السياسي والخوف من الإرهاب أو من السلطة أو من أيِ كان فإن إبداعه لن يكون إبداعاً بقدر ما يكون أدائه أشبه بأداء الموظف الحكومي في عالمنا العربي، يقول عزت قرني :" لابد من الربط الجوهري بين النشاط الفلسفي والحرية، فلا إمكان للفلسفة في إطار العبودية لسلطة ما أياً كانت، ويترجم هذا على المستوى الشخصاني بما يسمى باستقلال الفيلسوف، فالفيلسوف «الموظف» أو «الأيديولوجي» أو «المرتزق» إن هو إلا فيلسوف زائف، بل هو في النهاية عدو الفلسفة، وليس استقلال الفيلسوف مؤدياً إلى انفصاله عن المجتمع، بل هو استقلال عن السلطات القائمة في المجتمع ليكون هو نفسه سلطة جديدة، من نوع أعلى، وربما نجح في التعبير عن القوى الحقيقية في الثقافة، تلك التي تتعدى مصالح السيطرة الاقتصادية والسياسية، بقدر ما يمكن ذلك، لتكون هي «الذات العليا» في مقابل «الأنا» الفاعل في ثنايا الأحداث اليومية»[1].

ولم يقتصر الأمر على مجرد الاستبداد للحكام والتبعية للفلاسفة، بل يتحسّر النشار على انقلاب الأوضاع العلمية والفكرية جراء انعدام وعي الساسة، فقد كان الحكام والخلفاء المسلمون يزنون الكتب المترجمة ذهباً أجراً للمترجم، فكيف بالكتب المؤلفة التي كانوا يحتفون بها وبأصحابها أيما احتفاء، يقول النشار: «أما الآن فقد انقلبت الأوضاع رأساً على عقب، وأصبح المفكرون والعلماء في ذيل قائمة اهتمامات رجال السلطة وصفوة المجتمع، وأصبح يُنظر إليهم في أحسن الأحوال على أنهم أولئك المثقفون الذين إما أن يسيروا في ركاب رجال السلطة لتبرير تصرفاتهم وقراراتهم

(1) د. عزت قرني، المرجع السابق، ص28-27.

وكتابة خطبهم، و إما هم الكتّاب المزعجون الذين لا يعجبهم شيء ومن ثمّ وجب مطاردتهم وحبس أفكارهم بعيداً عن أعين الناس بشتى السُبُل المشروعة وغير المشروعة.

لقد أصبح المفكر مطارداً، والعالم مهملاً لدرجة أصبحنا معها نرى مجتمعنا وكأنه إنسان يمشي على رأسه وليس على قدمه، لقد أصبحت القدوة في مجتمعنا للاعب كرة أو لمصارع أو حتى لراقصة أو فنانة»[1] وأصبح هؤلاء هم من يؤخذ برأيهم في كل قضايا المجتمع والحياة، ومن ثمّ أصبحوا هم قادة الرأي والمقربون إلى رجال السلطة والصفوة، والملاحظ أن الصفوة الآن هم رجال الأعمال أو من يُلقبون دون وجه حق بهذا اللقب لأنهم هم الأثرياء وأصحاب الثروات التي أصبحوا معها قادرين على شراء كل شيء وأي شيء[2].

ما الحل إذن؟! استبداد من الحكام، يتبعه تبعية من الفلاسفة؟ هنا يلقى النشار المسئولية كاملة على الفلاسفة أو ما يسميهم بالتنويريين فيقول: «إن ما أتمناه من التنويريين العرب هو أن يتوقفوا عما يكتبونه الآن ليعيشوا لحظة صدق مع النفس وليتأملوا معي هذه التساؤلات: هل يحق لمفكر عربي أن يكون أداة لنشر بضاعة غربية ثبت فسادها وفشلها؟! هل يحق لمفكر عربي أن يكرس التبعية وهل يجوز لمفكر عربي مخلص - وتحت تأثير بعض ظواهر الإنحراف الفكري أو الفهم الخاطئ لبعض شباب المسلمين - أن

(1) لا يقصد النشار هنا توجيه إهانة لأصحاب هذه المهن على الإطلاق ولكنه فقط يقصد تعديل مسار القدوة لتصبح للعلماء والمفكرين حتى يمكننا تربية جيل قادر على تحمل المسئولية.

(2) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص61.

يكون أداة تشارك فى الحملة على الإسلام وعلى كافة المسلمين ونحن فى عصر اشتدت فيه هذه الحملة ولم يُعد أمام الغرب من عدو يحاربونه سوى الإسلام والمسلمين؟!

وأخيراً، هل يجدر بمفكر عربى مخلص أن يكتب ويردد أفكاراً غريبة عن الإسلام دون أن يضطلع هو بدور مستقل فى دراسته دراسة متأنية واعية وبيان جوهره الحقيقى كدين يدعو للعقل وللعلم وللحرية، كدين يكرم إنسانية الإنسان ويُقدس حرماته ويرعى حرياته؟!

إن التنوير الحقيقى الذى ينبغى أن نتبناه وندعو إليه هذه الأيام هو التنوير المستند على بيان الإسلام فى وجهه وصورته الحقيقية أمام دعاة تشويهه وتشويه من يؤمنون به»[1].

إن تغيير النمطية الثقافية هو الحل للخروج من كافة هذه الأزمات، أى بداية بعيداً عن الثقافة ستكون أخطأت التوجه، لذا نجد امتلاء تراث مصطفى النشار ومؤلفاته بالتركيز على الثورة الثقافية لا الثورة السياسية، لأن العلاج لا يبدأ سياسياً أبداً بقدر ما يبدأ ثقافياً، وإن كانت البداية ثقافياً تتطلب توافر إرادة سياسية، ولكن يبقى الرهان الأكبر على صنع أى حضارة أو البدء الفعلى فى صناعة نهضة عربية مرهون بمدى الوعى الثقافى والفكرى وتجديد روافد الفكر ومنابعه وذم التقليد الأعمى والتقيد بالموروث، وإطلاق العقل نحو التجديد والإبداع، ذاك فقط هو ما يريده فيلسوف الثورة، وذاك فقط مناط البداية الصحيحة إذا شئنا تصحيح المسار.

(1) د. مصطفى النشار، ضد العولمة، ص93 - 94.

رابعاً: فيلسوف الثورة[1]

الفلسفة نعمة أم نقمة، عبء على الإنسانية أم هى رشدها الرشيد وعقلها الواعى، هى ضلال للبشرية أم هداية لعقلها الحائر وقلبها الثائر، هى أى النقيضين؟ وأى المنهجين؟

والإجابة أبسط ما يكون، يكفيها مثال واحد، لو أن البشرية فقدت عقلها فكيف تكون حياتها؟ هكذا الفلسفة بالنسبة لبنى العقل، بها يأكلون، وبها يشربون، وبها يعملون، وبها ينهضون، وبها يسعدون، وبدونها يموتون!!..

إختصاراً وإجمالاً، وبعيداً ن كلمات العاشقين للفلسفة، يمكننا القول بأنها منهج حياة، منهج لايعتريه الشك، ولا يلج بباب الجهل، ولا يغزوه الضلال أبداً، إنها سر التفضيل، ومناط التكريم لمخلوق أصبح بها سيداً على هذا الكون، فاستطاع السيطرة على ظواهره المخيفة، وطوّع الطبيعة لخدمته، وانتصر بعقله على كل معاول الهدم وكل آليات الإنهيار.....

من هنا شقت الفلسفة وجودها فى حياة الناس ومعاشهم، بل وفى آخرتهم ومعادهم، منذ فجر التاريخ والعقل البشرى ينتج ويقترح ويُقوم ويُعدل، منذ أول نداء فى تاريخ الضمير الإنسانى بعالم واحد ينعم فيه الجميع بالأمن والسلام على لسان الملك المصرى إخناتون، ثم إستمرار ذاك التعديل

(1) هذا المقال نشر بجريدة الرؤية الإماراتية بتاريخ 15أغسطس 2015 وتم اختياره من قبل المجلس الوطنى للصحافة ضمن أفضل عشرة مقالات فكرية فى الإمارات لعام 2015 ورشح لنيل جائزة الإبداع الصحفى.

والتقويم فى عصر النهضة حتى علا الغرب على الشرق، فما استيقظ الشرق إلا على قسوة الصفع على وجهه والركل بالأقدام من ذاك الغرب الذى استأسد عليه بالصنمية المادية التى ستزول حتماً من سجلات التاريخ إن عاجلاً و إن آجلاً....

ثم تجلت إرادة الحكيم العليم ببعث نهضة فكرية عربية على أيدى أحفاد الخليل إبراهيم، نهضة خالصة البناء صادقة الإرادة مخلصة العزم متيقنة من النصر، كان أولى دعائم هذه النهضة التخلص من التقليد الأعمى والتبعية الصنمية للغرب، والإستناد إلى جذور الحضارة الإسلامية، التى وُلدت الحضارة الغربية من رحمها، فما الغرب وحضارته سوى قبس من نور الحضارة الإسلامية، ولكن ليس لنا الحق فى الإحتفاء بما شيده الأجداد مالم نحذو حذوهم ونطور صنيعهم...

كانت تلك الأفكار بمثابه الإحساس الجديد الدافئ لدى شباب الفكر العربى، الشباب الذين تربوا على الحلم الأفلاطونى فى واقع مأساوى، فكانت تلك الصدمة لديه فى إنفصال الفكر عن الواقع، وتنافى القول مع العمل، فأصبحوا حيارى الفكر والرأى، وغدوا لا حرث لهم فى ظل واقع ليس فيه من جديد كل يوم سوى أزمات جديدة، ومشكلات وليدة، وأفهام عاجزة كل العجز عن تقديم الحلول و إقتراح البدائل....

ولكن الأمة لن تموت أبداً، فالله قادر على إحياء نهضتها، وقادر على بعث رفاتها بأيدى أبنائها لاسواهم، وبسواعدهم وحدهم لاغيرهم، ليأتى المفكر المصرى مصطفى النشار معلناً ثورة جديدة، ثورة لم يعهدها القوم قديماً، ولو سُئلوها لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً...

إنها ثورة العقل العربى المتسامح، الذى لا يريد الثأر بقدر مايريد إعادة البناء، لا يريد الرئاسة والزعامة الباطلة بقدر مايريد القيادة العادلة، لا يريد الأنانية والعنجهية ومفردات الثورة الصناعية الكئيبة بقدر مايريد التسامح مع الآخروالعفو عن الجميع، ومشاركة بنى البشر فى بناء حضارة إنسانية واعية يكون مقصودها الأول والأخير هو الإنسان...

كان ذالكم البناء الذى شيده النشار يُعرف بمفهوم «الثورة الثقافية»، أو بالإصطلاح «الثورة المعرفية والتكنولوجية» أو بالعرف «ثورة المعلومات» أو بما درج عليه العامة «حكم العلم وسيادة العلماء»، فكلها تصب فى النهاية فى إتجاه واحد، إعادة بناء الجسد على أسس من الروح، أو إعادة بناء الواقع على نور من العقل، ذاك هو مفهوم الثورة الثقافية.....

الذى يدعو إلى العجب أن هذه الثورة بمشتملاتها وهمومها وأوجاعها قد شغلت هذا المفكر العملاق منذ بدايات الألفية الثالثة، حيث خرجت كل كتبه هادفةً إعادة البناء والترميم للعزائم التى وهنت، والعقول التى ضعُفت، والهمم التى فترت، فكانت كتب «ضد العولمة» و«ما بعد العولمة» و«بين قرنين»، بمثابة ميلاد فجر جديد فى الربيع العربى الذى لم يألفه العرب من قبل لا فلسفةً ولا واقعاً، لتؤسس هذه الكتب للثورة الثقافية التى هى بداية الحل، بل هى كل الحل، وليست البداية أبداً من الثورة السياسية...

السؤال ينتقل بالضرورة من توافر إرادة البناء إلى آلية ذاك البناء، إذ يصبح السؤال كيف نصنع ثقافة التنمية ونعبر فوق جثة ثقافة التخلف؟ والإجابة على هذا السؤال قد استغرقت وقتاً طويلاً ومداداً جزيلاً مابين توضيح للعلل وبيان للماهيات ورسماً لخارطة الطريق، منذ كتاب «بين قرنين» وما تلاه من

كتب تسير فى إطار الثورة الثقافية و إعادة الثقة إلى الذات لإعادة بنائها مرة أخرى، ووصولاً إلى إكتمال المشروع النهضوى فى كتابه الأشهر والأبرز على الساحة العربية «الأورجانون العربى للمستقبل» ثم إلقاء بعض اللمحات الفكرية المتممة للمشروع القومى فى كتاب «من الثورة إلى النهضة».

إنها مسيرة عطاء لفيلسوف الثورة، ذاك الرجل الذى رسم مستقبلاً عربياً للأمة القوية، والأمة الواحدة، الأمة التى تستند إلى ثوابت التراث مستدعيةً عزيمة التجديد ومعتزمة تجديد العزيمة، ليخرج مشروع البناء الثورى فى ثياب القومية مخلفاً ورائه كل عنجهيات الإقليمية التى شرذمت الوطن الكبير، لننتقل إلى مرحلة فكرية واقعية جديدة، من الإقليمية إلى القومية، من الواحدية إلى الوحدوية، ومن الذات إلى البنذاتية...

إننى أدعو شباب الأمة الواحدة، الواحدة رغم أنف المخططين لفرقتها، ورغم أنف المنتفعين من تمزقها، أن يقرئوا المشروع الحضارى لفيلسوف الثورة، المفكر مصطفى النشار، بكل أبعاده.... خاصة لأنه مشروع مترابط ومتزن ومتناغم الأجزاء، كل مقدمة أخص تنقلك إلى مقدمة أعم، وبإنتهاء المقدمات تتولد النتائج، نتائج مشروع كبير خطط لثورات الربيع العربى منذ مايزيد عن خمسة عشر سنة، لكنه أرادها ثورات ثقافية تعالج عقيم الموروث، وتقفز فوق جثة التخلف والرجعية عابرة إلى آفاق المستقبل القريب...

وكما دعوت الشباب أدعو القادة والساسة صناع القرار لتكريم العلماء والفلاسفة المخلصين، والذين يؤرقهم واقع أمتهم التى تربوا منذ طفولتهم على أنها خير أمة أخرجت للناس، ففوجئوا بأنها أذل أمة وليس خير أمة

وزالت تلك الخيرية تحت وطأة الغرب تارة، والركون إلى الموروث أخرى، وماتت الفلسفة فى ضمائر الفلاسفة إلى حين هذا البعث الجديد.....

إن المفكر المصرى مصطفى النشار بمشروعه الحضارى للأمة العربية، يستحق بجدارة لقب «فيلسوف الثورة» لا لأن فلسفته خرجت معبرة عن واقع مؤلم، ولا لأنه وضع مشروعاً لنهضة الأمة العربية متكامل الأركان، ولكن لأنه أسس لنوع جديد من الثورات، وبدأ التأسيس له قبل الربيع العربى الذى إنقلب خريفاً ليس من ورائه سوى الرياح والأعاصير، وتنبأ بهذا الربيع العربى وتحقق، وبقيت نبؤته بإنهيار الغرب وصعود الشرق، وهى لتى ننتظرها الآن، ليقفز هذا المشروع الحضارى فوق جثة التخلف الراكدة، وليرتبط على الدوام اسم النشار بالثورة، ليصبح هو مبدعها دون قيادة، وقائدها بهذا الإبداع، وليصبح الفجر الجديد لأمتنا العربية فجر عز وفخار وعدل ورحمة، وفجر ذلة وصغار على كل معتد اثيم، تاجر بهموم البشرية، وتلاعب بمبادئ الإنسانية، فإذا به يكيل بمائة ألف مكيال، و إذا بالحق يلعنه حيثما كان، لعنات الثائرين الغاضبين، التى تريد قوة تدفعها، تلك القوة التى رسخ لها المشروع الحضارى لفيلسوف الثورة، الذى أرى معه الأمل كله لأمتنا المكلومة، و يسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريباً وكان ربك قديراً....

يبقى التساؤل قائماً، إذا كان ثمة ضرورة ملحة للبداية ثقافياً لصناعة نهضة قومية عربية إسلامية، فما الآليات العملية التى يمكنها صناعة تلك النهضة وأنّى السبيل إليها؟

الفصل الخامس

آليات صناعة النهضة عملياً

ويتضمن:

تمهيد.

أولاً: تحديث النظام التعليمى.

1- تطوير منظومة التعليم ككل.

2- عقبات فى طريق التطوير.

3- مواد التعليم الرئيسية.

ثانياً: تجديد الخطاب الدينى.

ثالثاً: التسامح.

رابعاً: دور الشباب.

خامساً: الوحدة القومية.

أ- تكتل اقتصادى قومى.

ب- إنتاج تكنولوجيا عربية.

ج- شكل الوحدة المنتظر.

د- نداء إلى عقلاء العرب حكاماً ومحكومين...

هل آن أوان إنشاء اتحاد الدول العربية.

«إن جـرأة التطوير مطلوبة فى تطوير النظم التعليمية طالما نجحنـا فـى تحديـد الأهـداف المطلـوب تحقيقهـا، وجرأة التطويـر ينبغـى أن تبدأ بعد أن تتوافر الشـروط الأساسـية المطلوبة لذلك من مبنى مدرسـى مُعد حسب هذه الأهداف، ومـن مدرس أو معلم جامعى قادر على تحقيق هذه الأهداف ومن مقررات دراسية مرنة ومتطورة وقابلة للتعديل والتطوير المسـتمر، ومن نظم للإستحسـان والتقييم لا تقف عائقاً أمام نبـوغ النابغين وتقتـل فيهم ملكة الإبداع، بل تشـجعهم على المزيد منه وتكشـف مبكراً عـن هؤلاء النابغيـن ومجالات نبوغهم وتعرف كيف توظفه وتستفيد منه»[1].

❐❐❐

«يقول أحد الوزراء اليابانيين ما نصه: « إن التعليم الأساسـى للجميـع نقلنا من دولة من المرتبـة الثالثة إلى دولة من المرتبة الثانيـة، أما التعليم الفنى الجيـد فقد نقلنا من دولة من المرتبة الثانية إلى دولة من المرتبة الأولى»[2].

❐❐❐

«فـلا قداسـة إلا للنص الدينى، ومـا عدا ذلك قابل للمناقشـة

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص121..
(2) نقلًا عن د. ابراهيم شحاته، وصيتى لبلادى ص213.

والحوار، قابل لأن نأخذ به وفق مقتضيات عصرنا وقابل لأن نتجاوز عنه وننحيه جانباً باعتباره معوقاً للتقدم أو يمثل عبئاً ضبابياً يعوق الرؤية ويمنع الانطلاق»[1].

□□□

«ليس من اليسير قراءة الواقع المعاش فى مصر، الذى يمكن وصفه بالعبثية، فالخطابات مشوشة، والرؤى مشوهة، والمنابر مسيسة، والفكر الدينى احتكره المتعالمون وأضحت لغة الخطاب النقدى مصاولات بين عصبة المكفرين وجماعة المجترئين وجمهور المغيبين، وعلى مقربة من ذلك نجد الخطاب الفقهى يلوح بسيف النهى عن المنكر الذى ارتأه متناسياً تماماً الأمر بالمعروف، أما الخطاب الصوفى فتسربل بعباءة الإرجاء حتى لا تُهدم زواياه وتُخرّب أضرحته، وإذا ما انتقلنا إلى خطاب الإصلاحيين والمجددين فسوف نجد صرير أقلامه استحال إلى أنين الصامتين المسنحبين»[2].

□□□

« إن الحقيقة التى ينبغى أن يدركها الجميع حكاماً ومحكومين رجالاً ونساءاً، أن الشباب فى أى أمة هم وقود نهضتها وعدتها لمستقبلها الأفضل ومن ثمّ فإن التنبؤ بمستقبل أمة يكون من خلال النظر فى إمكانيات شبابها العقلية والبدنية ومدى

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص133.

(2) د. عصمت نصار، وجهان لعملة زائفة، ص143.

استعدادهم لأن يكونوا قوة دافعة بناءة تستطيع الإضافة والإبداع بلا تقليد أو اتباع»[1].

❐❐❐

«والحق أن الدين الإسلامى برئ من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون وبرئ من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة وقوة، والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية، كلا ولا القضاء، ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها فهو لم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا، لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة»[2].

❐❐❐

«والمعوقات معروفة ولا تخفى على أحد، فهى صراع المصالح بين هذه البلاد، وصراع الساسة والحرص على التقوقع خوفاً من الآخر العربى! والخوف فى النهاية على الملكيات والثروات من أن تذوب لصالح العرب جميعاً وليس لصالح أصحابها وتحقيق مصالحهم الذاتية دون مصالح شعوبهم ومصلحة الرخاء العربى ككل، إن افتقاد الزعامات العربية إلى الإخلاص العربى فى العمل الوحدوى سواء كان اقتصادياً أو سياسياً أو خلافه هو

(1) د. مصطفى النشار، بين قرنين، ص65.

(2) على عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993م، ص7.

مربط الفرس، وهو المعوق الأساسى لأننى أعتقد أن الشعوب العربية متحابة ومدركة تماماً أن مصلحتها فى التكتل والاتحاد وليس فى الفرقة والقطيعة»[1].

□□□

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص149.

الفصل الخامس

آليات صناعة النهضة عملياً

تمهيد

لا أمّل على الدوام من تكرار اعتماد العالم على قانون الأقوى لا قوة القانون، فأمريكا اليوم هى من تسن القوانين الدولية، وهى من تتحكم فى تنفيذها، وليس هذا وليد اليوم، بل يرجع إلى جذور ما قبل الميلاد عند جدهم الأكبر ثراسيماخوس الذى دشن حملة «قانون الأقوى» وتفاعل معها قطاع كبير من الأوروبين آنذاك، وتعاقبت الفكرة عبر الأجيال حتى عاشها جيلنا وعانى من آثارها وويلاتها وتمييزاتها وخروقاتها لكل مبادئ القوانين الشرعية والعقلية والعرفية، ويكفى كدليل على تلك الخروقات أن أمريكا جعلت من نفسها إلهاً ينصب الموازين لحساب البشر على أتفه الأسباب، فكم حاربت باسم «امتلاك سلاح نووى» وكم حاربت باسم «فرض الديموقراطية والعدالة» ثم فى انقلاب صارخ لكافة المعايير والقيم الدولية تغض الطرق عما تفعله اسرائيل تجاه شعبنا العربى، بل وتقدم كل الدعم لها بحجج واهية لا يقبلها عقل أو يقرها عاقل، اللهم إلا أولئك المرتزقة الذين يسبحون بحمد أمريكا، والذين وطنوا أنفسهم على الركوع والسجود لها، فهؤلاء ليس عليهم أكثر من

التصفيـق والتهليل، أخطئت أمريـكا أم أصابت، دورهم كالكومبارس على خشبة المسرح، أكثر الناس وقوفاً وأقلهم دوراً وقيمة.

بـل إن قانـون الأقوى هذا يطبـق داخل أمريـكا والـدول الغربية على الأقليات، فكم من أقليات مسلمة داخل تلك الأقطار تعانى من نير الاضطهاد والاسـتعباد، وكم مـن أقليات عرقية تعـانى من ذات الـكأس المرير، بل إن أمريـكا، داعية الديموقراطية المزيفة والعدالة العرجاء، قد أبادت سـكانها الأصليين من الهنود الحُمر، وسـجّل عليهم التاريخ وحشـية معاملتهم للسود والعبيـد، وأمريكا هذه لم تتحرر مـن تلك النزعات العنصرية إلا فى الثلث الأخير من القرن الماضى رغماً عن أنوفهم، بعدما انتزع السـود الاعتراف بهم وبحريتهم وإنسانيتهم.

إذن هـى الموازين المغلوطة، المقلوبة حتى على أصحابها، الكيل بمكيالين هو السـمة العامة لأمثال هؤلاء العنصريون، يقول المؤرخ الأمريكى مايكل بارنتـى: «إن حكومتنا تمثل فى غالب الأحيان «القلة» ذات الامتيازات وليس عامة الناس، وأن الانتخابات ونشـاطات الأحزاب السياسـية هى اجراءات غـير كافية لمواجهة نفوذ ثراء الشركات العملاقة، وأن قوانين دولتنا وضعت بصفة رئيسية لدعم مصالح من يملكون على حساب البقية الباقية منا، بل إنه حتى حين تُسـن تلك القوانين بحيث تؤمن المساواة فإنها تنفذ عادة بأساليب تتسم بالتمييز الشديد ..»[1].

الإيمـان بهذه القاعـدة «قانون الأقـوى» ضرورة ملحة لفهـم الأحداث

(1) مايكل بارنى، ديموقراطية القلة، ترجمة حصة المنيف، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص16 - 17.

العالمية، وأشد إلحاحاً لصناعة نهضة عربية حقيقية تنبعث من إرادة أحرار الوطن العربي الكبير ليكون وطننا قوة فاعلة على الساحة الدولية، قوة لها وزنها، ولها احترامها، ولها سيادتها وسط الأقوياء.

أما آليات تلك النهضة فليست بعسيرة، وليست بعزيزة، إنها تتمثل عند مصطفى النشار في مقومات فقط ينقصها الإرادة، حيث ضرورة تحديث النظام التعليمي ليصبح ذا هدفين رئيسيين الأول تنمية القومية والمواطنة في نفوس أبنائنا، والثاني مواكبة التطور العلمي السائد عالمياً، ثم ضرورة تجديد الخطاب الديني للخلاص من أزمات المتشددين والمنغلقين على السواء، ثم سيادة التسامح بين الطوائف المختلفة فكرياً مع الاعتماد على الشباب في تنفيذ كافة هذه المراحل التي هي بمثابة «ثورة إعادة البناء» أو «ثورة التصحيح» حتى الوصول إلى قمة الرجاء بتحقيق وحدة عربية تكون قادرة على تحقيق تلك النهضة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً، ليتجدد لدينا الأمل في صناعة وحدة من جديد حيث شاء القدر أن يرتبط هذا الأمل بشخص جمال عبد الناصر، فانبعث بظهوره وخبى بوفاته في الثامن والعشرين من سبتمبر العام 1970م، وكان ينبغي ألا ينطفئ ذلك الأمل لو أن مؤسسات الحكم التي بُنيت في عهده كانت على أسس فكرية وتنظيمية متينة، وفي أيدي قيادات متماسكة واعية، تملك عناصر المبادرة والقدرة على الاستمرار بالمسيرة وحماية المنجزات ومنع أي فرد من العبث بها.

على أية حال، تتوقف صناعة نهضة عربية الآن على عاملين رئيسيين، الأول توافر الإرادة والعزيمة على كافة المستويات، على مستوى الساسة، وعلى مستوى الشعوب، والثاني مدى وعي الشعب العربي بأقطاره المختلفة

بـأن القضية وطـن، قضية قومية لا قضية عرق، ولا قضيـة عقيدة، والتاريخ يشـهد بأن معـارك التحرر والدفاع عن الوطـن فى التاريخ تمت تحت رايات الوطنيـة لا العقيـدة، باسـم الوطن ودفاعـاً عنه، وليس أدل عـلى ذلك من أن الاتحاد السوفيتى حارب الغزو الألمانى فى الحرب العالمية الثانية باسم الوطنية وليس بالعقيدة الشـيوعية، وأن مـصر انتصرت على اسرائيل فى حرب العاشر من رمضان باسـم الوطنية لا باسـم العقيدة الإسـلامية، وأن الجنود الأقباط شاركوا فى تلك المعركة شأنهم شأن المسلمين سواء بسواء.

إذن، النهضـة العربية ممكنة، بل أكاد أُجزم بأنها باتت وشـيكة، وآلياتها متوفـرة عربياً، بقيت فقط خطوة واحـدة نخطوها، بمجرد أخذ تلك الخطوة سيقف العالم كله احتراماً لتلك الأمة التى هى على الدوام تجدد منابع فكرها وعزيمتها و إرادتها بأيدى أبنائها.

أولاً: تحديث النظام التعليمى

يوقـن المخلصون مـن أبناء أمتنا العربية بأن التعليـم يمر بأزمة كبرى، أزمة تشمل المنظومة ككل، هذه الأزمة هى أكبر عوائق النهضة، وهو أيضاً بداية صناعة النهضة، لذا يركز النشـار عـلى قضية التعليم فى وطننا العربى عبر ثلاثة محاور رئيسـة، يتمثل الأول فى ضرورة تطويـر منظومة التعليم ككل، و يتمثل الثـانى فى عقبات فى طريق التطوير، و يتمثـل الثالث فى ضرورة تدريس مواد بعينها لتطوير منظومة التعليم، وهذا إجمال يتبعه تفصيل فيما يلى:

1 - تطوير منظومة التعليم ككل:

يؤكد النشار على أن تطوير التعليم لا يقف على جانب واحد فقط مثلما

قال ابراهيم شحاته فى نصه الشهير عن التعليم المصرى: «لا يعود المشكل إذن لنقص لدى المسئولين فى فهم ما يعيب التعليم المصرى، فمشكلات هذا التعليم مدروسة بالتفصيل لدى هؤلاء المسئولين، بل ومعروفة للمواطن العادى، ولا يعود المشكل إلى سوء تقدير لما للتعليم من أهمية، فقد أعطاه رئيس الدولة اهتماماً ملحوظاً وأولوية كبرى، وخصصت له الدولة نسبة معقولة من الميزانية العامة مؤخراً.. إذن أين المشكل؟

يعود فى تقديرى - والكلام لإبراهيم شحاته - إلى السياسات المتبعة والأجهزة المسئولة مضافاً إلى ذلك تأخر التنفيذ إلى أن يستفحل الأمر، وما أن يبدأ التنفيذ حتى تتكانف عوامل التخريب لتعطيل الإصلاح أو تغيير مساره أو وقفه تماماً»[1].

هى الإرادة السياسية إذن المتحكم الرئيس فى إصلاح التعليم، قد يكون هذا الرأى صواباً من ناحية، يحتمل الخطأ من نواح أخرى مثل غياب الإرادة الاجتماعية التى تصنع القرار السياسى، أو ضعف الوعى لدى الجماهير، أو ضعف المنتج التعليمى فيما يسميه النشار بـ «أمية المتعلم العربى» بقوله: «وعلى كل من يخطط لتطوير التعليم فى وطننا العربى أن يدرك أن التطور ينبغى أن يركز على «محو أمية المتعلم العربى» بأن يركز فى تطويره على إضافة «البُعد الفكرى والثقافى بمعناها الشامل»، وهو البعد الذى كاد يغيب فى سياساتنا التعليمية المعاصرة!!»[2].

(1) د. إبراهيم شحاته، وصيتى لبلادى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001م، ص117.

(2) د. مصطفى النشار، بين قرنين، ص80.

المشـكلة إذن أكبر من الظن، ولكنها ليست أكبر من الوعى، لأننا وصلنا إلى الوعـى بأننا أمة فى خطر: «ونسـتطيع بكل بسـاطة أن نؤكـد على أننا فى العالم العربى يصدق علينا أكثر ما يصدق على أى أمة أخرى فى مجال التعليم «أمة فى خطر»، ويكفى أن أشـير إلى أن مصر وهى أكبر دولة عربية وأولها إدخـالاً للتعليم الحديث إلى مدارسـها وجامعاتها قد شـغلت المركز الخامس والسـتين من بين (128) بلداً فى العالم فى الرقم القياسى للقدرة التنافسـية عام 2007م وحصلـت عـلى 4.1 درجات من 27، كما شـغلت المركـز الرابع بين البلـدان الثمانية والأربعين التى تمـر بنفس المرحلة الإنمائيـة، واعتبرت قوة العمـل غير المتعلمة التعليم الكافى أخطر مشـكلة لديهـا، كما اعتبر التعليم العـالى والتدريب والاسـتعداد التكنولوجـى والابتكار عوائق تنافسـية فى مصر، كما تضمنت أوجه القصور وقلة القدرة على البحث والتنمية وضعف التعاون بين الجامعات وقطاع الصناعة»[1].

نحـن فى خطر حقيقى جراء تخلف المنظومـة التعليمية فى وطننا العربى، وليس أبلغ من توصيف النشـار لها بوصفين، «أمـة فى خطر» و«أمية المتعلم العربى» تلك هى قمة المأساة وعظمة الإرادة، قمة المأساة فى انهيار نظام التعليم الـذى هو مناط صناعـة النهضة، وعظمة الإرداة فى صناعـة التغيير وتعديل تلـك المنظومة بأسرها وامتلاك الجرأة فى تطوير التعليم: «إن جرأة التطوير مطلوبـة فى تطوير النظم التعليمية طالما نجحنا فى تحديد الأهداف المطلوب تحقيقهـا، وجرأة التطويـر ينبغى أن تبدأ بعد أن تتوافر الشروط الأساسـية المطلوبـة لذلـك من مبنى مدرسى مُعد حسـب هذه الأهـداف، ومن مدرس

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص196.

أو معلم جامعي قادر على تحقيق هذه الأهداف ومن مقررات دراسية مرنة ومتطورة وقابلة للتعديل والتطوير المستمر، ومن نظم للإستحسان والتقييم لا تقف عائقاً أمام نبوغ النابغين وتقتل فيهم ملكة الإبداع، بل تشجعهم على المزيد منه وتكشف مبكراً عن هؤلاء النابغين ومجالات نبوغهم وتعرف كيف توظفه وتستفيد منه»[1].

هذه هي الجوانب المختلفة للعملية التعليمية، وكلها داخلة في منظومة التطوير المطلوبة، بما يعني أن جميع أركان المنظومة التعليمية متهاوية الأركان، خاصة إذا أضفنا إليها تلك الحتمية المفروضة على أبنائنا في المناهج التعليمية وكأنها حتمية طبيعية، إذ أن الفرد في المجتمعات المتقدمة هو الذي يختار بمحض إرادته ما يتخصص فيه من دراسات دون أي عوائق أو عراقيل تحد من هذا الاختيار فهو حر تماماً في أن يختار نمط الدراسة العلمية التي تتفق وميوله وهواياته ومهاراته فإن رغب في دراسة الطب فله ذلك، و إن رغب في دراسة الهندسة والإلكترونيات فهو وما يشاء، و إن رغب في تغيير نمط دراسته بعد الفشل فيها أو اكتشف أنها لا توافق ميوله وأهدافه فله ما يشاء أيضاً، و إن لم يرغب في دراسة أي شيء من هذه التخصصات المعروفة فله ذلك أيضاً، إذ بإمكانه أن يكتفي بامتلاك مهارة القراءة والكتابة ومبادئ الرياضيات، و يسلك طريقه في الحياة العامة وفق ما يجيده وحسبما يشاء[2].

ثمة معضلات كبرى إذن و إشكالات عظمى في نظمنا التعليمية تقتضي تطويراً مواكباً للتطورات العلمية العالمية، تشمل جميع المجالات، معلم

(1) د. مصطفى النشار، في فلسفة الثقافة، ص121.
(2) د. مصطفى النشار، المصدر السابق، ص90.

ومنهج وبيئة تعليمية، يقول النشـار: «إن تطوير نظامنا التعليمى فى اعتقادى ينبغى أن يبدأ من تطوير أهدافه وتطويع وسائله بحيث تؤدى إلى تحقيق هذه الأهداف، وإذا كنا نريد من نظامنا التعليمى أن يُخرج إنسـاناً واعياً مبتكراً مبدعاً فإن تطوير الوسـائل يبدأ من تطوير الكتـاب المدرسى بحيث يصبح كتاباً مرشـداً يعطى بعض المعلومات بمنهج علمـى منظم يلعب المدرس دوراً كبيراً فى ستكمالها بصورة جذابة من خلال مراجع أخرى يرشد إليها الطالب من خـلال زيارات للمكتبات ومراكز المعلومات ومن ثمّ يتعود الطالب على اسـتخدام المكتبة ويتعلم كيفية اسـتكمال معلوماته عن أى موضوع»[1].

ثمة معضلة أخرى، وهى عدم مواكبة النظم التعليمية لاحتياجات سـوق العمـل، فلا يوجـد رابط بين مجالات الدراسـة وميادين العمـل، وهذا يفرز مشكلات البطالة ومشتملاتها من انحراف وانهيار قيمى قد يؤدى إلى انفلات النظام وانهيار التقاليد الدينية والعرفية والأخلاقية.

هذه المشـكلة يمكـن التغلب عليهـا بالربط بين التعليم الجامعى وسـوق العمـل، وكذا بالاهتـمام بالتعليم الفنى ليتحول من مجرد منح شـهادة لأمى لا يقرأ ولا يكتب مثلما هو الحال فى مصر، إلى تربية فنيين قادرين على مواجهة أعبـاء الحياة العمليـة وصناعة نهضـة وطنية حقيقيـة، يقول أحـد الوزراء اليابانيـين ما نصـه: «إن التعليم الأسـاسى للجميع نقلنا من دولـة من المرتبة الثالثـة إلى دولة مـن المرتبة الثانية، أما التعليم الفنى الجيـد فقد نقلنا من دولة من المرتبة الثانية إلى دولة من المرتبة الأولى»[2].

(1) د. مصطفى النشار، بين قرنين، ص70.
(2) نقلًا عن د. ابراهيم شحاته، وصيتى لبلادى ص213.

أضف إلى عمليـات التطوير هذه ضرورة تطوير البحث العلمي، إذ هو المدخل الصحيح لاسـتنبات التكنولوجيا المحلية القادرة على حل المشكلات الواقعيـة التي تعوق تقدمنـا في مختلف المجالات، يقول النشـار: « والحقيقة التي أود الإشارة إليها أن تبني إدخال واستنبات التكنولوجيا العربية المستقلة يحتاج إلى قرار سـياسي عربي موحد، إذ تحتاج هذه العملية إلى تضافر الجهود العربيـة جميعاً، فالمسـألة ليسـت فقط مسـألة امكانـات بشريـة، فالعماء موجـودون بغزارة في بلاد عربيـة بعينها كمصر والأردن وسـوريا وغيرها، و إنما الدعم المالي اللامحدود مطلوب للإنفاق على هؤلاء العلماء وعلى أبحاثهم وعـلى المواد والآلات المطلوبة للبحث العلمـي المتطور وهذه تتوافر في بلاد عربيـة أخرى كالبـلاد النفطية، ولا ضير من أن نسـتقدم العلماء العرب من الخارج خاصة النابهين والنابغين في تخصصاتهم حتى يسـاعدوا في التأسـيس للمشروعات البحثية الكبرى»[1].

هـذه النهضة المرجوة في البحث العلمي، يشـترط لها النشـار توافر إدارة ذات كفـاءة عالية للبحث العلمي فيقـول: «أما الحقيقة التي ينبغي الالتفات إليهـا هي «الإدارة الكفء» التي تقود العمـل في تطوير البحث العلمي وفي توفـير متطلباتـه وفي العمل على تسـويقه وتعريـف كل فئـات المجتمع بما يجري داخل المعامل والوحـدات البحثية المختلفة وأهم النتائج والنظريات والمخترعات التي تم اكتشـافها والتي يمكن الاسـتفادة منها في تطوير سُـبل الحياة وزيادة الرخاء والرفاهية وكيفيفة تلك الاستفادة»[2].

(1) د. مصطفى النشار، في فلسفة الثقافة، ص133.
(2) د. مصطفى النشار، المصدر نفسه، ص124.

إن التطوير ليس وقفاً على الإرادة السياسية فقط، ولكنه عمل متكامل الأركان ويتطلب تضافر كافة الجهود لإحداثه على كافة المستويات، فى التعليم العام والفنى والجامعى والبحث العلمى، ومن كافة الجوانب، حيث المعلم والمنهج والتقنية الحديثة مع إعطاء الحرية الكاملة للطلاب لاختيار مجالات دراساتهم، هذه الشروط هى المطلوبة فوراً لتحديث نُظم التعليم فى وطننا العربى، فماذا عن معوقات ذاك التطوير.

2- **عقبات فى طريق التطوير:**

ثمة عقبات تقف حائلاً دون التطوير، ليس ذكرها من قبيل اليأس فى العلاج بأى حال من الأحوال، ولكنه من باب تشخيص الداء للوقوف على أنجع دواء، فإذا عرفنا تلك العقبات استطعنا مواجهتها.

تتمثل تلك العقبات فى المنظومة التعليمية ككل، كونها منظومة آيلة للسقوط، يقول النشار: «والحقيقة التى لابد من مواجهتها هى أن النظم التعليمية القائمة نظم بالية لا تصلح، فالأبنية المدرسية قد أعدت لفصول يجرى فيها تلقين التلاميذ الدرس نظرياً، وهذا كل ما فى الأمر، المبنى المدرسى مصمم للتلقين، والمدرس أو الأستاذ الجامعى قد أُعد بطريقة التلقين ولم يتدرب أو يتعود على الابتكار والابداع فى طرق التعليم والتدريس، والكتاب المدرسى أو الجامعى قد أُعد بنفس الطريقة، فهو يكرر ويعيد نفس ما تعلمه صاحبه أو مؤلفه دون إضافة ودون ابتكار أو إبداع، فهو اجترار لمعلومات سابقة منقولة معادة ومكررة، إذن كيف يمكن أن نتصور حدوث أى تطوير أو تقدم فى النظم التعليمية فى ظل هذه المنظومة البالية التى تدور كلها فى فلك

التقليد والتكرار وتعتبر أن الابداع أو الابتكار هو خروج على النص ينبغى حذفه ومحاربة المتسبب فيه»[1].

دعونا نكن منصفين يا سادة، صادقين على الأقل أمام ضمائرنا، فالتعليم فى وطننا العربى يعانى من مشكلات لا حصر لها، فالمعلمين ذوى مرتبات ضئيلة فى ظل صعوبة المعيشة، وهذا يدفعهم إلى عدم إجادة المنتج المقدم للطالب من مادة علمية واهتمام بالتنشئة الأخلاقية للطلاب، مضافاً إلى ذلك البحث عن سبل للعيش خارج منظومة التعليم الرسمية، كالدروس الخصوصية واللجوء إلى الأعمال التجارية وغيرها مما يقدح فى شرف مهنة التعليم ذاتها، وينقص من قدرات وإمكانيات المعلم العلمية والتربوية، لذا نجد اشتراطاً وضعه النشار لنهضة التعليم جاء نصه كالتالى: «إن الأداء الجيد يرتبط بلا شك بالدخل المناسب لعضو هيئة التدريس سواء كان مدرساً بالمدرسة أو أستاذاً بالجامعة، وبعدما نعطى لهذا أو ذاك ما يكافئ الأداء الجيد يمكن أن نُخضعه لمعايير الجودة فى الأداء وأن نحاسبه وأن نعاقبه إذا ما خرج على أى تقاليد أو قيم علمية أو أخلاقية»[2].

(1) المصدر نفسه، ص117.

(2) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص102، وهذه القضية قد أثيرت كثيراً من قبل وتم اقتراح عدة حلول لها من ضمنها إلغاء مجانية التعليم، تلك المحاولة التى كثيراً ما باءت بالفشل، يقول د. ابراهيم شحاته :» إننى أعتقد بأن محاولة التطبيق الحرفى لمبدأ توفير التعليم فى جميع مراحله بالمجان لجميع المواطنين قد أدت فى الواقع إلى حرمانهم جميعاً، ما عدا القادرين مالياً، من التعليم الحقيقى فى جميع مراحل التعليم، ولن يتغير الوضع إلا إذا قصرت الدولة التعليم المجانى أولاً على التعليم الأساسى وخصصت له قدراً كافياً من المواره = المخصصة للتعليم بحيث توفره فعلاً وعلى أعلى مستوى ممكن لجميع الأطفال، بعد ذلك يمكن تخصيص القدر الباقى من الموارد المالية المتاحة لتمكين=

أضـف إلى ذلـك عقم المناهـج التعليمية والتى تركز عـلى ذاكرة الطالب دون عقلـه، وهـذا يبدو فى ذلك الكم الهائل مـن المعلومات التى تتكدس فى الكتب الدراسية فى مختلف المواد بكل مراحل التعليم والتى نريد أن يحفظها الطالب، إما بحفظ ما فى هذه الكتب أو من ملخصات لها، وبقدر ما يستطيع حفظـه من هذه المعلومات بقدر ما يكـون تفوقه فى الامتحانات التى توضع دائماً لقياس قدرة الطالب على التذكر لا قدرته على الفهم والإبتكار!![1].

لـذا يركز النشـار على ضرورة نقل الطالب من الاتبـاع إلى الإبداع، من التقليـد إلى التجديد فيقـول: «إن تغيير نظامنا التعليمـى وتطويره ينبغى أن يقـوم إذن على أسـاس من تعويـد الطالب على كيفية البحـث العلمى وليس تلقينـه النتائج العلمية، وتدريبه على الاكتشـاف والاخـتراع وليس تحفيظه تاريخ الاختراعات والاكتشـافات، تعويده على اسـتخدام المكتبة ومراكز المعلومـات وليس التركيز على حشـو ذاكرته بمحتويـات الكتب، فالذاكرة المثقلة هى أكبر معوق أمام الابداع العقلى»[2].

إن النظـام التعليمى الـذى يركز على ذاكرة الطالب هو أسـوأ النظم على

= الطلبة الفقراء القادرين ذهنياً من مواصلة التعليم والاستمرار فى المراحل التالية بحسب ما يسمح به نبوغهم، دون أن يصبح العجز المالى عائقاً بأى حال فى سبيلهم، أما الطلبة القادرون مالياً أو غير المتفوقين فيكون من حق الكليات الجامعية كل حسب حاجتها وظروفها وطبق ضوابط يقرها مجلس الجامعة، أن تسمح لهم بالالتحاق بها بالقدر الذى تقرره ومقابل مصروفات تغطى نفقة العملية التعليمية كلها أو بعضها، وقد توفر فائضاً يُستخدم لتخصيص منح إضافية أو قروض دراسية لغير القادرين « انظر د. ابراهيم شحاته، وصيتى لبلادى، ص134.

(1) د. مصطفى النشار، بين قرنين، ص69.

(2) المصدر نفسه، ص71.

الإطلاق لأنه لا يخاطب ملكة الإبداع، ولم يمرن الطالب على التفكير باستقلال عن الآخرين ولم يمرنه على استخدام عقله الواعى أو استخدام المنهج العلمى فى التفكير، إنه حتى - على حد تعبير مصطفى النشار - لو كان ممن درس وتعلم هذه الطريقة فى التفكير فقد درسها دراسة التلقين والحفظ ليحصل على الشهادات الدراسية ليطبق ما درسه فى ميدان عمله، وليس ليستخدمه فى مجال حياته العملية، إنها ثقافة يسود نظام التعليم فيها الفصل بين النظر والعمل، أو ينفصم فى إطاره الفكر عن الواقع، و يستند إلى التكرار الممل والتقليد الأعمى والمناهج الصمّاء الجامدة، ولعل حال الدارس فى ظل هذا النظام التعليمى ليس بأفضل حالاً من المعلم، فكلاهما ينقل ما أبدعه الآخرون، وكلاهما غير قادر على أن يمتلك ناصية ما يعلمه أو ما يتعلمه لأنه ببساطة ليس صاحبه أو مبدعه، ففرق كبير بين من جدّ واجتهد وفكّر وتأمل وبحث وجرّب حتى وصل إلى ابداع نظرية علمية أو اختراع مخترعاً جديداً، وبين من يتلقى هذه النظرية أو يستخدم هذا الاختراع[1] .

هذه هى أكبر معوقات التعليم، المنهج الذى يقوم على الحفظ، والمعلم الذى يعانى السوءات كلها، وهو ما يحتاج إلى تكاتف الجميع للقضاء على هذه الأزمات.

3- مواد التعليم الرئيسية:

نكاد نلمح فى الأفق البعيد اهتمام الفلاسفة بقضية المواد التدريسية، وأول تجربة عرفتها كمتخصص فى الفلسفة اليونانية هى التجربة الأفلاطونية،

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص103

حيث حدد أفلاطون لكل مرحلة من المراحل الشهيرة فى جمهوريته منهجاً معيناً يتم تدريسه.

واشتُهرت التجربة من بعد أفلاطون عند كثير من فلاسفة الإسلام وفلاسفة عصر النهضة، ثم تم تجديدها اليوم إثر القفزة العلمية الهائلة التى ولدت من رحم القرن الحادى والعشرين وما سبقه من تطورات فى علوم الحاسب والوراثة وغيرها.

وهنا نجد اهتماماً من النشار بهذه القضية، إذ تقع الفلسفة عنده الموضع الأكبر والأول فى مناهجنا التعليمية، فنراه يتساءل فى تعجب، ويتعجب فى تساؤل قائلاً: «وأعجب - فى وطننا العربى المعاصر - ممن ينادون بتطوير النظام التعليمى الجامعى الأكاديمى وهم لا يزالون بعيدين عن إدراك أهمية الدراسات المنطقية والفلسفية كشرط أساسى وضرورى للتربية العقلية العلمية القادرة على الاكتشاف والإبداع، إن الإبداع الفكرى والعلمى يقوم على أسس ضرورية أهمها:

1- دراسة الرياضيات ومبادئ الحاسب الآلى.

2- دراسة مبادئ المنطق والتفكير العلمى.

3- دراسة مبادئ التفكير الفلسفى.

هذا بالإضافة إلى ضرورة الاهتمام بتدريس اللغات سواء اللغة العربية أو اللغات الأجنبية، وهذا أمر يُجمع عليه المختصون، فهذه هى المداخل الحقيقية للإبداع العلمى وللتربية التى تخرج شخصيات قادرة على تغيير واقعنا الحضارى إلى الأفضل، وتجعلنا فى المستقبل القريب ممن يشاركون فى الإبداع العالمى فى كافة التخصصات»[1].

(1) د. مصطفى النشار، بين قرنين، ص76.

هـذه مطالـب منهجية مشروعـة، فالاهتـمام باللغـات ضرورة تفرضها الحاجة الملحة الآنية، سـواء الاهتمام باللغة العربية، إذ أن السـبيل لإحصاء تراثنا العربي الإسـلامي فيما يقول عصمت نصار مرهون بإصلاح حال لغتنا العربية وتخليصها من جمودها وتحرير أسـاليبها من قيود الحواشي والغريب مـن الألفاظ، و إضافـة ما ينقصها من ألفـاظ الحضارة إليها حتى يتسـن لها مواكبـة المدنية الحديثة، ثم تحقيـق الجيد من كتب الأقدمـين تحقيقاً علمياً و إعـادة نشره في ثوب سـلس العبارة واضـح الأفكار[1] أو سـواء بالاهتمام باللغـات الأجنبية لمواكبة الأحداث العلمية والتطورات التي تحدث في ثورة التكنولوجيا بلغاتها الأم.

وقريبـاً من هـذا الرأي باختلاف بسـيط يذهـب جـارودي إلى أن أهم ثلاث مواد تدريسـية هي القـراءة (اللغة) والتاريخ والفلسـفة، فهذه المواد هي أسـاس أي نظام تعليمي، فتعليم القراءة سـيدفع الجهل عن ربع سـكان العالم، أما التاريخ فهو العلم الذي تُخدَّر به الشـعوب ويجلب لها الذكريات الزائفة ويقودها إلى هذيـان العظمة أو الاضطهاد، إنه بالأحق صار غواية، إذ يصبـح المؤرخ أشـبه بمهندس معـماري يتعامل مع زبائنـه كأنه يضع لهم تاريخاً صالحاً للسـكن ومن ثمّ فالواجب على المؤرخين التزام الحيادية وعدم التعصب والتحيز ورفض الآخر والاستعلاء عليه[2].

أمـا عصمت نصار فقد وضع في أول مادة مـن التوصيات العامة لإصلاح

(1) د. عصمت نصار، الخطاب الديني والمشروع العلماني وجهان لعملة زائفة، دار روافد للنشر، القاهرة، سنة 2013م، ص399.

(2) روجيه جارودي، كيف نصنع المستقبل، ترجمة منى طلبه وأنور مغيث، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2001م ،ص176.

التعليم ما نصه كالتالى: «جعل مادة التربية الدينية والتربية الوطنية والتاريخ والفلسفة مواد رئيسة تعامل معاملة باقى المواد فى التدريس والتقييم، وذلك لترسيخ الروح الدينية إسلامية كانت أو مسيحية، فى قلوب وعقول المتعلمين وحمايتهم من التيارات الإلحادية التى ترمى فى المقام الأول إلى تبديد الطبيعة المصرية التى جُبلت على التدين وكذلك توجيه ولائهم إلى مصر دون غيرها[1] وتهيئة أذهانهم للمتغيرات السياسية والاقتصادية، ليكونوا عوناً للرأى العام القائد فى أداء خطط التنمية وتزويد عقولهم على النقد والتسامح الفكرى، وصبغ عقولهم بالصبغة الفلسفية التى تمكنهم من الإبداع فى شتى ميادين الحياة (الأدب والفن والعلم) وتعينهم على استشراف المستقبل والتخطيط لحل مشكلاتهم من جهة، وتشعرهم بأن أهمية هذه المواد لا تقل عن غيرها من جهة أخرى»[2].

إجمالاً يمكننا القول بأن ثمة إصلاحاً جذرياً وجوهرياً لنظمنا التعليمية فى وطننا العربى أصبح شرطاً رئيسياً وأولياً لصناعة نهضة قومية عربية إسلامية، فكما أن البداية ثقافياً هى الحل، فإن اجراء الإصلاحات وتحديث النظام التعليمى أمر لا يقل خطورة عن تغيير النمطية الثقافية السائدة، وأن هذا الإصلاح المنتظر لابد أن يطال جميع أبعاد العملية التعليمية، بما فى ذلك اختيار المواد التى ينبغى تدريسها وأن يتولى الفلاسفة القيام بهذا الدور حديثاً بمثل ما قاموا به قديماً.

(1) يتحدث هنا عن مصر، ولكن حال التطبيق الفعلى يتم استبدال القومية العربية باسم «مصر» ليفنى الأخص فى الأعم.

(2) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، دار الهداية لنشر، القاهرة، ط1، سنة 2012م،ص336.

ثانياً: تجديد الخطاب الدينى

وهى ثانى أهم دعائم صناعة نهضة قومية عربية و إسلامية، لأن الإسلام يمتلك المقومات الذاتية لصناعة تلك النهضة، فقط هو فى حاجة إلى إعمال مبادئه وفهم مقاصده، و إيقاظ أبناء الخليل إبراهيم فيما يقول جارودى: «ولذلك لا يتحتم علينا نحن مسلمى الغرب أن نحكم على النظم السياسية المختلفة فى البلاد الإسلامية، فهذا شأن خاص لكل شعب ولكل بلد، ولكن واجبنا الأول هو الدفاع عن رسالة الإسلام فى شموليتها واضعين أنفسنا ليس فقط فى نطاق أمة إسلامية تعلو على الإنقسام إلى أمم كان الاستعمار قد أخذ على عاتقه أن يقسمها حتى يقهرها، ولكن فى نطاق عالمى موقظين كل العائلة الروحية للحظ الإبراهيمى، وكل حكم العوالم الثلاث، بما فيها النزعات الإنسانية المسماة بالإلحادية، ببساطة لأنهم ليس عندهم يقين فى أن إيمانهم يرد إلى الإنسان إيمانه بالله، بينما هم يحللون هذا الإيمان، لأن المهم كما نكرر ليس إنساناً يتكلم عن إيمانه، ولكن المهم هو ما يفعله للإسلام وضد الاتجاه إلى حرفية عقيمة وتلمودية، وضد قصر الاجتهاد على أقلية مما أوجد فى الإسلام إكليروسية غريبة متعددة مناهضة لروح الإسلام، فإن مهمتنا أن نتذكر ما هو الإسلام الحقيقى»[1].

إن الإسلام لم يفقد قدرته التنافسية بعد، ولن يفقدها إلى الأبد، فقط يمر بمراحل يتخلى فيها أبناؤه عن التجديد، فتولد الكارثة وتنشأ التبعية، يقول جارودى: «إن الإسلام اليوم يملك إمكانيات واحتمالات انتشاره

(1) روجيه جارودى، الإسلام، ص115.

بأكثر مما كان فى أوج عظمته، فهو يستطيع أمام هذا الإفلاس المستعصى والمزدوج للنموذج الأمريكى والسوفيتى أن يعيد الأمل إلى عالم مهدد فى بقائه بهذا الفشل المزدوج، إنه يستطيع ذلك إذا تعالى عن الرفض العقيم للإجتهاد، ذلك الرفض الذى أدى به إلى انحطاط يصعب علاجه، إن الإسلام اليوم يعرف كيف يستعيد المبادئ الفعالة التى صنعت عظمته»[1].

إذن قضية التجديد باتت اليوم أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى، خاصة فى ظل انفلات أخلاقى من ناحية، يعقبه تشدد فى الرأى والفتوى من ناحية أخرى لدرجة يمكننا القول مع عصمت نصار بأن: «إهمال التربية الأخلاقية القائمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتسامح مع الأغيار و إقامة العدل وطلب الحق سوف يؤدى إلى فساد المجتمع وظهور الجماعات الماجنة والعنف الموجه، كما أن غيبة التضامن الاجتماعى الذى حث عليه الإسلام سوف يؤدى إلى اتساع الهوة بين الطبقات ويُحرّض المعدمين على السطو على حقوق الأغنياء ويُحرّض على ثورة الجياع»[2].

وما تولد هذا العقم الفكرى فى الدين والكف عن الاجتهاد إلا لسببين رئيسيين عند مصطفى النشار، الأول دخول غير مختصين إلى ميدان الفتوى: «وفى اعتقادى الشخصى أن كثرة الاختلافات والخلافات إنما يترتب على دخول غير المختصين مجال الدعوة والتفسير، ولو التزم المسلمون بالشروط القرآنية للمجددين الموكل إليهم الافتاء والتفسير لما وجدنا أنفسنا أمام كل هذه الشيع

(1) نفس المرجع، ص119.

(2) د. عصمت نصار، وجهان لعملة زائفة، المرجع السابق، ص402.

والفرق المتناحرة من التيارات الإسلامية والجماعات الإسلامية التى تتراوح بين الاعتدال والتطرف إلى حد يضيع معه الإسلام الصحيح»[1].

والثانى ظهور الدواعش الفكريين الذين يعطون قداسة لنصوص نبوية مشكوك فى صحتها ويحسبونها من صحيح الدين ويغلقون عقولهم دون أى تجديد، يقول النشار: «فلا قداسة إلا للنص الدينى، وما عدا ذلك قابل للمناقشة والحوار، قابل لأن نأخذ به وفق مقتضيات عصرنا وقابل لأن نتجاوز عنه وننحيه جانباً باعتباره معوقاً للتقدم أو يمثل عبئاً ضبابياً يعوق الرؤية ويمنع الانطلاق»[2].

إن تقدم الإسلام اليوم على الأرض مرهون بمدى وعى المسلمين ذاتهم، فالإسلام قوته ذاتية، بمعنى اشتماله على عناصر قوته التى تضمن له الانتشار عالمياً فيما يقول لوفيكو مراكش: «إن الدين الإسلامى احتفظ بكل ما هو أكثر عقلانية واحتمالاً فى المسيحية، وكل ما يبدو فى نظرنا موافقاً لقانون وسنة الطبيعة، وقد استبعد من عقيدته جميع ألوان الغموض الموجودة فى الإنجيل، والتى تبدو لنا غير معقولة وغير مفهومة، كما أنه استبعد من الأخلاق كل المبادئ المتزمتة التى يصعب على الناس تطبيقها، مما جعل الوثنيين اليوم يشعرون أنهم أكثر ميلاً إلى التنكر لوثنيتهم واعتناق الإسلام بصدر رحب واعتناق الشريعة المحمدية أكثر من الشريعة الإنجلية»[3].

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص144.
(2) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص133.
(3) نقلًا عن د. عبد الرحمن بدوى، دفاعاً عن القرآن ضد منتقديه، هدية مجلة الأزهر، القاهرة، سنة 2015م، ص159.

وما أكثر هذه الشهادات لعدول مفكرى الغرب، وما أكثر ما أشاد الأعداء بالإسلام، فأين تقع المشكلة إذن؟ ولماذا تخلف المسلمون فى حين تقدم الغرب مع وجود شرائط تقدم المسلمين، متمثلة فى منهاج قرآنى يشمل كافة ما يتعلق بأمور الدنيا والدين؟

إن القرآن يحتوى على (6236) آية منها (228 آية فقط) مخصصة للتشريع منها (70 آية) متعلقة بالأسرة و(70 آية) متعلقة بالقانون المدنى و(13) باجراءات التقاضى و(10) للقانون الدستورى و(2) للنظام الاقتصادى والمالى و(25) للعلاقات الدولية و(30) لقانون العقوبات[1].

هذه الآيات تمثل فى مجموعها منهاجاً عاماً لحياة المسلمين تنظم لهم حياتهم وتأمرهم بالأخذ بأسبابها وتبرهن لهم فى غير لبس أو غموض أن هذا الدين يأمر بالعقل، وأن ثمة اتصالاً وشائجياً وثيقاً بين الوحى والعقل: «فلا يمكن أن يُغنى العقل عن الوحى، لأنه لا يتعارض أحدهما مع الآخر، ولا يمكن أن يحدث التصادم إلا بين عقل عاجز وقراءة سقيمة، فالعقل العاجز، أى الوضعى المجرد من الحكمة والوحى والقراءة السقيمة، أى الحرفية التى تفصل كل جزء من النص عن سياقه العام، وكل البراهين على وجود الله تقوم على استعمال للعقل بشكل يخالف الثوابت»[2]، ثم يوضح جارودى هذا الاتصال أيضاً بقوله: «والإسلام حين لم يضع أى قيود لاستعمال العقل لا فى العلوم ولا فى الحكمة، بل دعاه على العكس من ذلك أن يجتهد فى هذا الاستعمال، وهو فى ذات الوقت أوضح لنا أن العلم والحكمة لا يمكن أن

(1) عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، ط7، القاهرة 1956م، ص34.
(2) جارودى، الإسلام، ص49.

تصل تمامها، إلا حينما تهتدى برسالات الأنبياء، ولقد علمنا الإسلام أن نقرأ بعلم وحكمة كل الآيات الدالة على وحدانية الله الخالق، وكذلك الدالة على الخير والشر والصراط المستقيم، وكل الأشياء الصالحة التى تتفق مع العلم والحكمة إذا كانا سيذهبان فى نفس الطريق، أى سيتوصلان إلى الاعتقاد بأنهما لن يكونا تامين إلا فى نور الوحى، أو ليس هذا النور هو الذى نرجوه من الله فى كل صلاة؟»[1]، وقد صدق السيد أبو الفيض المنوفى فى قوله: «فالدين والفلسفة قد خرجا فى الحقيقة من مهد واحد، ودرجا وتكونا مع التاريخ حتى استفحل وعظم أمرهما، وأخذ كل منهما طريقه وغايته، بحسب أسلوبه الخاص ومنهجه، إلى أن تمخضت الفلسفة عن العلم، فشب وكبر وازداد بسطة ونشاطاً ونجاحاً، ولمّا صار هذا شأنه عق أمه الفلسفة ولم تستمر عنايته بالبحث المجرد النافع فالتحق بخدمة المال»[2].

إن أى حديث حول تعارض العقل مع النقل مردود على أصحابه، حتى عند أئمة أهل السنة والجماعة مثل ابن تيميه والإمام أحمد وغيرهما[3] فهم قالوا بالاتصال لا بالانفصال ويشهد لهم تراثهم بهذا الاتجاه.

أما اليوم، فقد انغلق المسلمون على أنفسهم، فهم بين تارك للنص القرآنى وبين متشدد فى التأويل، ثم عكف قوم آخرون على الإفتاء والتفسير وفق آراء عقيمة لا تُغنى ولا تُسمن من جوع، ودون أن يأخذوا فى اعتبارهم صلاح القرآن لكل زمان ومكان وتجدده على الدوام وصعوبة اختراقه من أى أحد، يقول أحمد

(1) المرجع نفسه، ص50.

(2) السيد أبو الفيض المنوفى، نقد الحضارة المعاصرة، ص74.

(3) انظر بحثنا «مقاصد الشريعة عند ابن تيميه « مجلة الرأى، الكويت، سنة 2014م، ص7 وما بعدها.

لطفى السيد: «إن القرآن الكريم بهذا الاسم الكريم تنطق به ملايين الشفاه، وله تهتز ملايين القلوب، وهذه الشفاه وتلك القلوب تنطق وله تهتز منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، هذا الكتاب الكريم الذى أُحكمت آياته، ثم فُصلت من لدن حكيم خبير، لم تصل إليه يد عدو مقاتل، أو محب جاهل، بل ظل بين دفة المصاحف طاهراً نقياً، بريئاً من كل اختلاف واضطراب، فهو إمام المتقين، ومستودع الدين، و إليه المرجع إذا اشتد الأمر، وعظم الخطب، وسئمت النفوس من التخبط والضلال، ولا يزال لشعاع نوره نفوذ بين تلك الحجب التى أقاموها دونه، ولابد أن يبلغ ضياؤه بأيدى أنصاره وأعين أوليائه ليهتدوا به، ويحمدوا سره، لكن إذا غلبت عليهم ظلم البدع، وران على قلوبهم ما كسبوا من تحزب الشيع، فهؤلاء فى عمى عن نوره، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه»[1].

ويوجه الشيخ المراغى النقد إلى المنغلقين الذين لا يسعون إلى التجديد والاستفادة من نبض القرآن فالقرآن حى متجدد الفهم على الدوام، يقول الشيخ: «إنهم استكانوا فى القرون الأخيرة إلى الراحة وظنوا ألا مطمع لهم فى الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم وابتعدوا عن الناس وجهلوا طرق التفكير الحديث وجهلوا ما جدّ فى الحياة من علم وما جدّ فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونقموا على الناس، فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصّصوا أنفسهم له وأصبح الإسلام بلا حماة ولا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين»[2].

(1) أحمد لطفى السيد، تقرير مرفوع إلى أعتاب فؤاد الأول، عن فهرس القرآن للمصحف الملكى المصرى، دار الكتب المصرية، القاهرة 1933م، ص13.

(2) محمد كرد على، العلامة المراغى شيخ الأزهر، تقديم حسين مهران، الهيئة العامة لقصور الثقافة 1995م، ص23

وكذا نجد تأكيد قاسم أمين على ضرورة التجديد، ذلك أن جوهر الإسلام يحمل كل مقدمات العالمية، غير أن الجمود الذى يصيب معتنقيه من حين لآخر هو الذى يعوق ذلك، ويصور الإسلام فى عيون الأغيار على صورة مبدّلة لطبيعته التى تقوم على الاستنارة والتجديد والإصلاح، كما أن تجديد المشروع الحضارى للإسلام لا يعنى أبداً التمسك بسنن القدماء فى العصور الإسلامية الماضية، بل الواجب إخضاع نظمهم السياسية والاجتماعية واجتهاداتهم الفقهية وفنونهم، وعلومهم كلها خاضعة للنقد والتغيير والتحديث وفقاً لمتطلبات كل عصر»[1].

إن مستقبل الخطاب الدينى اليوم فى عالمنا العربى ينذر بالخطر، والعبرة على الدوام بالنتائج، فيمكنك بكل بساطة أن تعرف جدية منهجك أو عبثيته من خلال النجاح أو الفشل، فإذا وجدت الجهل والعبثية وفوضى الفتوى وانهيار العقل وانعدام الرؤية التجديدية، فهذا دليل انهيار الخطاب الدينى وعلامة على فشل الدعاة وصمت المفكرين، يقول عصمت نصار: "ليس من اليسير قراءة الواقع المعاش فى مصر، الذى يمكن وصفه بالعبثية، فالخطابات مشوشة، والرؤى مشوهة، والمنابر مسيسة، والفكر الدينى احتكره المتعالمون وأضحت لغة الخطاب النقدى مصاولات بين عصبة المكفرين وجماعة المجترئين وجمهور المغيبين، وعلى مقربة من ذلك نجد الخطاب الفقهى يلوح بسيف النهى عن المنكر الذى ارتأه متناسياً تماماً الأمر بالمعروف، أما الخطاب الصوفى فتسربل بعباءة الإرجاء حتى لا تُهدم زواياه

(1) قاسم أمين، الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة 1989م، ص413.

وتُخرّب أضرحته، و إذا ما انتقلنا إلى خطاب الإصلاحيين والمجددين فسوف نجد صرير أقلامه استحال إلى أنين الصامتين المسنحبين»[1].

هذا الواقع المصرى ينسحب على واقعنا العربى ككل، فإذا فسد الخطاب الدينى فالسقوط الحضارى والأخلاقى هو البديل، لذا نجد صرخة خرجت وسط هذا الظلام الدامس: «أفيقوا يرحكم الله، فالخطاب الدينى أوشك على السقوط، و إذا حدث ذلك فسوف تعانى مصر من فوضى لا يمكن التكهن بمداها ولا نتائجها، و يرجع ذلك إلى عجز المصريين عن تقليد النموذج الأوربى الذى اعتلى جياد العلم بعد انكسار سلطة الخطاب الكنسى فكيف يمكن أن نتوقع مستقبلاً لأمة فسد خطابها الدينى، وتراجع العلم فيها، وتشاكل الأمر على نخبتها، وتسلل اليأس إلى شعبها»[2].

ما المخرج إذن؟

لا شيء غير فتح باب الاجتهاد وهو أحد أهم دعائم الدين ذاته، بل وأحد فروضه وصولاً إلى اليقين، يقول مصطفى عبد الرازق: «فمن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد فى الاعتقاد ولم تحجب عصمته فهو معرَّض للخطأ ولكن خطئه عند الله واقع موقع القبول، حيث كانت غايته من سيره ومقصده من تمحيص نظره أن يصل إلى الحق و يدرك مستقر اليقين»[3].

(1) د. عصمت نصار، وجهان لعملة زائفة، ص143.
(2) المرجع السابق، ص144.
(3) مصطفى عبد الرازق، محمد عبده، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، سنة 1997م، ص115.

ويرجع جارودى تأخر المسلمين واحتلالهم قاع السلم الحضارى اليوم إلى الإنغلاق، ذلك أن الاجتهاد هو سر التقدم، وما ضاع التقدم وتعثرت أقدام المسلمين إلا بتخليهم عن الاجتهاد، فيقول: «..... وأصبح القرآن حبيساً خلف سور من التفاسير، ولم يعُد رسالة حية خالدة لأجيال الإسلام الجديدة، وكأن معناه قد حدد مرة واحدة لكل الأجيال إبان حكم الأسرة العباسية، فقد حاول الخلفاء العباسيون حين بدأت إمبراطوريتهم تتهدد من الداخل والخارج، وحيث كان كثير من الناس فى البلاد التى دخلها الإسلام حديثاً يدعون الإسلام ليستفيدوا من نظام السادة الجدد مثلما فعل الإمبراطور قسطنطين فى المسيحية، ولم يكن باطن ومهمة الإيمان يشكلان معياراً من السهل إدراكه للتفريق بين المخلص والمتمرد، فكان لابد من معيار خارجى يمكن رؤيته، «فالمسلم الصالح» لم يكن هو الذى يؤمن بالله ورسالة نبيه الداعية إلى اتباع هدايته سبحانه ولكنه كان ذلك الذى تمثل الأفعال الظاهرية التى يسهل تعلمها وتقنينها مطابقة لتقاليد ثابتة فى محظوراته كما فى أوامره، لقد ظهر انتصار الحرفية والعقائدية لمدة ألف سنة فى تكرير آلى وحرفى يصيغ المدارس المتعلقة بتفسير القرآن.

وهكذا بدأ وانتشر انحطاط العالم الإسلامى، والذى استمر لعشرة قرون، وبهذا المفهوم من معاكسة النداء الإلهى فى القرآن الداعى إلى التدبر والبحث حكم على البلاد الإسلامية بالشكلية التى أوقعتها فى المراتب الدنيا لحركة التاريخ، ووقفت عائقاً أمام صعود اليقين الإسلامى فى سلم العالم كما كان قبل أن يغط فى نوم عميق بسبب زعمائه السياسيين وعلمائه، حيث كان العلم مرآة ولم يكن مشروعاً»[1].

(1) جارودى الإسلام، ص123 - 124.

تلك هى المأساة .. تلكم هى الأسباب الرئيسة لانهيار المسلمين، ضياع الخطاب الدينى وانهيار آلياته وضعف روح التجديد فيه والإنعكاف حول قراءة الماضى دون التفكير فى متطلبات المستقبل، حتى تحول الخطاب الدينى من جامع لكلمة المسلمين إلى مفرق، ومن موحد للأمة إلى مشتت لها، ليتحول من مصدر للقوة إلى مصدراً للضعف، يقول النشار: «ولذلك أصبح الأمر جدّ خطيراً وخاصة فيما يتعلق بالخطاب الدينى الإسلامى على وجه الخصوص، إذ أصبح عاملاً أساسياً من عوامل الفرقة فى المجتمع عموماً وفيما بين المسلمين على وجه الخصوص، أصبح عاملاً من عوامل الصراع والتناحر وتقسيم الأمة إلى مسلمين وغير مسلمين من ناحية، وقد يكون هذا أمر طبيعى، لكنه يُثار اليوم على أنه تمييز بين مسلمين وكفار، ثم زاد الأمر سوءاً بتعدى هذا التقسيم إلى تقسيم المسلمين أنفسهم إلى فرق يكفر بعضها بعضاً و يزعم كل فريق أنه وحده المسلم وأن الباقين خارجون على صحيح الدين و ينبغى مفارقتهم بل وقتالهم!! وقد زاد تعصب المتمترسين حول هذه الخطابات التى تفرق أكثر مما تجمع وتُجذر أسباب الصراع أكثر مما تشير إلى أسباب التلاقى وتؤكد على المشترك حينما ارتبط هذا الصراع «الخطابى» بصراع «المصالح السياسية» وكلما ازداد الارتباط بين أى نوع من أنواع هذا الخطاب الدينى بتحقيق أهداف سياسية آنية لهذا الطرف أو ذاك ازداد حدة وخصومة مع بقية صور الخطاب، فهذا «إخوانى» وهذا «سلفى» وذاك «علمانى» وهذا «ليبرالى» وذاك «إسلامى» ثم هذا سلفى جهادى، وهذا جماعات إسلامية وهذا جهادية تكفيرية، وذاك جماعات إسلامية إصلاحية، وهذا سلفى معتدل وذاك سلفى متطرف.. سيل كبير من التقسيمات والتصنيفات التى شرذمت حتى الإسلاميين ذاتهم وشرذمت رؤيتهم للآخرين لدرجة سدت الأفق أمام

أى محاولة للتوحد والإلتقاء بين كل هذه الفرق المتشرذمة المتناحرة فيما بينها سواء داخل التيار الواحد أو بين التيارات المختلفة»[1].

وغـذت تلك الفرقة وذاك التناحر بلاد المسـلمين، حتـى أصبحت كلمة «هذا كافر» و«هذا فاسق» أقل كلمتين يمكن قولهما على المخالف فى الرأى، حتى بين الجماعات المتأسلمة نفسها فالإخوان يكفرون السلفيين، والسلفيين يكفرون الجهاديين، والجهاديين يكفرون الجميع ويحلون دم الجميع، من هنا تولـد الأزمات التى تعجز أمامها الحلول، ولعل السـبب المباشر فى ذلك غيبة الوعـى لدى القائمين عـلى الخطاب الدينى وعجز هذا الخطـاب عن التواصل مع الجماهير واقناعهم بالدين الحق والمقاصد الرئيسـية للشريعة الإسـلامية وعدم إدراكهم لمتطلبات المستقبل.

ليـس من حلـول واقعية إذن غير تجديـد آلية الخطـاب، ليأخذ معطيات العقل ويتعامل مع الواقع بجدية ويتطلع إلى المستقبل بأمل، لذا وضع النشار عدة أسـس لإصلاح وتطوير الخطـاب الدينى فيقول: " لقـد افتقد الخطاب الدينى المعاصر اللغة السـوية للخطاب وجنح إلى لغة صراعية تنافسـية بين جماعات وتيارات الإسلام السـياسى المعاصر، وغاب صوت العقل والحكمة والدعوة إلى الله والدين بالموعظة الحسـنة ولذا أرى أن إصلاح وتحديث هذا الخطاب وتطويره ينبغى أن يقوم على أسس خمس وهى:

1- العـودة إلى الاسـتناد إلى صحيح الديـن (القرآن والسـنة) قبل ظهور الخـلاف بين الفرق والتأكيد دائماً على أن خلافاتهم هى مجرد اختلاف فى الرأى ليس فيما يخص جوهر العقيدة وإنما ما يخص بعض الفروع.

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص150 - 151.

2- الحرص على عقلانية الخطاب الدينى والبعد به عن إشاعة الخرافات والخزعبلات والبعد عن التقليد ومحاربة الجمود مع الحرص على ابراز القضايا المتجددة والتعبير عنها على أساس من صحيح الدين.

3- مراعاة التدرج فى الخطاب الدينى بحيث يكون موافقاً للمخاطب، فمخاطبة عامة الناس غير مخاطبة خاصتهم، إذ ينبغى أن يقتصر الخطاب الموجه لعامة الناس على شئون دينهم الحياتية.

4- نبذ التعصب والتسامح مع أصحاب الآراء والمعتقدات الأخرى إعمالاً لمبدأ »أن الحقيقة حمّالة أوجه» ولمبدأ الاستفادة من كل الطاقات والديانات لخدمة المجتمع المسلم فى أى دولة من الدول الإسلامية.

5- استشراف المستقبل كضرورة من ضرورات تطوير الحاضر، مما يعنى التقليل من قداسة الماضى لصالح أن بالمستقبل إمكانات ينبغى أن نستشرفها لنعمل من خلالها على نشر الدعوة الإسلامية وفق ضرورات الحاضر و إمكانات المستقبل والتنبوء بمساراته المختلفة»[1].

و يؤكد عصمت نصار على الخطوط العامة والرئيسة لطبيعة هذا التجديد فيراه عبر أربعة محاور رئيسة كالتالى:

1- إن الدين الإسلامى ملة وحضارة لا صراع فيه بين العقل والنقل، ولا صدام بين الشرع والعلم، ودستور يكفل للفكر حريته وللوحى قدسيته.

2- إن التأويل العقلى هو المنهج الذى يجب على علماء المسلمين انتهاجه

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص147.

فى فهم النص وفى التصدى لمشكلات المجتمع اقتفاءاً لخطى أبى حنيفة والشافعى.

3- إن علة تأخر المسلمين تكمن فى انصرافهم عن جوهر الملة المحمدية إلى أمور السياسة التى أضافت إليها ما ليس فيها من جهة، وما يتعارض معها من جهة أخرى، وأن خير سبيل لإصلاح ما فسد هو تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.

4- إن الدين هو نقطة الانطلاق للإصلاح والتغيير باعتباره عقيدة الأمة وفكر الجمهور الراسخ الذى لا تبدّده شطحات الصفوة ولا جمود العامة»[1]

إن الدين الإسلامى ليس عقبة فى صنع التطور، وليس عصياً على التجديد الذى لخصه النبى الكريم ﷺ بقوله: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»[2]، وبحثه ﷺ على الاجتهاد فى الرأى ومشورته لأصحابه، بما يدل على حيوية هذا الدين ومخاطبته للعقل أينما كان، وبما يبرهن على عظمة هذا الدين وقدرته على الاستمرار ومنافسة الأديان الأخرى بشهادة الغرب ذاته، إذ يقول مونتجمرى وات: «ومعظم المسيحيين يميلون إلى افتراض أن المسيحية ستكون هى دين العالم فى المستقبل، لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمراً مؤكداً، ولنذكر عنصراً واحداً، فبعض الأمم المسيحية تعانى بشدة من العنصرية، والدين الذى لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه

(1) د. عصمت نصار، وجهان لعملة زائفة، ص392 - 393.
(2) رواه البخارى رقم (3114) ومسلم (752).

من المستبعد أن يكون قادراً على تقديم حلول كثيرة مُجدية لمشاكل العالم الأخرى.

ومن بين مزايا الإسلام تعميقه لمفهوم الأخوة وعمق حججه، إلا أن الثقة بالنفس مصحوبة بعمق الحُجج وقوتها قد تتحول إلى «عيب» وليس ميزة، عندما تعمى عين الإنسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخرين، لذا فقد يجد الإسلام صعوبة فى إدراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءاً منه.

والإسلام - بالتأكيد - مناضل قوى، ومنافس عظيم الشأن، سيعمل على مدّ الدين الواحد - دين المستقبل - بهيكله الأساسى»[1].

يبقى التساؤل الآن، هذه هى آليات تطوير وتحديث الخطاب الدينى، أقصد تلك هى شروط التجديد، فماذا عن الجماعات التى قسّمت المجتمع إلى طوائف يُكفر بعضها بعضاً ويقتل بعضها بعضاً باسم الدين، ويتراشقون فكرياً وهم لا يفكرون، ويخرجون من صحيح الدين كما يخرج السهم من الرمية وهم لا يشعرون، بل هم لا يفهمون مقاصد الدين الحقيقية ويظنون أنهم يفهمون؟.... ما الحل لتلك المعضلة؟ وكيف السبيل إلى الخلاص منها؟.

ثالثاً: التسامح

هو القيمة الإسلامية والإنسانية الكبرى التى تذوب عليها الخلافات والصراعات فى ظل عالم إسلامى مزقته الطائفية والأيديولوجية والحزبية

(1) مونتجمرى وات، الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة 2001م، ص237 - 238.

من مشـكلة إلى مشـكلة، ومن أزمة إلى أزمة، يقول النشار: «إن ما يُثار الآن من جدل حول النقاب وزى المرأة لهو قمة التخلف والردة عن صحيح الدين الإسـلامى، إن علينا أن نركز على جوهـر القضايا الدعوية وليس مظاهرها، إننـا نعيش فى عصر انتُهكت فيـه الحرمات واغتُصبت فيه المقدسـات، فهل بالنقـاب تتحرر القدس؟! وهل بهذه القنـوات الفضائية التى باتت كالوباء المنتشر فى جسد الأمة سواءاً كانت داعية إلى العُرى واتخاذ الفنانين واللاعبين قدوة تُحتذى أو كانت داعية إلى اتخاذ الذقن والجلباب قدوة تُحتذى هل بهذه الطريقة أو تلك سيتشـكل لدينا الجيل القادر على حمل الأمانة وإدارة عجلة الـصراع الحضارى الضـارى بين الأمم حالياً؟ هل بهذه الطريقة سـننجح فى تربيـة الجيل القـادر على الإلمام بالمعـارف العصرية وقيادة الأمـة إلى التقدم العلمى المنشود الذى هو جوهر هذا الصراع الحضارى الآن؟!.

إنه مما يراد بنا هذا التطرف يميناً ويساراً، إنه مما يراد بنا أن يتأرجح شبابنا بين السير فى هذا الإتجاه أو ذاك! وتكون النتيجة هى هذا التخلف الحضارى الذى نشـاهده، فهو إما شباب اسـتمع لهؤلاء الذين يدّعون أنهم أئمة الدعوة وهـم أبعد ما يكونون عنها باستمسـاكهم بالمظاهر دون الجوهر، أو شـباب نافر رافض لحضارتنا وقيمنا ويسـير فى الشوارع متسكعاً متعرياً لاهثاً وراء شهوة يُشبعها أو ناصية شارع يجلس عليها ليضيع وقته هدراً»[1].

شـبابنا يضيع ونحن نغرق فى خلافات سـطحية العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر، ولو تُركت كليةً ما قدمت ولا أخرَّت.... ولكنها السفسطة التى تضر ولا تنفع.

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص30.

إننا نفتقد بحق لغة الحوار، ولعله السبب الرئيسى الذى يقف وراء تشرذم الأمـة العربية والإسـلامية ومجتمعاتها المحلية، وليس من سـبيل أمام الفرقاء فى عالمنـا القومـى فى ظل هـذه الظروف العصيبـة، إلا أن يقدمـوا المصلحة القوميـة العليا للأمة بشـئ من التسـامح مـع الآخر، والتخلى عـن التعصب الأعمـى للفكرة أو للمبـدأ أو للعقيدة التى يؤمنون بهـا، وليدرك كل الفرقاء والمتعصبـين أن الحقيقة دائماً حمالة أوجه، وأن الوجه الذى يتمترسـون حوله باعتبـاره الحقيقة المطلقة ليس هو عـلى الأقل كل الحقيقة، ومن ثمّ عليهم أن يحسـنوا الاسـتماع إلى وجهة النظر الأخرى لعل فى الاستماع إليها والتسامح معها يكون حل المشكلة أو على الأقل يكون السبيل للتقارب أو للتعايش مع أصحابها، ففى التسامح وقبول التعايش مع الآخر أياً كانت آراؤه ومعتقداته، تكون المواطنة الحقة، ويكون جلاء الإيمان بالتعددية التى فطرنا الله عليها وجعلها أساسـاً من أسـس الحيـاة البشرية سياسـية كانـت أو اجتماعية أو اقتصادية أو إبداعية[1].

إن الدين الحق يجمع ولا يفرق، يوحد ولا يشـتت، قيمه واحدة، وأهدافه واحدة، السـلم والسـلام، والتسـامح ونشر قيم المحبة بين الجميع، وكم كان لـوك معبراً لبنى عقيدته عن تلك المبادئ أعظم تعبير بقوله: «فالدين الحق لم يتأسـس من أجل ممارسـة الطقوس ولا من أجل الحصول على سلطة كنسية، ولا مـن أجل ممارسـة القهـر، ولكن من أجـل تنظيم حياة البشر اسـتناداً إلى قواعد الفضيلة والتقوى، فكل إنسـان يحمل شـعار المسـيح ينبغى عليه أولاً وقبل كل شىء أن يشُـن حرباً على شـهواته ورذائله وذلك لأنه من العبث أن

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص128.

تكون مسيحياً دون أن تكون حياتك مقدسة وأن يكون سلوكك طاهراً وأن تكون رقيقاً ومتواضعاً»[1].

هذا على مستوى أبناء الدين الواحد الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب وطائفة بما لديهم فرحون، أما على المستوى الفكرى، فعلى الفرقاء أيضاً أن يتسامحوا فيما اختلفوا فيه، وأن يقدموا المصلحة العليا لقوميتنا، على المصلحة الخاصة للطوائف والمذاهب فيما يقول أنور عبد الملك: «إن بعض الدعوات السياسية التى تضع شعار العلمانية على رأس أولوياتها وتعتبر ذلك قياس التخلص من الطائفية تقع فى معظم الأحيان فى فتح التراث والهرب المتخفى من شخصيتها الحضارية، وضع المسألة ليس هو العلمانية أم المجتمع الدينى؟ وإنما هو بدقة: المجتمع الطائفى أم المجتمع القومى الموحد؟ والمجتمع القومى الموحد يستطيع أن يختار لنفسه النهج الدينى أم النهج العلمانى..»[2].

التسامح وحده هو القيمة الرئيسية القادرة على انتشالنا من الطائفية البغيضة ولعنات التحزب والتمزق، يقول النشار: «إن التسامح هو القيمة الأخلاقية والدينية الكبرى التى نحن أحوج ما نكون إليها الآن فى هذه اللحظات التاريخية الفارقة فى تاريخ الأمة وربما فى تاريخ العالم، إن على كل الفرقاء فى عالمنا العربى والإسلامى الآن أن يُعلوا المصلحة القومية العليا للأمة بشئ من التسامح مع الآخر، والتخلى عن التعصب

(1) لوك، رسالة فى التسامح، ترجمة د. منى أبو سنة، تقديم ومراجعة د. مراد وهبه، مكتبة الأسرة، القاهرة سنة2005م، ص18.

(2) د. أنور عبد الملك، ريح الشرق، دار المستقبل العربى، القاهرة 1983م،ص30.

الأعمى للفكـرة أو للمبدأ أو للعقيدة التى يؤمنون بها، وليدرك كل الفرقاء والمتعصبين أن الحقيقة دائماً حمّالة أوجه، وأن الوجه الذى يتمترسون حوله باعتباره الحقيقة المطلقة ليس هو على الأقل كل الحقيقة، ومن ثمّ عليهم أن يحسنوا الاستماع إلى وجهة النظر الأخرى لعل فى الاستماع إليها والتسامح معها يكون حل المشـكلة»[1] ويزيد الأمر وضوحاً بقوله: «إن التسـامح والتساهل ونبذ التعصب إنما هى قيمة ينبغى أن يتبناها الأفراد والمجتمعات مـع كل صاحب رأى حر قابل للتطور والتعديل إذا ثبت خطأه، وليس مع كل صاحـب فكر متحجر غير قابل للحوار والتعديل وغير قابل للتعايش مع الآخر، إن التسامح ينبغى أن يكون إذن مع كل صاحب رأى أو معتقد شريطة أن يكون مؤمناً بالحـوار ولديه القابلية للتعايش مع الآخر وقبول التعدديـة، وليس مـع المتعصب المتغطرس غـير القابل للحـوار والرافض للتعايش السلمى مع الآخرين»[2].

إذن يمكننـا التغلـب عـلى الإختلافـات الفكريـة والأيديولوجيـة، بـل والعقائديـة من خلال التسـامح، لأنه هو السـبيل الوحيـد لصناعة النهضة وسـط هذه التعددية، فالعالم لن يهمه العقيدة أو الفكر بقدر ما يهمه نتائج تلك العقيدة أو هذا الفكر من وحدة وتقدم ورقى تصنعه الأمم، فأمريكا لم تتقدم إلا عندما ألغت الفوارق بين السود والبيض وقضت على تلك العنصرية وجعلـت المعيار الوحيد فى صناعة تقدمها هو الكفاءة لا اللون ولا العقيدة، ورأينا ورأى العالم بأسره الرئيس أوباما، ذلك الأسـود الذى لم يكن له ولبنى

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة ص138.
(2) نفس المصدر، ص142.

جنسه مكان فى أمريكا فى يوم من الأيام أصبح رئيسها، ثم تتجلى إرادة القدر فى قمة التسامح فى اختياره لمنافسته فى الانتخابات الرئاسية هيلارى كلينتون لتكون وزيرة لخارجيته، وفى اختياره لنائبه بايدن وهو الأبيض ليس بالأسود، رغم سوء العلاقة التاريخية بين البيض والسود، لعلها كانت ثمرة المساواة الحقيقية، لا فى أمريكا وحدها، بل وفى العالم بأسره.

فهل آن الآوان للإصطفاف خلف القومية لا الحزبية أو الطائفية، إنه الأمل الوحيد فى صناعة نهضة حقيقية للقومية العربية والإسلامية، لنعلى من قيمة التسامح، لتتصافح قلوبنا مع اختلاف توجهاتنا بالمثل تماماً كما تتصافح أيدينا، وأن تكبر قلوبنا بالمحبة والسلام والوحدة كما تُكبر ألستنا فى العيدين، ولنتذكر حديث وزير خارجية فرنسا: «لقد قامت فرنسا بكل الفرنسيين ولم تقم بالأرثوذكس فقد أو بالبروتستانت فقط؟

فهل آن الآوان أن تقوم قوميتنا العربية بكل العرب لا باليسارى وحده أو باليمينى وحده أو بالإخوانى وحده أو بالسلفى وحده، بل هم جزء من هذه القومية مهمومون بهمها ومشغولون بنهضتنا ورفعتها، ذاك فقط هو المناط الحقيقى لصناعة نهضة قومية يقف لها العالم على قدم وساق.

رابعاً: دور الشباب

من المسئول الحقيقى أمام التاريخ عن صناعة النهضة القومية التى نطمح إليها؟ أهم جيل الشيوخ وكبار السن، أم جيل الشباب الذى هو الوقود والزاد، والذى نصر رسول الله ﷺ فكان قادة جنده من الشباب... والمجاهدين من الشباب.... والرسل الدعاة من الشباب.... والنبى ﷺ كان يقدم الشباب،

وينزل على رأيهم، ولذا انتصر الإسلام فى ضعفه على الوثنية فى أوج قوتها، وما انتصر إلا بهؤلاء الشباب الذين كانوا مصدراً لقوة الإسلام.

واليوم، ونحن نريد إعادة البناء، فإن الشباب هم القادرون على قيادة ذاك البناء، فبدونهم لا نهضة ولا بناء: «إن الحقيقة التى ينبغى أن يدركها الجميع حكاماً ومحكومين رجالاً ونساءاً، أن الشباب فى أى أمة هم وقود نهضتها وعدتها لمستقبلها الأفضل ومن ثمّ فإن التنبؤ بمستقبل أمة يكون من خلال النظر فى إمكانيات شبابها العقلية والبدنية ومدى استعدادهم لأن يكونوا قوة دافعة بناءة تستطيع الإضافة والإبداع بلا تقليد أو اتباع»[1].

إذن، فلتدفعوا الشباب إلى المقدمة، وليصطف الجميع خلفهم، فهم وحدهم القادرون على صناعة النهضة، نعم قد يعوزهم التوجيه والإرشاد، ولكن لا تعوزهم أبداً القوة والإرادة، يقول النشار كـ «وإذا كنا نعلم علم اليقين أن قوة أى مجتمع فى قوة شبابه، وقوة أى أمة فيما تملكه من معرفة، فإن الثانية مرتبطة بالأولى، فالشباب هو وحده القادر على حمل أمانة المعرفة وتحصيل العلم المعاصر، وهو وحده القادر فى مستقبل الأيام على قيادة الأمة نحو التقدم والرفعة فى كل مجالات الحياة ومواجهة الآخر بكل صور القوة»[2].

إن الشباب هم دعائم وسواعد تلك النهضة، هم الأساس والبنيان، وبدونهم لا أساس ولا بناء، هم الأداة الحقيقية للتجديد والتحديث، فلا تجديد ولا تحديث إلا بالثقة فى هؤلاء الشباب وفتح كل الطرق أمامهم بموضوعية وشفافية، وبلا واسطات أو محسوبيات، فقط عبر مبدأ « كلُ حسب مؤهلاته»، وعلى بساطة

(1) د. مصطفى النشار، بين قرنين، ص65.
(2) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص30 - 31.

هـذا المبدأ وعبر الاقتناع بأهمية هذه الاسـتراتيجية المخططة للاسـتفادة من كل طاقات الشـباب فى كل المجالات، فعلى ذلك وعبر ذاك سـيكون الطريق مفتوحـاً أمام مجتمعنا العـربى للنهوض من كبواته الحاليـة، وبقدر الجدية فى تنفيذ هذه الاسـتراتيجية وفق ذلك المبدأ سـتكون سرعة تقدم المجتمع نحو المشاركة الفاعلة فى الحياة المعاصرة للمجتمعات المتقدمة[1].

ويؤكد النشـار على مساندة الشباب بكل وسيلة ممكنة لا أن نضع أمامهم العراقيـل ثم نطالبهم بالإبداع، وأنّى يأتى هذا الإبداع، فنراه يقول: «إننا دائما نضـع العربة أمام الحصـان، إذ نطالب الشـباب بالجدية والعطـاء والإبداع دون أن نوفـر له آليـات الإنتاج، نطالبه بأن يكون مبدعـاً دون تدريبه على كيفيـة الإبداع، وعلى كيفية فك قيود الجمود والتلقـى، نطالبه بالعطاء دون أن نوفـر له قبل ذلك الأمان والاسـتقرار فى حياته الحاضرة ودون أن نطمئنه على غـده! نطالبه بالجدية فى الوقت الذى يرى فيه أن حياة أمته مصابة بداء اللامبالاة والتخبط العشوائى فى كل شىء، من اللانظام المرورى إلى اللانظام الضريبى!! باختصار لقد افتقد الشباب القدوة فى جيل الآباء، فافتقد الإنتماء والاحترام لهذا الجيل»[2].

ما المخرج إذن؟

فتح كل السُـبُل أمام الشـباب للقيادة والعمـل، وإماطة كل العراقيل من طريقهـم وتوجيههـم الوجهـة الصحيحة التـى تصنع نهضة عربيـة وقومية لا مثيل لها، ذاك فقط هو الأمل، وهذا فقط هو المخرج.

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص179.
(2) د. مصطفى النشار، بين قرنين، ص66.

فما المانع من تولية الشباب للقيادات، للمؤسسات، والشركات، والدفع بهم فى البرلمانات العربية، وتقديمهم إلى مواقع القيادة فى العمل والإنتاج بدلاً من فرض الوصاية عليهم، فهذا الفكر العقيم سبب تأخر قوميتنا رغم توافر مقوماتها، واستبدال هذه الثقافة العميقة بثقافة تجديد الدماء بالشباب دليل ثقافة التقدم والتحديث، يقول النشار: «إن ثقافة التقدم تدفع بالمهرة من الشباب إلى المناصب القيادية فى كل مجالات العمل، بل وتسمح لهم بالخطأ مرة واثنين، وهى تعرف أنهم فقط من يتعلمون من أخطائهم وهم وحدهم من يستطيعون أن يطوروا من أدائهم ولديهم الطموح والقدرة على ذلك، ومن ثمّ ينجح هؤلاء فى قيادة المجتمع إلى آفاق أوسع ويحققوا له المكاسب تلو المكاسب، وليقارن كل منا بين ما يحدث فى مجتمعاتنا المتخلفة وبين المجتمعات المتقدمة، و إذا ما حدث وتمت المقارنة ستجد أن معظم رؤساء مجالس إدارات الشركات الكبرى، رؤساء مجالس إدارات البنوك الكبرى، رؤساء مجالس إدارة المشروعات الكبرى، رؤساء الحكومات والوزارة ورؤساء الجامعات والهيئات كلهم بين الثلاثين والخمسين على أقصى تقدير، بينما لدينا نعتبر أن هؤلاء لا يزالون أطفالاً يحتاجون لوصاية من هم فوق الستين، بل فوق السبعين»[1].

أليست هذه حقائق مزرية فى شرقنا العربى الذى ما انفك عن القول بأنه صاحب الحضارة والتاريخ والماضى والمستقبل!!

ألم ير العرب رئيس الوزراء البريطانى ديفيد كاميرون ابن الأربعين عاماً ويقود السلطة التنفيذية لدولة من أعرق دول الاتحاد الأوربى؟!

(1) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، ص13.

وألم يـر العـرب فلاديمـير بوتين عندمـا كان رئيسـاً لوزراء روسـيا ولم يتجاوز الأربعين، والرئيس الفرنسى أولاند وغيرهم الكثير.....

أين قناعتنا بأن الشباب هم صانعوا النهضة على الأرض؟!

وأين تنفيذ مخططات دعم وتمكين الشباب العربى؟!

إن الشباب وحدهم هم القادرون على قيادة الأمة، وعلى صناعة النهضة، بـل هم وقود تلـك النهضة، وهـم وقود ثـورات الربيع العربى التـى انقلبت خريفـاً لا خـير فيه، هم أول من طالب بالتغيير فى شـتى الأقطـار العربية، وهم وحدهم القادرون على صناعة هذا التغيير، فقط إذا ما أحسنا استغلال تلك الثروة البشرية التى حبانا بها الله سبحانه ووسدنا الأمر إلى أهله.

خامساً: الوحدة القومية

السـؤال الأكثر الحاًحا من فكر مصطفى النشـار وأنطون سعادة ومالك بن نبى وغيرهم من مفكرى القومية العربية، ما الذى يصنع النهضة العربية، الإقليمية، أم القومية؟!

والسـؤال فى هـذه الصياغة خاطئ منطقيـاً لأنه يوجـه الإجابة فى اتجاه واحد، إمـا ....أو ....إما الإقليمية بمعنى اقتصـار كل دولة من وطننا العربى بحكـم ذاتى واسـتقلال تام عن كافـة الأقطار العربية، و إمـا القومية بمعنى توحيـد المصالح العربية تحت راية واحدة مشـتركة، الهـدف الأول أخطئ التوجه، والهدف الثانى بعيد المنال!!

هكـذا يتحدث الواقع، باسـتقراء التاريـخ وأحداثه، لن نجـد امكانية

واحدة لافتراض وجود القومية بمعناها اليوتوبى ذاك، ولكن من الممكن ميلاد قومية عربية تتحد فيها المصالح و يستقل فيها الحكم وذاك هو السبيل الذى سلكه مصطفى النشار»[1].

ولا مجال الآن للحديث عن منطلقات تلك الوحدة أو دواعيها ومسبباتها فهى ذات منطلقات النهضة التى تحدثنا عنها فى الفصل الثالث «لماذا ومعوقاتها»، أضف إلى ذلك ما يعانيه الواقع العربى من تهددات للحاضر والمستقبل حيث يؤكد فوزى منصور على أن الوجود العربى بات مهدداً، وباتت الحاجة العربية إلى الإتحاد ملحة أشد مما مضى، و إلا فالبديل قاس، وقاس جداً، حيث خروج العرب من التاريخ: «إذ ليس للوطن العربى ككل ولا للأجزاء المكونة له مستقبل خارج مشروع توحيد قومى، و يرجع ذلك إلى أنه ليس هناك مستقبل لذلك الوطن خارج مشروع للتنمية المعتمد على النفس المتمركزة حول الذات»[2].

وفى ذات اطار التهديدات والوقوع تحت نير وطأتها أيضاً يقول د. عودة بطرس عودة: «المؤكد بفعل معطيات الواقع أن جميع الأقطار العربية الآن باتت تحت ضغط الخطر الإسرائيلى الأمريكى، وأنه لا سبيل لمواجهة هذا الخطر بغير وحدة تتجمع فى اطارها وتحت لوائها كل ما لدى جميع هذه الأقطار من قوى عسكرية وامكانات اقتصادية وما تختزن الأمة العربية من طاقات وموارد تكفى، عندما يحسن استخدامها واستثمارها، لحماية وجودها وهزيمة الطامعين فى السيطرة عليها والتحكم بمقدراتها، فلدى كل

(1) انظر د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص265 وما بعدها.
(2) نقلًا عن د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص265 - 266.

دولة عربية جيشها الخاص بها والمسلّح بأحدث الأسلحة، والكثير منها مُعد لمواجهة احتمالات العدوان الاسرائيلى، وهى فى مجموعها تملك أكثر من مليون جندى نظامى وآلاف الطائرات الحديثة وعشرات الآلاف من الدبابات والمصفحات والمدافع وغير ذلك من أحدث المعدات، ولكنها تبقى احدى وعشرين قيادة باحدى وعشرين نظاما تدريبياً بإحدى وعشرين إرادة متعارضة! فماذا لو أنها تتوحد فى جيش واحد وقيادة واحدة، وماذا لو أن ذلك يرتبط بإرادة قتالية واحدة!»[1].

ألم تكن الأوضاع التى نحياها اليوم فى مسيس الحاجة إلى قوة عربية ترد الظالمين عن بغيهم وتردع المعتدين وتحمى ديار ودماء وأعراض أبناء الأمة العربية فى سوريا واليمن وسيناء وليبيا، ألا يستدعى الإرهاب اليوم تضافر تلك الجهود لمواجهته بكفاءة و إرادة وعزيمة، عزيمة الوجود ذاته لأنه يهدد الوجود الإنسانى على الأرض.

ولكن النية غُرست منذ زمن على تفتيت الوطن العربى ليسهل هضمه وامتضاغه، حيث كان الهدف من تجزئة الوطن العربى إلى كيانات جغرافية موزعة بين الدول الاستعمارية الأوروبية بالاحتلال أو بالوصاية أو بالإنتداب والحماية أو بالمعاهدات غير المتكافئة هو تفتيت الأمة العربية وتمزيقها شر ممزق، ليسهل على الاستعمار إحكام السيطرة على هذا الوطن واستغلال موارده وثرواته وموقعه الاستراتيجى، وكذا ليسهل عليهم عكوف كل أبناء جزء بالمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يواجهونها فى الجزء الخاص بهم من هذا الوطن، وبذا يفتتون نضال الأمة ويُميعون قضاياها.

(1) د. عودة بطرس عودة، الوحدة هى الحل، ص82.

وعلى الإنسان العربى أن يتساءل لماذا ظلت الحكومات العربية المتعاقبة بعد الاستقلال متمسكة بما صنع الاستعمار؟

ولماذا غدت الحدود التى رسمها الاستعمار من أقدس المقدسات التى تكرس وضعيتها أجهزة الدولة، وتتساوى فى ذلك الآن غالبية الدول الإحدى وعشرين الذين يشكلون عضوية الجامعة العربية؟

ولماذا غدت هذه الحدود سدوداً فى وجه العربى وعقبات أمام رؤوس الأموال والتجارة العربية؟

لمصلحة من هذه التجزئة وتلك الإقليمية البغيضة؟

ويا ليت أنظمة الحكم العربية تقبل بالاحتكام إلى استفتاء حُر فى جميع أقطار الوطن العربى حول الوحدة، ويا ليتها تكون مستعدة لاحترام إرادة ورغبة الشعب العربى بمثل ما فعلت الألمانيتان فى العام 1990م.

ولكن أنى يحدث هذا؟!

إن الشىء المحزن بحق أنه بعد التحرر من الاستعمار وارتفاع رايات الاستقلال فى أرجاء الوطن العربى كله، قامت فى كل أجزائه التى صنعها الاستعمار على عينه، أنظمة حكم عربية استبدادية انتهجت سياسات اقليمية مؤداها الحفاظ على الحدود كما ورثتها من الدول الاستعمارية، فمنطقة المشرق العربى على حالها كما رسمتها معاهدة سايكس بيكو، ومنطقة المغرب العربى على حالها كما كانت أيام الاستعمار الفرنسى الايطالى الإسبانى عليها، والأنظمة التى قامت فى هذه الأجزاء التى صنعتها الدول الأوروبية الاستعمارية تتبع سياسة اقليمية على أساس ما ورثته، ولقد أصبحت هذه

الأنظمة شديدة الحرص على هذه الإقليمية، وتسخر كل إمكانات الدولة وأجهزة الحكم ومؤسساته لترسيخها وتعميقها فى ذهن ووجدان الإنسان العربى، لتصبح لديه القناعة الكاملة بأنه ينتمى إلى جزء من الوطن وليس إلى الوطن كله، وأن مصيره مرتبط بهذا الجزء الإقليمى وليس بالوطن القومى.

علينا أن ندرك أن سيادة الإقليميات العربية الشكل وحرص القوى الحاكمة فى وطننا العربى على التمسك بهذه الإقليميات والتجزئة إلى حد الاقتتال فى سبيلها، هذا الواقع المزر هو مما يشجع السياسات الدولية على التلاعب بالقضايا العربية والعبث بالمصير العربى، فهذا الواقع العاجز عن الفعل ورد الفعل كما أثبتت الأحداث هو الذى يشجع أمريكا والغرب على اتمام استهتارهم بالوطن العربى وتوجيه طعنات متلاحقة للكرامة العربية، يقول د. عودة بطرس: «إن الإقليميين أو دعاة الحفاظ على الكيانات الإقليمية القائمة ينظرون إلى الأمور بمنظار مصالحهم الذاتية وليس بمنظار المصلحة الوطنية أو القومية، فالمصلحة الوطنية تقتضى أن يكون الواقع العربى قادراً على استثمار الإمكانات والموارد العربية لبناء القوة القادرة على حماية كل شبر من وطننا العربى، ولا يتحقق ذلك كما أثبتت تجارب الأنظمة العربية ذاتها إلا إذا أمكن تجاوز الإقليمية منطقاً وسلوكاً وممارسة، والمؤسف أن الإقليميين لكونهم أسرى مصالحهم الذاتية العابرة يرفضون التوجهات القومية ويوغرون صدور الذين بأيديهم الحل والربط، بأن مثل هذه التوجهات إنما تستهدفهم كنظام وكأشخاص، وهم بذلك، بوعى منهم أو بغير وعى، يقدمون خدمات جليلة للعدو الصهيونى وللقوى الدولية الطامعة فى الوطن العربى بكل كياناته الإقليمية»[1] ويستطرد مؤكداً أن الوحدة هى

(1) د. عودة بطرس، المرجع السابق، ج1، ص22.

السبيل الأوحد لتحرير كافة الأراضى العربية فيقول: «لا يكفى أن نقول: إن البديل هو الوحدة ونكتفى بذلك، و إن الوحدة هى سبيل القوة للأمة العربية التى بها دون سواها يمكن هزيمة العدوان واسترداد الوطن السليب ونكتفى بذلك، و إنما يجب أن يكون هناك مخطط مدروس يهدف إلى تربية وتنشئة الإنسان العربى على أساس أن الوحدة هى الحل للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها من المشكلات التى لا يخلو منها قطر عربى، وهى السبيل إلى تحرير فلسطين»[1].

لقد كانت الوحدة العربية محط آمال عظام المفكرين الوطنيين أبناء القومية العربية، نذكر أنطون سعادة، المفكر السورى الحر، الذى كان يدعو إلى وحدة تجمع منطقة الشام و يطلق عليها «سوريا الكبرى» لتضم شتات العرب فيقول: «تمتاز سوريا فى العصر الحاضر بأنها بلاد تضم عالمين مختلفين، يزحم أحدهما الآخر و يتصادمان، ولابد من سقوط أحدهما لا قيام له بعده، هذان العالمان هما عالم النهضة القومية، الذى رأى النور فى سوريا وأخذ يُغذى أمم العالم العربى بمبدأ القومية الذى يعنى مبدأ التقدم والارتقاء، وعالم التقاليد الرجعية، الدينية والإقطاعية، الذى أنشا لنفسه منذ القدم حصوناً قوية فى سوريا، يدافع فيها عن مبدأ الدولة الدينية أو الثيوقراطية، و ينادى أمم العالم العربى للتشبث به، بين هذه المبدأين يجرى الآن صراع هائل، يتوقف على نتيجته ليس فقط مصير سوريا، بل مصير الشرق العربى اللسان»[2].

(1) المرجع نفسه، ص63.

(2) أنطون سعادة « فى السياسة الدولية والوضع السورى « نقلًا عن د. مصطفى الفقى، تجديد الفكر القومى، دار الشروق، القاهرة، 1999م، ص32.

مـضى على هذا الحلم السـورى عقود، فما بالنا لو علم أنطون سـعادة بما حدث لوطنه السـورى اليـوم، تلك الفاجعة التى أصابـت كل قلب عربى، وكل ضمـير عربى حـر، تلك المأسـاة التى كانـت دافعاً رئيسـاً لفكرة هذا الكتـاب، ولاختيـار مفكر عربى حر من النخاع حتـى أخمص القدمين مثل مصطفى النشار!!

ماذا عن مصير تلك الوحدة؟!

لتكـن فى سـوريا أو فى اليمـن أو فى مـصر أو فى تونـس!! لتكن أينما تكون، ليس المكان مشـكل بأى حـال، ولكن المبدأ ذاته هو الإشـكالية الكبرى، ولكم بلغ الحس الوطنى لعودة بطرس وهو يتحدث بلهجة الحزن والألم قائـلاً: " إن المنطـق الـذى يتحدث بـه أصحاب القـرار العرب فى مؤتمراتهم وبياناتهم الرسـمية والإعلامية يوحى للإنسان العربى بأنهم على وشـك التلاقى على أساس من الثقة فى وحدة نابعة من التجارب الوحدوية التى مرت بها الأمة العربية، فكل واحد منهم على انفراد يدعو فى العلن إلى الوحدة، لا أحد يقول أنه مع الإقليمية ضد الوحدة، كلهم بدون اسـتثناء يدعـون إلى التضامن ويرفقون ذلـك بالقول ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفـال: 60] وكلهـم يدعـون إلى التكامل الاقتصـادى وحرية التبادل التجارى وكلهم كانوا يتبارون فى الدعوة إلى تحرير فلسطين حيث أولى القبلتـين وثالث الحرمين الشريفين فى بيت المقدس. ولكن القول شىء والفعل شىء آخر.

ومـا قيمة القـول إذا لم يقـترن بالفعل، وبالتـالى ما قيمـة كل القرارات التـى اتخذت مؤتمـرات القمة وغيرها مـن المؤتمرات المتعاقبـة وعلى الأخص

ما يتعلق منها بعروبة فلسطين، ناهيك عما اتخُذ بشأن الوحدة الاقتصادية والمشروعات التنموية المتشركة»[1].

والسؤال المؤلم، والذى يصل ألمه إلى حد القتل لأصحاب الضمائر الحية، أليس ما يحدث اليوم فى القدس الشريف داعياً إلى الوحدة، وبأسرع وقت ممكن؟ أليس ما يحدث فى سوريا بداع إلى الوحدة؟

أليس ما يحدث فى ليبيا والعراق بداعٍ إلى الوحدة؟

وأين موقع الاعتداء الأمريكى على العراق فى ظل الوحدة لو تمت منذ زمن؟ بل وأين موقع الاعتداء الأمريكى والغربى على الأقليات المسلمة لو كان هناك كلمة موحدة لأمة المليار؟!

ثم يبقى التساؤل الآن، هل فقدنا كل أمل فى إقامة تلك الوحدة؟!

نعم ولن نفقد الأمل أبداً، وعلى الذين يظنون تلك الوحدة حُلماً بعيد المنال، لقد نسيتم حركة التاريخ بكل أبعادها، نسيتم الحكمة الإلهية فى تداول الأيام بين الناس، ولولا ذاك التداول لما كانت هناك حياة، لولا حركة التاريخ لظلت الدولة العربية الإسلامية الممتدة من أقصى غرب أفريقيا على المحيط الأطلسى حتى تخوم الصين، أو لظل الوطن العربى بعد ضعفه وتشرذمه على حاله، ولمكث هذا الوطن بعدئذ جزءاً من الامبراطورية العثمانية، أو لمكث الغزاة الصليبيون على أرضنا، أو لظل الاستعمار الأوروبى جاثماً فوق صدورنا، أو لظلت المستعمرات البريطانية والفرنسية فى أرجاء المعمورة لا تغرب عنها الشمس..

(1) د. عودة بطرس، الوحدة هى الحل، ج1، ص32،33.

الأيام دول يا سادة .....

وأين الاتحاد السوفيتى فى سجلات التاريخ ..... بل وأين الحضارات التى اندثرت من قبل؟!

الاتحاد الأوروبى الذى تكون بالأمس سيتفكك غداً.

جمعته المصالح، وستُفرقه الأهواء عمَّا قريب، وصدق الله العزيز العليم ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: 14] والأمة العربية التى ما التقت منذ صلاح الدين، حتماً ستلتقى يوماً، وحتماً ستصنع النهضة وتحقق الوحدة.

لقد حققت أوروبا وحدتها بنهاية العام 1992م، حيث فتحت جميع دولها حدودها أمام تجارتها البينية وأمام مواطنيها.

أما نحن فى الوطن العربى فما زالت التجارة البينية أقل من 9 % من الحجم الإجمالى للتجارة العربية وفق التقارير الرسمية، والحدود الإقليمية لا زالت مغلقة فى وجه الإنسان العربى، والقيود التى تحُد من حركة رؤوس الأموال العربية لازالت قائمة.

أفيقوا يا سادة، فالتاريخ لن يرحم أحد، وليس اليوم بمدعاة للكسل ولن يتحمل الوضع القائم المتكاسلين، بل لن يعذر حتى المقصرين الذين يعلمون سُبُل الخلاص و يتقاعسون عن الطلب بها.

لقد بلغنا اثنان وعشرون دولة عربية، بتعداد سكان 354310606 مليون نسمة، أى فاق عددهم ثلاثمائة وخمسين مليوناً، على مساحة تُقدر بالثانية عالمياً بعد روسيا، ومجموع سكان العروبة الرابع عالمياً بعد الصين والهند

والاتحاد الأوربى[1] بما يعنى أننا أكبر مساحة من الصين والاتحاد الأوروبى، وأقل عدداً منهما، ومع ذلك لم نفلح فى تحقيق أى نهضة تُذكر فى حين حققها الأقل منا مساحة والأكثر عدداً.

إذن ليس العيب فى الزيادة السكانية، فأوروبا والهند والصين أكثر منا عدداً ومع ذلك نهضوا، لأنهم سموا الزيادة السكانية ثروة بينما سميناها نحن أزمة.

وليست المشكلة فى المساحة، فهم أقل منا مساحة، ومع ذلك تقدموا، ونحن الأوفر مساحة وموارد طبيعية حبانا الله بها، ومع ذلك ضعفت إرادتنا عن تحقيق أى نهضة تُذكر.

أليس هذا وضعاً مخجلاً للكرامة العربية ومزرياً للنفس الأبية صاحبة الضمير الحى؟

أليست دواعى ومسببات وحدة هذا الوطن أقوى بكثير من دواعى ومسببات وحدة أوروبا الغربية التى ينتقل فيها الانجليزى والألمانى والفرنسى واليونانى وبقية الأعضاء الإثنى عشر كما لو أن الواحد منهم ينتقل فى أرجاء وطنه رغم ما بين جميع هؤلاء من فوارق فى القومية واللغة والتاريخ والدين والحضارة فى حين أننا فى الوطن العربى بقومية واحدة ولغة واحدة، وبتاريخ ومصير مشترك، وحضارة واحدة و إيمان بإله واحد أحد.

ألا تكفى هذه الدواعى لإتمام الوحدة؟ تلك التى يراها ساطع الحصرى فى عاملين اثنين فقط، وحدة اللغة، ووحدة التاريخ، وما ينتج عن ذلك من

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص267.

مشـاركة فى المشاعر والمنازع، وفى الآلام والآمال، وحيث أن جميع الناطقين بالضـاد جميع أبنـاء البـلاد العربية، تتوافـر فيهم هذه العنـاصر والمقومات الأساسية، ولذا فهم قادرون على تكوين أمة واحدة[1].

وأضيف إلى عاملىّ سـاطع الحـصرى عامل وحدة الدين، فمعظم سـكان الدول العربية مسلمين، وهذا أدعى إلى اتحادهم، خاصة إذا كان المستهدف تمزيقهم للنيل من مقدساتهم!!

ألم يشـعل الغـرب فتنة السـنة والشـيعة لتقوم المعـارك بين أبنـاء الدين الواحد، ثم فى الوقت الذى ينشغل فيه المسلمون بقتال بعضهم البعض يجتاح المستوطنون اليهود باحات المسجد الأقصى!!

أنظروا حولكم يا سـادة، هل من حرب فى العالم الآن غير الحروب التى عتادها ووقودها المسلمون!!

هـل مـن منطقـة فى العـالم اليوم يـدور فيهـا صراع واقتتال غـير الأمة المسلمة؟!

أليس الإسلام بالقوة القادرة على جمع هذا الشتات، فيما يقول محمد عمارة: «بالإسـلام خرج الإنسـان العربى من إطار القبيلة وضيقهـا وتشرذم القبيلة وضياعها إلى رحاب الدولة والأمة والإنسانية.... وبالإسلام انتقلت الجماعة العربيـة من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة وتنويرها، وبالإسـلام تحولت هذه الأمة مـن طائر مهيض الجناح تتخطفه الجـوارح والكواسر من الروم

(1) ساطع الحصرى «أبو خلدون» مقال منشور فى مجلة العربى الكويتية، فبراير 1959م، نقلاً عن د. مصطفى الفقى، تجديد الفكر القومى، ص48.

والفرس والأحباش، إلى عملاق بهر الدنيا بالقوة والعقل والسيف والقلم على حدٍ سواء»[1].

ألم يكن الإسلام قد أقام دولة موحدة بعد الصراع والشتات، وبعد الحرب والاقتتال، وبعد العداوة والبغضاء، تلكم كانت دولة المدينة التى أصلح فيها الإسلام العلاقة بين الأوس والخزرج من ناحية، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار من ناحية أخرى!! أليس هذا واقع الإسلام وتاريخه المضئ؟!

ولكن أنىّ بالوحدة القومية تلك، والمسلمون ذاتهم منقسمون إلى طوائف وأحزاب، فئة يسارية، وفئة قومية، وفئة إخوانية، وفئة سلفية، وفئة ليبرالية، وفئة لا نعلم لها اسماً!!

أليس هذا هو واقع الأمة التى ماانفكت تردد أنها خير أمة أخرجت للناس، وتكثر من الترديد ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: 143] أين الخيرية وأين الشهادة إذن؟

بهذا الواقع الذى أصبحنا فيه غثاءاً كغثاء السيل، فلا خيرية ولا شهادة على الناس!!

بهذا الواقع الذى تداعت علينا فيه الأمم كما تتداعى الأكلة حول قصعتها فلا خيرية ولا شهادة!!

وزاد الطين بلة أن ظهر هؤلاء الذين يعارضون الوحدة بأى نوع وتحت أى مسمى، ويطالبون بإقامة دولة الخلافة!!

(1) د. محمد عمارة، الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى، دار المستقبل العربى، القاهرة، ط1، سنة 1985م، ص5.

لك الله يا أمة العرب؟!

فكم أفلح الأعداء فى تمزيقك بما بثوه فى نفوس البلهاء من سموم يوقدون بها حرباً داخلية بنذاتية لا تبقى ولا تذر!!

وأليست أوروبا الآن تنعم بالخلافة يا سادة؟!

أليس جوهر الخلافة الوحدة والإتحاد، وحدة المصالح والاتحاد عند المخاطر؟!

أليس هذا هو جوهر الخلافة الإسلامية؟!

إذن الوحدة التى ننشدها فى جوهرها خلافة، وليس شرطاً أبداً لإتمامها أن يرضخ الجميع لحاكم واحد اسمه الخليفة أو أمير المؤمنين، بل الأهم ايجاد تعاون مشترك وقت الرخاء، وقوة مشتركة وقت الشدة، وليكن اسمها ما يكون.

إذن لا تعارض أبداً بين الوحدة والخلافة، فكلاهما نظام سياسى، ولم تكن الخلافة جزءاً من منهج الإسلام أو شعائره، بل كانت اجتهاداً محضاً من الخلفاء الراشدين، يقول على عبد الرازق: «والحق أن الدين الإسلامى برئ من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون وبرئ من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة وقوة، والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية، كلا ولا القضاء، ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة، و إنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها فهو لم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، و إنما تركها لنا، لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة»[1].

(1) على عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993م، ص7.

ويذهب عصمت نصار إلى أن سائر تيارات الفكر - باستثناء الشيعة الإمامية - مُجمعة على أن «الدولة - الخلافة - الإمامة» هى من الفروع وليست من أصول الدين وأركانه، وعليه فيجب تصنيفها تحت أحكام وأوصاف الفكر «الصواب والخطأ» و«النفع والضرر» وليس تحت أحكام وأوصاف «الكفر والإيمان»[1].

إذن هى محض اجتهاد، وحيثما أعملنا عقلنا فى جوهر هذا الاجتهاد فهو والاجتهاد ذاته سواء، فحيثما تمت الوحدة فثمة خلافة، وحيثما اجتمعت المصالح وتوحدت الأهداف فثمة خلافة، فالأمر برمته يرجع إلى الاجتهاد، يقول النشار: «لقد كانت الفتنة بين الإمام على ومعاوية مجرد خلاف سياسى لا علاقة للدين به، لأن الرسول ﷺ لم يحدد للمسلمين حاكماً، والخلافة لم تكن من صميم القرآن والسنة، وهى اجتهاد فى كيفية إدارة أسلوب الحكم»[2].

لقد باتت الحاجة الآن وشيكة إلى الأمة الواحدة المتحددة جوهراً لا عرضاً، وليكن اسمها ما يكون، خلافة، وحدة، تكامل، فلتسموا ما شئتم، فليست تلك هى القضية، بل ولا هى من صميم القضية، بل ولا مما يتصل بالقضية لا من قريب ولا من بعيد، بل الأهم هو تحقيق الوحدة والتكامل بين أبناء الأمة الواحدة واللسان الواحد والدين الواحد، لذا ينادى النشار على أبناء الأمة المتناحرين والمتشاكسين بقوله: «أيها السادة الذين يشغلكم أمر شبابنا وأمر تقدم هذا الوطن وأمر نقاء عقيدته وقوة تدينه، إن قوة العقيدة

(1) د. عصمت نصار، وجهان لعملة زائفة، ص395.
(2) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة ص61.

الإسلامية تكمن فى قوة العقلية المؤمنة بها والقادرة على مجادلة خصومها ومحاورتهم بالحسنى وبالحجة وبالبرهان العقلى»[1].

إن لحظة عقل واحدة، ولحظة إخلاص واحدة، ولحظة إدراك واعى واحدة، تنقلنا من الإقليمية إلى القومية، ومن الوحدة الفردية إلى الاتحاد الجماعى، وكفى بالقوم نذيراً مما يحدث حولنا، وعلى الذين ركنوا إلى تركيا واطمأنوا لها فى إقامة خلافة، كفى بتلك الصفعة التى صفعتكم بها تركيا نذيراً، فهى ذاتها لا نريد تلك الخلافة التى وضعتموها أنتم موضع القائد لها، ولكنها تسعى حثيثاً للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، لأنها تعى ذاتها، وتحدد غاياتها وأهدافها بكل دقة، وتعرف طريقها جيداً، ولا نلوم عليها، فهى تبحث عن مصلحتها العليا، بل نلوم فقط على أولئك الذين يحملون السلاح باسم الإسلام، وباسم الخلافة، ولم يكن الإسلام يوماً ما يقوم على السلاح، ولكنه غذا قلوب الناس بسماحته ورحمته ورأفته بهم، فهل نعى هذه الدروس يا سادة.

هل توحدنا المخاطر من جديد؟ وتجتمع كلمتنا، وتتوحد رايتنا، ونسبح جميعاً باسم الله، ونخلص القلوب له سبحانه لنحقق الأمة الواحدة ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92] أم سنظل أمة تحركها الأهواء ويتلاعب بها الأعداء كيفما شاءوا؟!

أفيقوا يا سادة، فالوقت لم يعُد يتحمل التأخير، فنحن فى مفترق الطرق اليوم، إما أن نكون، وإما ألا نكون، ونحن قادرون على أن نكون خير أمة بحق، وأقوى أمة فقط إذا أخذنا بدعائم وأسباب وحدتنا، وإذا ارتكزنا على مسببات نهضتنا.

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة ص28.

ماهية الوحدة:

يمكننا الإنطلاق من وحدة اللسان ووحدة الحضارة ووحدة التاريخ ووحدة الدين فى غالب الأمر إلى تكوين وحدة جوهرية تقوم فى ناحيتين، الأولى تكتل اقتصادى قومى يجمع الأموال العربية والتجارة البنذاتية، والثانية إنتاج تكنولوجيا عربية، ويمكننا عرض هاتين الدعامتين فيما يلى:

أ- تكتل اقتصادى قومى:

لم تصنع أوروبا نهضتها الحقيقية وقوتها إلا عندما توحدت فى مطلع العام 1992م، فأصبحت قوة اقتصادية عملاقة تؤثر فى الاقتصاد العالمى بأسره بفضل السوق الأوروبية المشتركة، ونحن كأمة تسعى للنهضة وبناء قومية واحدة ممتدة على جسر من المصالح المشتركة ومدعومة بأسس البناء من عقيدة ولغة وتاريخ وحضارة، لابد لنا من إنشاء وحدة اقتصادية على غرار السوق الأوروبية المشتركة، فقد بات هذا التكتل الاقتصادى ملحاً للغاية، يقول النشار: «إن التكامل الاقتصادى العربى ضرورة يحتمها التاريخ وتحتمها الجغرافيا وتستلزمها الحاجات المتنامية للشعوب العربية فى اللحظة الآنية كما فى المستقبل القريب والبعيد على حدٍ سواء، والغريب أننا جميعاً كعرب نعى هاتين الحقيقتين الناصعتين.

1- أن الإمكانيات العربية كموارد بشرية وطبيعية كافية كأساس أولى خام للتكامل الاقتصادى العربى، وأن حسن استغلال هذه الموارد بإمكاننا تماماً لو صدقت النوايا وتوحد الهدف الذى يسعى الجميع

إليـه، وهو تنمية اقتصادية عربيـة لصالح رخاء كل العرب دون تمييز بين دولهم وديناتهم وأشكالهم!

2- أنه كلما اندمجت كيانات جغرافية كانت منفصلة من قبل من الناحية الاقتصاديـة زادت قـدرة الكيـان الموحـد الجديد على الاسـتفادة من الموارد المتنوعة التى توضع تحت تصرفه واتسعت سوق منتجاته وتمتع الكيان الجديد بمزايا التكامل الاقتصادى الأخرى المألوفة»[1].

قد تكون هذه حقائق فعـلاً، ولكن الواقع يضاد هذه الحقائق لا تكذيباً لهـا ولكـن عنداً معهـا، حيث تنكفـئ الأقطـار العربية النفطيـة على ذاتها وتعجز عن الاسـتفادة من النفط كسـلعة اسـتراتيجية يمكن بهـا التأثير على القرار العالمى من ناحية، وتحقيق رفاهية الشعب العربى من ناحية أخرى فى حـال تصنيعه، ولكن الدول النفطيـة تصدّر البترول خام بثمن بخس دراهم معـدودة وكانـوا فيه من الزاهدين، ولو أنهم أحسـنوا اسـتغلال تلك الموارد الطبيعية لأصبح الحال غير الحال.

وزاد الطـين بلـة أنه بدلاً من توجيـه الفائض من عائـدات البترول نحو مشروعات التنمية والاستثمارات المشتركة و إعادة بناء و إصلاح الاقتصاديات العربية، كما فعلت ألمانيا الغربية لاقتصاد ألمانيا الشرقية، وجهت إلى البنوك الأمريكية والأوروبية ليزدادوا غنى وثراءاً جراء استثمارهم لأموالنا، وكثيراً من تلك الأمـوال العربية أودع بدون فائدة عملاً بأحكام الشريعة، وغدت تلك الأموال تقدر بمئات المليارات من الدولارات.

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل ص265.

وزاد مـن خطورة الأمر أن هذه الأقطار النفطية الشـقيقة فتحت أبوابها للعمالة الآسيوية والأوروبية من جميع الأجناس، ولم تسمح للعمالة العربية إلا بتقنـين محكم، وفى مجالات محددة وهى التعليم والصحة والإعلام بشـكل رئيسى، وفى المجالات التى لا يُجدى فيها نفعاً غير اللغة العربية.

أضف إلى ذلـك توافر عوامل الإنتاج فى الأراضى العربية وانتشـار المواد الخـام بها، فالأقطـار التى تتوافر فيها العناصر الأساسـية للإنتـاج الزراعى، الأرض والميـاة والحرارة الملائمة للزراعـة والأيدى العاملة، تفتقر إلى الأموال اللازمة للاسـتصلاح والاستثمار، والأقطار الأخرى متخمة بعائدات النفط، ولكنهـا بدون أرض زراعية ولا مياه ولا حرارة معتدلة، وكذا بدون أيدٍ عاملة وطنية، ولا حل لمشـكلات الجميـع إلا بالوحدة، يقول النشـار: «وباعتراف معظـم الاقتصاديـين العالميين لدينا الموارد والمواد الخـام التى تكفى للاعتماد على الـذات فيما يتعلق بالأمن الغذائى وتوفير الحاجات الضرورية للشـعوب العربية، فلدينـا الأرض الخصبة فى بعض الأقطار العربية وهى غير مسـتغلة كما ينبغى، ولدينا الموارد المائية الكافية والمتاحة، ولدينا الصحراء الشاسـعة التى تُستغل حتى الآن، ولدينا إمكانيات هائلة فيما يتعلق بالسياحة والفندقة والآثار، ولدينا المواد التعدينية الوفيرة وعلى رأسها البترول والذهب والنحاس وغيرهـا، ولدينا مع هذا وذاك رؤوس الأموال الكافية لو أُحسـن اسـتغلالها واسـتثمارها فى المشروعات الإنتاجية وليس اسـتثمارها فى البنوك الأوروبية والأمريكية والبورصات الغربية، إن رأس المال العربى ينبغى أن يُعاد ليُستثمر فى وطنه وليسـتثمر فى وطنه وليس فى البلاد الأوروبية وأمريكا»[1].

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص147.

إن إقامة وحدة اقتصادية قومية عربية إسلامية هو المناط اللازم لصناعة قوة قومية حقيقية، قوة قادرة على الدفاع عن مصالحها وصانعة للقرار العالمى ومؤثرة فيه، وليس مجرد مفعول به على الدوام، بل قوة فاعلة، ذات قدرة على الفعل ورد الفعل، ولكن إذا استمر الوضع بهذا التمزق، وبهذا التشرذم فالخطر سيدرك الجميع، يقول النشار: «لأضرب لكم مثالاً واحداً على فقر سياستنا العربية، إنه فى الوقت الذى تتجه فيه كل دول العالم شرقة وغربه إلى الدخول فى تكتلات اقتصادية وتجارية ضخمة تتواجه أو تنفق حفاظاً على حياة ورفاهية شعوبها وحماية إنتاجها، نجد أن التبادل التجارى بين الدول العربية لا تتعدى نسبته 3 % بالقياس إلى نسبة تجارة كل منها مع العالم الخارجى!! فهل يُعقل هذا الأمر بين أناس يدّعون كل يوم فى مؤشراتهم وبياناتهم أنهم أبناء أمة واحدة!! إن السياسات التى لا تزال متبعة فى بلادنا العربية سياسات تابعة فقيرة، لم تصل قط إلى تحقيق الحد الأدنى لآمال الشعوب التى لا تزال تشتاق إلى يوم يتغير فيه الواقع العربى الممزق إلى وحدة اقتصادية تدعم سياسة خارجية مستقلة، وسياسة دفاعية قادرة على حماية أمن ومصالح المواطن العربى»[1].

هذه المشكلة وحدها، مشكلة التجارة البنذاتية، أو العربية العربية كفيلة بإنشاء تكتل اقتصادى عربى ينعم فيه أبناء العروبة جميعاً بخيرات وطنهم، ثم يضع النشار نظرية اقتصادية أشبه بالعدالة التوزيعية عند آرسطو، حيث يأخذ كل فرد حسب إنتاجه وقدر حاجته وفق عدالة فى التوزيع وعدالة فى التسعير، وأن يبُنى الاقتصاد على العمل لا على احتكار السلع وادخار الأموال

(1) د. مصطفى النشار، ضد العولمة، ص280.

فيقول: «إن الاقتصاد والتنمية الحقيقيين يقومان على الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية التى حبانا الله بها، وليأخذ كلُ قدر حاجته وقدر جهده وعمله، وليتم التبادل بين الجميع لفوائض إنتاجهم بعدالة فى التسعير وعدالة فى الاستغلال لحقوق المنتج الحقيقى وهو العامل، فضلاً عن مراعاة المساواة والعدالة التى يتحقق بموجبها الرضا للجميع عاملين وأصحاب رؤوس أموال، إن الاقتصاد الحقيقى هو الاقتصاد القائم على العمل والإنتاج واستغلال الموارد الطبيعية دون الإضرار بالبيئة التى يحيا فيها الإنسان، وأن تكون الملكية فيه من خلال العمل والإنتاج وليس من خلال اللعب بالأموال وكنزها والاستثمار فيها»[1].

إن إقامة تكتل اقتصادى عربى يقوم على جوهر الاقتصاد الحقيقى والعمل بجدية والإنتاج هو الأصل الأكبر فى الخلاص من كافة المشكلات الاقتصادية التى ينتج عنها مشكلات اجتماعية لا حصر لها فى وطننا العربى مثل مشكلات البطالة والفقر والعنوسة والعشوائيات وانتشار المخدرات والإدمان والإنحراف، فكل هذه المشكلات ترجع فى جذورها إلى أزمات اقتصادية، لا حل لها سوى الوحدة القومية، و إلا فالمصير هو الضياع نتيجة لفقر السياسات العربية فيما يقول النشار: «إن فقر السياسة العربية وعدم بلورتها لإستراتيجية موحدة تستند على تحقيق الحد الأدنى من مطالب الإنسان العربى وتحقيق آماله فى ظهور تكتل اقتصادى عربى موحد، ورؤية سياسية تتفق حول الحد الأدنى من المصالح العربية المشتركة، إن هذا قد أدى إلى الآن، وسيؤدى فى المستقبل القريب إلى ما يمكن أن نسميه «صناعة الفقر العربى» إن عاجلاً أو أجلاً[2].

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص148.
(2) د. مصطفى النشار، ضد العولمة، ص282-281.

ثمة حاجة ملحة الآن للتعاون العربى العربى، وللتكتل الوحدوى على كافة الأصعدة، اقتصادياً، وسياسياً، بل وعسكرياً، ما المانع فى صناعة تلك الوحدة، أو ما معوقاتها التى أخرتها عن الظهور بشكلها الصحيح حتى اليوم، إنه للأسف عائق واحد، وواحد فقط يرتأيه النشار بقوله: " والمعوقات معروفة ولا تخفى على أحد، فهى صراع المصالح بين هذه البلاد، وصراع الساسة والحرص على التقوقع خوفاً من الآخر العربى! والخوف فى النهاية على الملكيات والثروات من أن تذوب لصالح العرب جميعاً وليس لصالح أصحابها وتحقيق مصالحهم الذاتية دون مصالح شعوبهم ومصلحة الرخاء العربى ككل، إن افتقاد الزعامات العربية إلى الإخلاص العربى فى العمل الوحدوى سواء كان اقتصادياً أو سياسياً أو خلافه هو مربط الفرس، وهو المعوق الأساسى لأننى أعتقد أن الشعوب العربية متحابة ومدركة تماماً أن مصلحتها فى التكتل والاتحاد وليس فى الفرقة والقطيعة»[1].

ما الحل إذن؟ وكيف المخرج من أزمات يفتعلها القادة العرب، لا حل سوى إخلاص النوايا خاصة فى ظل أوضاع عالمية باتت مهددة للوجود العربى ذاته: «خلاصة القول فى هذا الأمر هو أنه إذا خلُصت النوايا العربية وخاصة نوايا الزعماء والنخب العربية، فإن إمكانيات التكامل موجودة ولا يهم بعد ذلك صورة الآلية التى يمكن أن يتفق عليها لتكون صالحة للعمل الفورى سواء كانت سوقاً عربية مشتركة، أو تكتُل اقتصادى عربى، أو وحدة اقتصادية عربية! فالمهم هو تمكين هذه الآلية العربية للعمل بجدية نحو الاستفادة القصوى من هذه الإمكانيات العربية دون وضع العراقيل

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص149.

أمامهـا ودون خوف على المصالح الذاتية الأنانيـة من الضياع فى ظل التكتل العـربى المنشـود والذى لم يعُـد أمام العـرب بديلاً عنه فى عـصر التكتلات الاقتصادية الدولية وفى ظل محاولات عولمة الاقتصاد»[1].

لا منـاص إذن من إنشـاء تكتل عربى يقـوم على رعاية المصالـح العربية و إعطاء الأولويـة إقتصادياً لأبناء العروبة، هذا التكتل متوافر الإمكانيات منقـوص الصدق والإخلاص، وهما ليس بالشىء الهين، بل هما كل شىء، فهل يستدرك القادة والنخبة ما فاتهم من ضياع للثروات العربية؟! وهل ينفضون عن كواهلهم عبء المصالح الشـخصية ليحلوا محله المصلحة القومية العليا للوطن الكبير، ذاك هو الأمل، والأمل كله فى الله، وكان ربك قديراً.

ب- إنتاج تكنولوجيا عربية:

لعـل السـؤال الأخطـر منهجيـاً على المفكـر العـربى، هل سـنظل مجرد مسـتوردين للتكنولوجيـا الغربيـة دون التفكـير فى صناعتها؟ وهل سـيظل علماؤنـا مجـرد ناقلين لنظرية التشـغيل لا لنظرية الإبـداع، بمعنى أن ينصّب اهتمامهم على تشغيل التكنولوجيا المسـتوردة دون التوجه نحو صناعة تلك التكنولوجيا؟

ربما بالنسبة لى على الأقل - تكون الإجابة صادمة، حيث قلة ذات اليد كما يتعلـل البعض وحيث هجرة العقول العربيـة، وحيث - وهو الأهم - ضعف القرار السياسى العربى عن مثل هذه الخطوة، لكننا فى النهاية نأثم جميعاً لعدم خلق بيئة علمية مواتية للإبداع العلمى والتكنولوجى، وقد أجمل النشار تلك

(1) المصدر نفسه، ص149.

السيئات كلها وكيفية الخروج منها بقوله: «قد يثور البعض قائلاً: إننا حاولنا ولا نزال نحاول لكن «العين بصيرة واليد قصيرة»!! والحقيقة أنه مهما كانت الإمكانيات المادية ضئيلة ومهما كانت المعوقات أمامنا كثيرة فلابد أن نمتلك إرادة جادة فى توفير هذه الإمكانيات المادية بوسائل شتى جديدة وعديدة، بالإضافة إلى دعم الحكومات العربية التى ينبغى بإرادة سياسية جادة أيضاً وفاعلة أن يتضاعف عشرات المرات، ولابد أن نمتلك فى ذات الوقت خطة جادة واضحة المعالم محددة الأهداف والأدوات الدقيقة للقياس لتذليل كافة العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الطفرة المنشودة فى صنع ثقافة العلوم واستنباتها داخل مجتمعنا العربى، حتى نجد من نفس هذا المجتمع الدعم الكامل واللامحدود لصنع بيئة وبنية علمية مواتية للإبداع العلمى والإنفاق على المبدعين العلميين بلا حدود»[1].

ولكن النشار - رغم تلك العقبات - لم يفقد الأمل فى صناعة تكنولوجيا عربية متطورة، فتأتى إجابته على كافة الأسئلة المتعلقة بإنتاج تكنولوجيا عربية مفعمة بالأمل باعثة له، متحدية للعقبات غير مكترثة بها، فيرى أننا قادرون على تلك الخطوة، ولكن علينا أولاً انتهاج سياسة عربية موحدة تجاه تلك التكنولوجيا بحيث لا نقتصر على استيرادها والاستفادة منها فقط، بل تجاوز تلك المرحلة إلى المنافسة والتفوق وفق إدراكنا لواقع مشكلات بيئتنا العربية[2].

وثانياً ينبغى علينا تكوين ثقة لا متناهية فى أنفسنا وإمكانياتنا فنحن

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص170.
(2) د. مصطفى النشار، ضد العولمة، ص229.

لسنا أقل من الصين أو اليابان واللتان كانتا منذ عهد قريب معنا فى ذات القطار، إلا أنهما أصبحا اليوم عملاقين اقتصاديين كبيربين[1].

إن الثقة بأنفسنا وبإمكانياتنا العربية ستولد الاعتماد على الذات والذى يمثل طريق النهضة التكنولوجية الأول: «إن الاعتماد على الذات والتقليل من الاعتماد على الغير فى ضوء ما رأيناه من تجارب الأمم الأخرى، هو الطريق الأمثل للخروج من أزمة التخلف العلمى والتكنولوجى الذى نعانيه رغم أنه لا ينقصنا الإمكانيات المادية والبحثية كما لا ينقصنا وجود الكفاءات العلمية والكوادر المدربة على صنع العلم واستنبات تكنولوجيا خاصة، إن الثقة بالنفس وبالإمكانيات العربية ضرورة ملحة فى هذه المواجهة الشاملة لكل أسباب التخلف»[2].

ويقترح النشار خمسة أسس رئيسية تمثل الأُطر العامة لصناعة العلم وإنتاج تكنولوجيا فى وطننا العربى تتضمن:

1- وضع استراتيجية عربية موحدة تتضافر فيها الجهود السياسية والإمكانيات الاقتصادية العربية لتحقيق أهداف محددة، وبدون هذه الاستراتيجية الموحدة لن تنجح أى دولة بمفردها فى تحقيق شىء له قيمة.

2- ضرورة إنشاء مراكز موحدة متعددة الجوانب والتخصصات للبحث العلمى وذلك بهدف خلق كوادر علمية مدربة على أعلى مستوى فى الوطن العربى تقوم بصناعة العلم والتكنولوجيا وفق الإمكانيات

(1) نفس المصدر، ص231

(2) نفس المصدر، ص232.

الذاتية العربيـة وبالمواد الخام المحلية وحسـب الاحتياجات الفعلية للبلـدان العربيـة، على أن يـشرف على هذه المراكـز ويقوم بتدريب كوادرهـا العلماء العرب سـواء مـن العقول العربيـة المهاجرة أو من العلماء الموجـودون على أرض الوطن وهم كثـيرون وينتظرون هذه الفرصـة التى تتضافـر فيها كافة الجهـود وتوفر لهـا كل الإمكانيات بفارغ الصبر.

3- إنشـاء المراكز المتخصصة للتعريب والترجمـة العلمية فى كل فروع العلم وخاصة العلوم الطبيعية والرياضية لا العلوم الإنسانية.

4- اسـتعادة العقول العلمية العربيـة المهاجرة ذات السـمعة العلمية إلى وطنهـا العـربى، والكثير منهم يرغـب فى تلك العودة لكنهم يخشـون البيروقراطيـة والروتين الحكومى وكـثرة العقبات التى يمكن أن تعوق اسـتكمال أبحاثهـم وتطويرهـا ومـن ثم تعـوق تقديـم خبراتهم إلى مجتمعاتهم.

5- ضرورة التركيز على التنشئة والتربية العلمية للشباب العربى[1].

بهذه الشروط الواقعية يمكننا إنتاج تكنولوجيا عربية تفوق التكنولوجيا الغربية، بل وتدخل معها المنافسـة فى الأسواق العالمية، فنحن لسنا أقل شأنا من اليابان أو من النمور الآسيوية التى ستكون شريكاً رئيسياً للقوة الكبرى القادمة بعد سقوط الغرب.

لكن يبقى السؤال قائماً، ما شكل هذه الوحدة المنتظرة؟ أو ما اسمها؟

(1) المصدر السابق، ص234 وما بعدها.

ج- شكل الوحدة المنتظر:

فى البداية يطالعنا مفكر العرب زكى نجيب محمود بقوله: «إن القومية العربية حقيقة وليست خدعة أو كذبة مختلقة أو ملفقة، أنا من الناس الذين لم يدركوا هذه الحقيقة الواضحة وهى أننى جزء من الأمة العربية إلا بعد تقدم السن، وعلى وجه التحديد أقول إننى إذا أنكرت كونى جزء من الأمة العربية فقد بترت ذراعاً من جسدى، أصبحت إنساناً غير كامل، ينقصنى شىء عضوى، فالأمة العربية إقليم له صفات طبيعية تربطه ببعضه البعض وتربط أفراده معاً، وهذا لا يمنع أن يكون لكل جزء من هذا الاقليم سماته الخاصة، فحتى الأسرة فى القرية، كل أسرة لها طابعها، وبعد ذلك يأتى عموم القرية»[1].

من هذه الفكرة الرئيسة تنبثق أفكار مصطفى النشار بشأن إقامة اتحاد عربى فيدرالى يضم شتات الدول العربية دون التخلى عن الزعامات السياسية فى كل قطر على حدة، بل فقط هناك مصالح مشتركة، وهناك خطوط عريضة للتلاقى والوحدة، وليكن نمط تلك الوحدة على منوال وحدة الإمارات العربية المتحدة التى كونت اتحاداً فيدرالياً، يقول النشار فى نص هو الأروع رغم طوله: «إننى أقترح ببساطة أن نتأسى كدول عربية بتجربة وحدوية رائعة وناجحة تمت على الأرض العربية منذ سنوات وهى تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة التى شكلت دولة اتحادية فى إطار الحفاظ على استقلال كل إمارة على حدة بقوانينها وبحكوماتها المحلية وبمواردها الذاتية، وليكن اسم هذا الإتحاد ما يكون، وإن كنت أرجح تسميته «اتحاد

(1) د. أحمد عثمان، طريقنا إلى الحرية، نقلًا عن د. النشار، بين قرنين، ص186.

الـدول العربية» فيشـكل بديـلاً لما يسـمى الآن بجامعة الـدول العربية[1] ومؤسساتها التى رغم كل ما قامت به وتقوم به إلا أن قانون تشكيلها وهدفها ليس فعالا حتى الآن.

ويتشـكل هـذا الاتحـاد من نفس الـدول العربيـة الأعضـاء فى الجامعة العربيـة، ويكون لهذا الاتحاد مجلس رئاسى يتم الاتفاق على تداول السـلطة فيه إما بالتناوب بين كل الدول العربية أو بالإتفاق على التناوب حول منصب الرئاسـة بين كبريات الـدول العربية، ثم تكون رئاسـة الـوزراء بالتناوب بـين الدول الأقل فى عدد السـكان، أما الـوزراء فيكونون مـن جميع الدول العربية بلا اسـتثناء، كلُ حسـب كفاءته وقدرته فى تحقيـق منجزات العمل العربى المشـترك، ويتشـكل إلى جانب مجلس الوزراء، برلمان عربى مشترك، ويتبع هذه المؤسسـات الإتحادية المؤسسات النوعية الأدنى كمجلس الوحدة الاقتصادية الـذى يتكون من وزراء الاقتصاد العـرب، ويكون تحت قيادة وزير الاقتصاد العربى، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ويتكون مـن وزراء الثقافـة والتربية العرب، وهكذا، ويكون لهـذا الاتحاد ميزانيته المستقلة التى ستشارك فيها كل الدول العربية، كل دولة حسب قدراتها المالية وعدد سـكانها، وينبغى أن تكون هذه الميزانية الوحدوية أكبر من ميزانية

(1) جامعة الدول العربية هى المنظمة الإقليمية التى قامت فى منتصف الأربعينيات لتجسد شكلاً تنظيماً يحتوى الدول العربية المستقلة فى ذلك الوقت والتى وقعت على «بروتوكول الإسكندرية» فكان ظهورها سابقاً على قيام «الأمم المتحدة» لذلك كان طبيعياً أن يتأثر ميثاق الجامعة بنظيره فى «عصبة الأمم» ولعل قاعدة الإجماع التى اشتُهرت بها الجامعة العربية ليست إلا صدى لهذا التأثير، انظر د. مصطفى الفقى، المرجع السابق ص69.

كل دولة على حدة، و يكون له سـلطة إنشاء مشروعات وحدو ية داخل كل البلاد العربية كلُ حسـب حاجته وقدراتـه، وكلها مشروعات لخدمة العمل العربى المشـترك، والتأكيد على وحدة العمل العربى وتنمية القدرات العربية فى كل المجـالات بـدءاً من التعليـم والثقافة والصحة، إلى مجـالات الاقتصاد والأنشطة الخدمية المختلفة»[1].

و يضع النشار شكلاً مقترحاً لهذا الإتحاد كالتالى:[2]

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص269.
(2) نفس المصدر، ص270.

مجلس وزارى عربى برلمان عربى
مجلس وزارى عربى
برلمان عربى
مجلس الصحة
يرأسه وزير الصحة العربى
مجلس خدمى
يرأسه وزير عربى ويتبعه كل وزراء الخدمات العرب
مجلس ثقافة
يرأسه وزير الثقافة العربى
مجلس تعليم
يرأسه وزير التعليم العربى
مجلس اقتصادى
يرأسه وزير الاقتصاد العربى
العلاقات
يرأسه وزير خارجية العرب
إلخ

فهل آن أوان تنفيذ مثل هذا المخطط؟!

الذين يتعللـون بالظروف الاقتصاديـة والإمكانيـات العربية، كذبتم، وكفاكم كذباً فالإمكانيات العربية والموارد الطبيعية والثروة البشرية عندنا لا مثيل لها عالمياً.

والذيـن يتعللـون بعلل وحجـج واهية من محـض الأنانية وسـوء التعقل والتدبـر، عليكـم أن تفيقـوا مـن سـباتكم، فالتاريـخ لا يتوقـف عن ذكر الأموات، ولن يقف أمام الغارقين في النوم، بل هو يسير ليسجل كل ما يلتقطه من مشاهد وأحداث!!

فهـل فقدت أرضنـا العربية أحرار الضمائـر والإرادة وأصحاب العزائم القويـة لإقامـة تلك الوحدة التي هـي قدرنا، وهي مصيرنا، وهي مسـتقبلنا، وهي قادمة لا محالة رغم أنف الحاقدين والمثبطين والمرجفين في المدينة.

هل نسـمع إلى نـداء أحد أبناء العروبة مـن ذوي الضمائر الحية وأرباب النفوس الأبية، في ذاك النداء الذي يوجهه إلى قادة وحكماء العرب!! لنعرف الأسباب والمسببات ونقف على الغايات ....

د- نداء إلى عقلاء العرب حكاماً ومحكومين ..

هل آن أوان إنشاء اتحاد الدول العربية؟![1]

يعيش العرب الآن أسوأ عصورهم وسط هذه الحالة المتردية من الانقسام والتشرذم الذي يكاد يجعلنا أمثولة العالم هذه الأيام، فليس أغرب ولا أعجب من أن بلاد العرب أصبحت مرتعاً يعيث فيه فسـاداً وقتلاً وتمزيقاً مجموعات

(1) من كتاب «من الثورة إلى النهضة»، لمفكر مصطفى النشار، صـ 125.

مـن المرتزقة المأجوريـن تحت شـعارات مزيفة، فهذه داعـش وتلك جبهة النصرة، وهذه جماعة الجهاد وتلك سرايا بيت المقدس... الخ.

من هذه المسميات التى اتخذت من الدين ستاراً يخفى أهدافاً أقلها تفتيت الدول العربية إلى دويلات صغيرة لا قيمة لها ولا وزن مما يعنى بكل بسـاطة انهيـار مقومات الدولة فى الـدول العربية الكبيرة و إفقادهـا القدرة والهيبة، وليس أدل على ذلك مما يحدث الآن فى سوريا والعراق على يد ما يسمى تنظيم داعـش فقد اقتطع هـذا التنظيم الإرهابى أكثر من ثلث الأراضى السـورية، وسـيطر على بعض المدن العراقية وأعلنها دولة مستقلة نصبوا عليها زعيمهم وأطلقـوا عليـه خليفة المسـلمين، وزاد الطين بلة تلك المراسـيم والتعليمات التى بدأو يفرضونها على سكان هذه المدن وتخييرهم لمسيحييها بين أن يعلنوا إسلامهم أو المغادرة إلى أى مكان خارج ما أسموه دولة الخلافة!! وليس ببعيد عن ذلك بالطبع ما يجرى الآن فى ليبيا من نفس هذه العصابات الإرهابية من ضرب للمطارات والسـيطرة على بعض المنشآت الحيوية والبترولية!! ونفس الشىء يحدث فى اليمن والسودان شماله وجنوبه والصومال... إلخ.

وكان يمكن أن يحدث فى مصر والسـعودية والإمارات والكويت وغيرها تحت مسميات أخرى لولا قيام ثورة «30 يونيه» فى مصر وما تلاها من تنسيق بـين هـذه الدول العربيـة التى تمكنت من كشـف هذا المخطـط والوقوف ضده.

إن هـذا الانفـلات الأمـنى والعسـكرى الـذى يـكاد يفقد هـذه الدول هيبتها ووحدتها ويجعلها مهددة ورهينة فى يد هذه التشـكيلات والعصابات الإرهابيـة تحت أى مسـمى كانـت، إنما هو مخطـط دولى صنـع فى أمريكا

و إسرائيل لتفتيت الدول العربية وشل قدراتها العسكرية أولاً والاقتصادية ثانياً، وتقسيمها بحيث تصبح أكبرها أصغر من إسرائيل مساحة وأضعف منها قدرة، والطريف أن هذا المخطط الغربى إنما يجرى تنفيذه بأيدى عربية تدعى أن ما تفعله إنما هو جهاد إسلامى لإعادة دولة الخلافة الإسلامية ورفع راية الإسلام!! لقد تصور هؤلاء المارقون - الخوارج على الإجماع الإسلامى وعن صحيح الإسلام - أنهم يمكنهم تحقيق ذلك عبر قتل وتشريد المسلمين وتفتيت وحدة الدول الإسلامية واحدة بعد أخرى لصالح الوحدة الكبرى فى دولة الخلافة!! وما أبعد هذا التصور الخرافى عن واقع الحال لأن نتيجته لن تكون حدوث ما يحلمون به، بل ستكون نتيجته الحتمية هى القضاء على الدول العربية واحدة بعد أخرى بإضعاف قدرة كل منها وتفتيت وحدتها وكسر إرادة شعبها فضلاً عن تدمير قدراتها العسكرية!! و يالفرحة إسرائيل والغرب بذلك!! إنها غاية الغايات لسياساتهم منذ عصر الاستعمار الإنجليزى لبعض دول المنطقة التى لخصتها عبارة «فرق تسد».

إننا إذن نحقق بأيدينا ما يراد بنا، التقسيم إلى دويلات لا حول لها ولا قوة، لا جيش قوى ولا قدرات اقتصادية أو غيرها يمكن أن تتحدى إرادة هذه الدولة التى زرعت فى المنطقة العربية بوعد إنجليزى وبمساعدة كل الدول الغربية، دولة إسرائيل!! ومن ثمّ يحق لهذه الدولة الغاصبة المغتصبة أن تفتخر بأنها واحة الاستقرار والديمقراطية فى هذه المنطقة المتخلفة من العالم!!

ولا يظنن أحد أننا نبالغ فيما نقول لأن الواقع أن العرب يسيرون مغمضى العينين فى طريق تحقيق هذه الغاية الكبرى لإسرائيل ما داموا لا يدركون

جدية التحديات التى يواجهونها فرادى، وبدون رؤية واضحة ودون استراتيجية موحدة يتفقون فيها على حد أدنى من الحفاظ على المصالح العربية العليا التى ينبغى أن تتوقف عندها خلافاتهم وتنتهى عندها المصالح الأنانية لحكامهم، لتبدأ فى الوقت ذاته معركة الدفاع الحقيقى عن المصلحة العليا للوطن الذى إن ظل على هذه الحالة من التشرذم وانكفاء كل دولة على ذاتها فلن يكون هناك وجود للعرب على الساحة الدولية وربما يصل الأمر إلى محو وجودهم من على خريطة العالم شيئاً فشيئاً!!!.

إن عقلاء العرب ينبغى أن تتوحد كلمتهم من الآن وليس من الغد للدعوة لإنشاء «اتحاد الدول العربية» الذى يتجاوز فى وجوده واتفاقية إنشائه واقع الجامعة العربية الأليم الذى لم يعد بأى مردود إيجابى حقيقى على المصلحة العربية المشتركة، فالجامعة العربية رغم السنوات الطويلة التى مرت على إنشائها لم تسهم بشكل حقيقى فى حل أية مشكلة عربية - ناهيك عن حل أية مشكلة عربية - أجنبية -، ولم تنجح مؤسساتها فى تحقيق أى طموح عربى على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والدفاعية، بل الثقافية والتعليمية والاجتماعية!!

ومن ثم فقد أصبحت الحاجة ملحة الآن لتأسيس مؤسسة وحدوية جديدة يمكنها الدفاع عن المصالح العربية المشتركة بشكل مؤسسى قوى يجمع ولا يفرق، يوحد ولا يشتت ويمتلك آليات واضحة لتحقيق الأهداف المشتركة للشعب العربى، إننى أعتقد أنه بات ضرورياً وجود هذا الكيان العربى الجديد تحت هذا المسمى الذى يختلف شيئاً ما عما كان يسمى ويدعى سابقا الوحدة العربية الشاملة، فحلم هذه الوحدة العربية الشاملة لا يزال وربما سيظل حلماً بعيد المنال حتى الآن وفى المستقبل المنظور.

إن اتحاد الدول العربية الذى ننشده هو "اتحاد يجمع الدول العربية مع الحفاظ على شكل كل دولة فيه ونظامها السياسى المستقل، وهو يتكون من برلمان عربى مشترك تمثل فيه كل الشعوب العربية تمثيلاً نسبياً حسب عدد سكانها ومساحتها ويتداول رئاسته رؤساء البرلمانات العربية، ومن مجلس وزارى عربى يرأسه رئيس الاتحاد الذى سيتناوبه الزعماء العرب واحداً بعد آخر لمدة يحددها قانون إنشاء الاتحاد «ويتشكل هذا المجلس الوزارى العربى من أهم الكفاءات العربية فى مجال تخصص هذه الوزارة أو تلك بحيث يكون للعرب وزير خارجية يتحدث باسم كل وزراء الخارجية العرب ويعبر عن وجهة النظر العربية فى أى قضية من القضايا، ووزير دفاع واحد يعاونه كل وزراء الدفاع العرب ويملك إمكانية الاستفادة من كل القدرات العسكرية للجيوش العربية وتوجيهها للدفاع عن الوحدة والاستقرار داخل كل دولة على حدة والدفاع عن الحدود العربية والحفاظ على الأمن القومى العربى داخلياً وخارجياً، ووزير داخلية عربى يملك القدرة على الاستفادة من كل الخبرات الأمنية العربية وتوظيفها لتوفير الاستقرار والطمأنينة للمواطن العربى أياً كان موقعه والدولة التى ينتمى إليها داخل الاتحاد، ووزير اقتصاد عربى يسهر مع زملائه وزراء الاقتصاد العرب على دمج الاقتصاديات العربية والمنشآت الاقتصادية العربية ما يمكن به القضاء على البطالة بين العرب وزيادة رخائهم المادى مستغلاً توافر المواد الخام وتوافر الإمكانيات المادية والبشرية بين الدول العربية بنسب وكيفيات متفاوتة، ووزير ثقافة عربى يعمل بمساعدة وزراء الثقافة العرب على إبراز الوجه الحضارى المشترك للثقافة العربية بعناصرها التراثية وهويتها الإسلامية المعتدلة، ووزير تعليم عربى يعمل مع أقرانه وزراء التعليم

العـرب على وضع اسـتراتيجية عربيـة موحدة للنهـوض بالتعليـم فى الدول العربية مستفيداً من كل الإمكانيات البشرية والمادية العربية لتحقيق نهضة بحثيـة عربية وتخريـج المتخصصين القادرين على قيـادة النهضة العربية فى كل مجـالات الحياة. وهكذا الحـال فى نطاق تخصصه وقـد عرضت لتفاصيل أكثر حول هذا الاتحاد العربى باعتباره أحد ركائز النهضة العربية المنشـودة فى كتابى «الأورجانو العربى للمسـتقبل» الذى لم يلتفت إليه أحد بينما كان التفـات الغربيين لكتاب بيكـون «الأورجانون الجديد» هـو أحد العوامل المهمة فى النهضة الأوربية الحديثة!

إن هذه الدعوة إلى إنشاء اتحاد الدول العربية ليكون بديلاً لجامعة الدول العربية ليس تقليلاً من شـأن هذه المؤسسة العربية العريقة لأن التفكير فيه إنما هو مبنى على دراسة أسباب إخفاقها فى تحقيق الأهداف العربية المشتركة، وليس عيباً أن يفكر العرب فى إنشاء هذا الاتحاد الجديد لتجاوز أسباب الفشل العربى ولتطوير العمل العربى المشـترك من خلال هذه المؤسسـة الوحدوية الجديـدة وتزويدهـا بآليات تنفيذية قـادرة على تحقيق طموحات الشـعوب العربية، وبالطبع فلن يكون الطريق مفروشا بالورود ولكنه سيواجه الكثير من التحديات والمعوقات الداخلية العربية والدولية الخارجية، لكنه فى حال إصرار الزعماء العرب المخلصين وإدراكهم الواعى لخطورة ما يواجهونه من تحديات تلخصها العبارة الشكسـبيرية الشـهيرة: إما أن تكون أو لا تكون، سيصبح هذا الاتحاد واقعاً ملموساً ستسارع كل الدول العربية الانضمام إليه للحفاظ على أمنها واستقرارها أولاً والحفاظ على المصلحة العليا للعرب ككل فى مواجهة التحديات المعاصرة بكل مسـتجداتها ومؤامراتها ثانياً، إننى أؤمن بأنه قد آن أوان الوعى العربى بأهمية تحقيق هذا الاتحاد العربى وخاصة أننا فى

زمن كثرت فيه التكتلات من حولنا وليس التكتل الأوربى إلا أحد أمثلة هذه التكتلات الناجحة التى يمكن الاستفادة منها، فهل يمكننا بأسرع ما يمكن تحويل هذا الوعى النظرى بأهمية وضرورة الاتحاد إلى واقع نعيشه أم أننا سنظل فريسة للصراعات والانقسامات حتى يتلاشى الوجود العربى لصالح الوجود العبرى؟! سؤال أوجهه إلى عقول وضمائر النخب العربية وعلى رأسها الزعماء والحكام العرب آملاً فى نوبة صحيان عربية قوية تستجيب للتحدى لتصنع الأمل المنشود لدى كل فرد عربى فى مؤسسات اتحادية عربية تحل مشكلاته وقادرة على مواجهة التحديات خارجية كانت أو داخلية.

العرب من الفناء إلى البقاء[1]

سؤال شغل بال المفكرين العرب منذ القدم، منذ اللاوجود، حيث لا حيث،يكمن جوهره فى الصيغة التالية.... هل تفنى الأمة العربية وتنقضى شوكتها وتذهب حضارتها سدى؟؟

وعقب كل نكبة نُصاب بها يسود اليأس بين الجميع، مفكرين وعوام، مثقفين وأنصاف مثقفين، ليعتقدوا إجابة واحدة تحاصرهم من كل مكان، نعم إنه الفناء الذى لا مناص منه، فناء الأمة العربية..

ولكن التاريخ يُكذب ذاك الاعتقاد ليولد للأمة العربية البقاء بعد كل إحساس بالفناء ويكتب لها النجاة بعد تدارك الغرق.

ويمور التاريخ مورًا وتدور دورته، تحاصر أمتنا العربية المشكلات

(1)مقال منشور بجريدة الاهرام المصرية بتاريخ6 أكتوبر 2016م. ثم بجريدة الرؤية الاماراتية بتاريخ 10 و11 أكتوبر 2016م.

والعواصف التى تكاد تقضى علينا، تلهث الألسنة بالدعاء.... ينخلع القلب.... يضطرب الفؤاد... تخرس الألسنة... يكتب المفكرون «خروج العرب من التاريخ» و«موت العرب إكلينيكياً» و«بيتنا الذى كان عربياً»، كلها كتابات تغذى الإتجاه اليأسوى وتنمى السلبية واللامبالاة داخل نفوس الجماهير، ثم عقب كل إحساس بالضياع نمر به، توهب لنا الحياة من جديد، ليعود المفكرون والفلاسفة يكتبون من جديد، يغذون الأرواح، وينمون العقول، ويرتقون بوعى الجماهير، يحدوهم الأمل نحو صناعة فجر عربى نهضوى وحدوى، فالوحدة قدرنا، تقدمت أو تأخرت، تباطئت أو تعاجلت، هى قدر الله المحتوم على هذه الأمة ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92] هذا أمره سبحانه، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

عبر هذه الأزمات المتلاحقة لوطننا العربى، عبر مأساواته المتعددة، عبر تشرذمه وتفرقه وبالتبعية خواره وضعفه وبالتبعية هوانه وذلته، تولد الصحوة الفكرية من وسط ذاك الشوك لتشق الظلمات بالنور، ولتقطع الشك باليقين، ولتمحو اليأس بالأمل، لتخرج أصوات الفلاسفة من واقعية اليأس إلى إمكانية الأمل، من ظلم الجهل والإحباط إلى نور العزيمة والعلم، لترسم لنا طريق النهضة من جديد، من واقع ظنه القريب والبعيد فناءً لا رجعة فيه للعرب، وبعد ما أسموه بثورات الربيع العربى والتى تركت أوطاننا خراباً وبواراً، وأعطت الفرصة على طبق من ذهب للقوى الاستعمارية القديمة لتدخل أرضنا من جديد بحجج قد تبدو مشروعة لدى البعض، يزينها بعض المرتزقة، يصورونهم بالمخلّصين، فهم بمثابة عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ الذى جاء ليخلّص البشرية من إثم الخطيئة الأولى، هم طوق النجاة، هم الأمل للمستقبل.

وللأسف الشديد تجد هذه التبريرات من المرتزقة والمأجورين وأصحاب المصالح هنا وهناك صدى لدى العوام فيستغلوا جهلهم بزيف أباطيلهم، ويلعبون على أوتار الجهل والفقر والمرض بمثل ما تلعب القرود على أغصان الأشجار بمتعة وأريحية.

ووسط هذا الظلام الدامس، وبعد ظلمات بعضها فوق بعضها فى أرضنا العربية، يخرج صوت مفكر العرب مصطفى النشار الذى سبق ونادى بثورة ثقافية عربية تسبق وجوداً تلك الثورات السياسية، حيث تكون الثورة الثقافية خير وأبقى، ثورة عقول وفكر وفهم ووعى، لا ثورة فوضى وتخريب وإرهاب واستغلال، يملأ صوته كل ركن سطعت عليه الشمس العربية، مقدماً توصيفاً دقيقاً للمرض، لأسباب الغرق والفناء، ثم مبتكراً لآليات النجاة وأسباب البقاء، ليقول بلسان قوميته وثورية قلمه وجرأة فؤاده: «لن تفنى الأمة العربية، فهى لم تخلق للفناء وإنما للبقاء».

ثم يقدم تشخيصاً دقيقاً مخلصاً لله وللوطن لأمراضنا العربية ممثلة فى عشرة أسباب قد تودى - لا قدر الله - بحياة العرب وأمجاد حضارتهم العريقة، قد تؤدى إلى فناء وجودهم، حيث غياب الإرادة الجماعية، الضمير الجمعى، الوعى المجتمعى الذى يدرك حقائق الأمور وحجم التحديات ويقدر المشكلات حق قدرها، هذه الإرادة وذاك الوعى المجتمعى يغيبان تماماً عربياً مما أدى إلى التفتت والتشرذم، ثم اتساع رقعة هذا التشرذم ببأس ذاك التفتت عقب ثورات الربيع العربى حيث اللعب على وتر الطائفية وحيث العصبية البغيضة التى قسمت العرب إلى دول متفرقة بداخل كل دولة طوائف مختلفة، بداخل كل طائفة جماعات منقسمة على نفسها، ليكون المصير المحتوم تخلفاً

وفناءً محققاً يغذيه التخلف الاجتماعى الذى يعوق الانطلاق نحو مستقبل أفضل ويزيد تفتت الدول العربية ويقتل تماماً فكرة الدولة الفاعلة.

ولعل أبرز سمات الفناء فى وطننا العربى أيضاً غياب العدالة ومن ثمَّ غياب النظام وانتشار الفوضى، لأن العدالة تعنى الأمن المجتمعى العام للدولة وللأفراد، وغيابها يغنى انهيار منظومة الأمن داخلياً بطريقة أو بأخرى، خاصة أن المواطن العربى ينفعل لهذه المعانى الإنسانية منذ القدم، حيث تمتلئ نفسه قناعة بمقولة الإمام ابن تيمية (رحمه الله): «إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة» وتستقر فى وجدانه آيات القرآن الكريم التى تحث على العدل ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء :58] كما تتوق نفسه شوقاً إلى السنة القولية والعملية للنبى الكريم ﷺ فى تحقيقه للعدل فى أكثر من مشهد ورفضه ﷺ لشفاعة أسامة ابن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فى المرأة المخزومية التى سرقت إقراراً منه ﷺ للعدل وحرصاً على تحقيقه.

وفق هذه القناعات كلها لدى المواطن العربى خرجت ثوراته التى انقلبت خريفًا لا ربيع فيه مطالباً بالعدل، فكان شعار الثورة المصرية على سبيل المثال فى يناير 2011م، «عيش، حرية، عدالة اجتماعية»، وحيث غاب العدل عربياً حيث تفقد العروبة جزءً عزيزاً من مكوناتها النفسية والوجدانية وبالتبعية جزءً كبيراً من المصداقية لدى المواطنين.

وعلى إثر غياب العدالة يأتى الانهيار متتابعاً فى سلم القيم العربية الأصيلة، فبمقارنة بسيطة بين ما كان عليه الأجداد فى «فجر الضمير» وما أصبح عليه الأحفاد اليوم على أرض الواقع نجد انفصالاً شبكياً بين المثاليات الأخلاقية

التـى ابتدعها العرب وواقع حياتهم اليـوم، انفصال تام بين النظرية والفعل، بـين المثالى والتجريبى، الواقعى والطوباوى، هـذه المثالية المغلفة فى ناحية، والقصـور الفعلى عـن واقعيتها من ناحية أخرى تهدم الوجـود العربى ذاته، تقيم جداراً عربياً بين حضارات قامت من قبل على أسـس أخلاقية استقاها العالم بأسره من أرضنا الطيبة، ومدنيات جوفاء، صماء، لا تعمل اليوم إلا على إشباع الجسد والخلو من كل مضمون.

ثم تسـتمر المأسـاة العربية فى أسـباب الغرق ومسـببات الفناء فى غياب الثقافـة العلميـة حيث غياب الموضوعيـة الفكرية بين المثقفـين من ناحية، وجهـل وعدم وعى يلاحق الأميـين خاصة مع ارتفاع نسـبة الأمية فى وطننا العربى من ناحية أخرى، ثم عدم تحقيق أدنى مصداقية من ناحية ثالثة حيث غلبـة الأقوال عـلى الأفعال، فنحن أمة تجيـد الخطابة ولا تجيـد الفعل، تجيد الحديث ولا تجيد العمل، والنهضة لا تُصنع بالتمنى ولكنها تؤخذ - بحد تعبير أمير الشعراء - غلاباً.

لعل المأساة الكبرى فى تلك المسببات كلها تعمد السياسيين إهدار طاقات الشـباب وعرقلة حركة الأجيال سـواء بإقرارهم لقوانـين بيروقراطية تغذى روافد التخلف أو بتخاذلهم عن اسـتثمار طاقات الشباب المعطلة وتوجيههم نحـو ميادين العمل والانتـاج بدلاً مـن تضييعهم عبر الجماعـات الإرهابية والتكفيريـة، وهى فكـرة موضوعية وواقعية إلى حد كبـير تفتقد إلى إرادة سياسـية فى كل قطر عـربى مخلصة لله وللوطن، لأجـل صناعة نهضة عربية على أكتاف الشـباب العربى، بأيد عربية لا شرقية ولا غربية، وحيث يكون اسـتغلال الشـباب تنمية لمهاراتهم وتنقيباً عن مواهبهم واستغلالاً لقدراتهم

اللامحدودة من ناحية، وللقضاء على المشاعر السلبية التى تحيط بهم من ناحية أخرى حيث اللامبالاة والسلبية والانعزالية وتضييع الوقت وتعمد إهداره، وكلها آفات كفيلة بقتل البشرية بأسرها فضلاً عن تضييع وطن.

وكم كان المفكر مصطفى النشار واقعياً ومتصارحاً مع الجميع عندما كتب فى أسباب الفناء إهمال اللغة القومية التى نزل القرآن بلسانها تكريماً لنا ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2]، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: 195] وكفى بهذا الإهمال للغة سبباً لتضييع انتماء وولاء أجيال متعاقبة تنقم على أهلها أنهم ولدوا فى أرض العروبة، فقد كان حلمهم - بوهمهم - أكبر من العروبة مع أن العروبة أكبر من كل شىء، ومن كل أحد.

آفة أخرى أعظم من كل الآفات السابقة، ولعل المفكر مصطفى النشار عمد إلى تأخيرها ليلفت الأنظار إلى واقعية أهميتها، و إلى أن كل الأسباب المتقدمة ما هى إلا نتيجة لهذا السبب، إنه تدنى مكانة المفكرين والعلماء العرب، وللأسف كان تدنياً مقصوداً حيث لم يعدم الوطن العربى المفكرين والفلاسفة على مدار التاريخ، ولكن ثمة انفصال بين الفكر والسياسة بسبب وجود ديكتاتوريات عربية لم تسمح بترك مساحة للتفكير، ولم تسمح بصوت للعقل يعلو فوق صوت القوة والبطش، هذا فى أسوأ الأحايين، وفى أحسنها عدم الإنصات للعلماء والمفكرين وعدم الاكتراث بإنتاجهم الفكرى والعلمى، بل وعدم الإهتمام بأشخاصهم انطلاقاً من مبدأ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: 6].

تلك هى الأسباب العشرة لغرق الأمة العربية عند مصطفى النشار ،ليبقى

التساؤل قائمًا.... تُرى كيف يكون الخلاص؟! كيف يتم الانتقال من الفناء إلى البقاء؟

خمس آليات رئيسية تحقق هذا البقاء، والذى يبدأ أولى خطواته من بناء نظام تربوى وتعليمى جديد يخاطب العقل وينمى ملكات الذكاء والقيم الاجتماعية والإنسانية القويمة، تجديداً للبنية ومشتملاتها وبالتبعية تجديداً للمنتج الذى يقدمه التعليم ممثلاً فى خريج قادر على مواجهة التحديات، قادر على فهم واقعه وبناء مستقبله وتحديد غاياته والتفكير بعقلانية وإتزان، وهذا لن يكون إلا بتطوير البحث العلمى أيضاً للاستفادة من نتائج الأبحاث عملياً ولفتح آفاق بحثية جديدة ولبناء فرص واعدة للمستقبل عبر بوابة البحث العلمى، ومن ثمّ يتحول المجتمع إلى عصر اقتصاد المعرفة والذى يشمل البحث عن المعرفة، استرجاعها والتواصل مع من يمتلكون ناصيتها من أهل العلم والخبرة، واستيعاب المنظومة المعرفية الحديثة، حيث أصبح العلم مقياساً لتقدم أو تخلف الأمم، ولعل هذه النقطة بالتحديد مما أثارت انتباه القيادة السياسية فى مصر بدعوة منها إلى بناء عالم المعرفة وتنميته عبر المكتبة المعرفية الإليكترونية الكبرى، لبدء تصحيح المسار ووضعاً لقدم ثابتة على طريق النهضة.

هذه الآليات تقتضى ضرورة تجديد الخطاب الدينى وبعثه من رقدته، بعثه من عذاب القبر واللحية وقص الشارب وإسبال الإزار إلى قيم التقدم من عمل واحترام الوقت وإعمال للعقل ويقظة للضمير واحترام للآخرين فى المعاملات والسلوكيات وإذكاء للقيم الأخلاقية الإسلامية الرفيعة من مراقبة وورع وخشية لله بالغيب وصدق وإخلاص ويقين، أى بعثاً من

العرض إلى الجوهر، من الشكل إلى المضمون، وتلك قضية لابد من معالجتها جذرياً إذا أراد وطننا الحياة، لتتمكن بعد ذلك، بعد تنقية الخطاب الدينى من شوائبه وتصفيته مما يكدره ورفعه فوق النزاعات الطائفية والعنصرية والعصيبة، من إقامة وحدة عربية تقوم على الأخوة المشتركة فى الإنسانية والقومية والدين واللغة، بحكم الجغرافيا والتاريخ، بحكم الواقع، وبحكم الماضى والمستقبل، ليكن اسم تلك الوحدة ما يكون، المهم جوهرها وليس شكلها.... مضمونها وليس إطارها الخارجى.... مصداقيتها وليس شعاراتها.... فبتلك الوحدة فقط تكمن نجاة هذا الوطن، وبها يكون بقاؤه بقاءً سرمدياً إلى أن يشاء الله.

هذه الرؤية التى يقدمها مصطفى النشار فى كتابه القيم «الأورجانون العربى للمستقبل» والذى صدر عن الدار المصرية اللبنانية فى نهاية 2014م رؤية ذات واقعية ومصداقية فى التشخيص والتوصيف وذات قوة وصدق وجرأة فى المعالجة، وأظنها قفزت فوق سطح المستقبل استقراءً لأحداثه واستنباطاً لشكله المحتمل، وتالياً قفزت فوق رؤى كثيرة قدمها فلاسفة عرب محدثون ومعاصرون آخرون، القاسم المشترك بين تلك الرؤى جميعاً هو حب هذا الوطن والإخلاص له، لكن يبقى لمشروع مصطفى النشار النهضوى العربى فضل الواقعية والتجرد والجرأة فى طرح القضايا ومناقشتها، ليضع ذاك المشروع بين أيدى قادة العرب، لينتهى دور الفلاسفة من حيث يبدأ دور الساسة، متى البداية، العلم عند الله وحده، ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: 65] لكن يبقى اليقين كله، متى توافرت الإرادة والصدق متى توافرت النهضة، ويسألونك متى هى، قل عسى أن يكون قريباً، تأتى من حيث لا تشعرون.

الخاتمة

السـؤال الأوقـع على نفوس أحـرار قوميتنـا العربية والإسـلامية، وماذا بعد؟

ومـاذ بعد الحال الذى أقل ما يقال عنه أنه «الضياع»؟! الضياع فى كل شىء فى ظـل وجود مقومات الوجود، بل ومقومـات النهضة والقوة!! وقد أدركنا الضياع اقتصادياً حيث الفقر وتبعاته، واجتماعياً حيث العنوسـة والانحـراف والإدمان والجريمـة؟ وثقافياً حيث التقليـد الأعمى للغرب، وعسـكرياً حيث انهيار الجيـوش العربية العراقية واليمنية والسـورية، وأمنياً حيث ضياع الأمن والأمان فى بلداننا العربية التى طالتها يد ثورات الربيـع التى انقلبت قيظاً وهمـاً وغماً ولم تحقق أياً مـن أهدافها اللهم إلا مزيـداً من الخـراب والضياع والتشـتت والتمـزق، ثم فى المقـام الأخير الضيـاع أخلاقياً حيث فقد شـبابنا القـدوة الصالحة والظـروف المواتية للتربية الصحيحة والسـليمة فى بيئة نظيفة يسودها الإيمان وتغزوها القيم كشـأن أرضنا العربيـة الطيبة، وكشـأن عاداتنا وتقاليدنا التـى تعلّم منها العالم بأسره!!

فماذا بعد هذا الضياع؟!

صراعـات دامية فوق كل شـبر من أرضنـا العربية، فى العـراق، واليمن، وسوريا، وفلسـطين وليبيا.... صراعات بنذايتة، بين الإخوة والأشقاء وأبناء

العمومـة، وليـس بين العرب وغيرهـم من الأعداء المتربصـين ذوى الأطماع المحفـورة فى عمـق التاريخ، وهـم بالطبـع - أولئك الأعـداء - من يضرمون نـيران العـداوة بين الإخوة الأشـقاء فى وطننا، وهم من يوقـدون تلك النيران كلـما تدخل أبناء العقل لإطفائها، فيبيعون للمتصارعين والمتقاتلين السـلاح لينمو اقتصادهم على حسـاب جماجم أشـقائنا ودمائهم، وعلى حسـاب أمن وطننـا واسـتقراره، بـل ووجوده، فقـد بات هذا الوجـود ذاته مهـدداً بفعل تلـك الصراعات التـى ما عرفت سـبيلها إلى قـوم إلا قضت عليهـم أخضراً ويابساً.....

ونحـن دفعنا أموالنا لشراء السـلاح ولثراء اقتصاد الأعـداء، وقتل بعضنا بعضاً، وهتك بعضنا عرض بعض، وهم يراقبون المشـهد من بعيد، يتدخلون بعبارات تكون دليلاً لبراءتهـم فى محكمة التاريخ - هكذا يظنون - عبارات مـن قبيل «ضبط النفس» و«نتابع بقلق» و« نطالب كافة الأطراف بالتحلى بالصبر» وغير هذه العبارات التى باتت نتنة الرائحة مبلية السرائر، معلومة الأغراض مفضوحة النوايا..

يكفى أنهم على الأقل، سـقطوا من عين الإنسانية فى هتكهم لعرض كافة المبادئ الإنسـانية التـى طالما ادّعوا الدفـاع عنها من قبيـل الحرية والعدالة والكرامة الإنسـانية وحقوق الإنسـان وغيرها من الشعارات التى لا تساوى ثمن المداد الذى كُتبت به!!

ديموقراطيتهم مشوهة، بالمثل تماماً كما أكد مصطفى النشار عبر صفحات هذه الدراسة، ديموقراطية منقوصة، مشبوهة، تحيط بها العيوب والزلات من كل جانب..

لكن، وباسترجاع للتاريخ واستقراء لوقائعه وأحداثه، من الذى أعطى لهم كافة هذه الفرص السانحات ليبيعوا ويشتروا فى الدماء العربية، وليتجروا بالكرامة العربية إلى هذا الحدّ؟! ألم نكن نحن السبب؟! وأقصد بنحن أى نحن جميعاً دون استناء، بما يشمل مصطفى النشار ذاته صاحب هذا المشروع النهوى، وبما يشمل كافة المفكرين العرب ومن يطلقون على أنفسهم النخبة العربية، وبما يشمل القادة العرب السابقين واللاحقين بما فيهم عبد الناصر ذاته، لأنه لم يصنع قاعدة مؤسساتية تحمى دعوته وفكره، بل ارتبطت الفكرة بشخصه فعاشت بحياته وماتت بوفاته، وبما يشمل حتى المواطن البسيط المسكين الذى لا يملك من أمر نفسه شيء، لأنهم تخاذلوا عن الوعى، وتنازلوا عن الحرية، وتنازلوا عن أبسط الحقوق الأدمية، الحق فى المعرفة، فاختاروا نوابهم بجهل، وعاشوا فى الأرض طولاً وعرضاً لا يعرفون شيئاً عن الحقوق ولا الواجبات، يقول عصمت نصار: «إن الحياة النيابية والدستورية وكذلك الأحزاب السياسية إلى غير ذلك من نظم الوعى المدنية الغربية سوف تظل غير ذات قيمة فى ظل جهل الرأى العام وغيبة الوعى وضعف نواب الأمة، وأن الحكومة الإسلامية تتعارض تماماً مع الحكومة الثيوقراطية المسيحية، لأن السلطة السياسية فى الإسلام قائمة على اعتبارات دنيوية وليس لها سند سماوى، ولأن الأمة هى التى تنصب الحاكم فهى بالتالى مصدر كل سلطة، وأن اقتباس بعض النظم الأوروبية التى لا تتعارض مع مبدأ الشورى الإسلامى أمر مباح ولا غضاضة فيه....

إن الحرية المنشورة ليست ضرباً من الرفاهية أو تقليداً للبدع الغربية، بل هى حق كفله الله لعبادة، شأنه فى ذلك شأن الحياة لا يمكن التنازل عنها

إلا بالانتحار ولا يسلبها عنوة إلا مستبد قاتل ولا يغفل عنها إلا الحمقى والجهلاء، أولئك الذين لا يدكورن معنى الحياة»[1].

فهل يصل بنا الأمر إلى حد الجهل المفضى إلى الانتحار، أو التسليم بالموت ليد المنايا التى يمدها الظالمون والمستبدون؟!

ماذا بعد كل هذه الأزمات الطاحنة؟

ليس من سبيل إلا أحد اثنين، إما اليأس، و إما ميلاد الأمل من جديد، لتتولد على إثره العزيمة والإرادة العربية التى هى مضرب الأمثال عالمياً على مدار التاريخ، وأنا شخصياً مدرك تماماً أننا وصلنا إلى القاع، وليس بعد القاع إلا الصعود، ويمتلئ قلبى بالقناعة التامة بأن أحداث سوريا وليبيا واليمن إن هى إلا النهاية التى تولد منها البداية، و إن هى إلا المحنة التى تولد منها المنحة بعطاءات مباركات لا حدّ لها.... نعم من حقى أن أتساءل مع النشار: «إلى من نكتب؟ و إلى من كتب الكاتبون قبلنا؟ إذ لا تزال محاولات الكتابة دائمة منذ أكثر من مائتى عام حول طريق النهضة وكيفية النهوض دون جدوى، حيث لم تحقق أى درجة من درجات النهضة تضارع ما حققته الأمم الأخرى التى بدأت كفاحها معنا، فقد نهضت تلك الأمم، بينما ازددنا تخلفاً، فما السبب؟».

و يستطر النشار عارضاً لخيارات السببية «هل السبب فينا كبشر؟ أم فى الآخرين الذين كل همهم أن نبقى كما نحن نرزخ تحت نير التخلف والإحساس بالدونية؟ هل عوامل التخلف داخلية أم خارجية؟

(1) د. عصمت نصار، الفكر المصرى الحديث بين النقض والنقد، دار نهضة مصر، القاهرة، سنة 2007م، ص143.

و إلى أى حـدّ شـارك كُتّابنا فى صنـع هذه الأزمة وفى تجذيرهـا فى الواقع العربى؟»[1].

هل من إجابة على هذه الأسئلة؟

إنها تعمق إجابتى السابقة بأننا جميعاً مسئولون عما آل إليه مصيرنا وعما سيئول إليه من خراب إن لم نتدارك الموقف آنياً وليس بعد لحظة واحدة!!

علينا أن نسـتقرى التاريخ ونعود لجذور حضارتنـا ووحدتنا، فنحن أمة كثيراً ما وحدتها الأخطار، وهل من خطر أشد مما نحن فيه الآن!!

تمزق عـلى جميع الأصعـدة، وتشرذم وضعـف وتخلف يتبعـه فقر وجهل ومرض و يأخـذ بتلابيب ذلك كله تبعية عمياء لمسـتهلكات المدنية الغربية التى تدعو إلى الهدم والفناء، لا التعمير والبناء!!

حتـى الأطفـال الصغار يا سـادة، يدفعون ثمن تخاذلنا عـن صناعة نهضة عربية ووحدة قومية، فهم ما بين صرعى وجرحى؟!

إما صرعى الجوع والعطش.... و إما صرعى البرد فى المخيمات ..... و إما صرعى وما هم بصرعى.... فاقدين لكل أمل فى الحياة.... وفاقدين لكل قيمة فى الوجـود.... و إما صرعى للبراميل المتفجـرة والطيران الوطنى الذى طالموا غنوا له وحملوا له المشاعل.... و إما صرعى الاحتلال الغاشم لفلسطين.....

إيمـان حجـو.... محمد الـدرة.... محمد صابـره ..... وغيرهـم... ملايين الأسـماء لأطفال العروبة تحاصرنى ..... تقطع على جفنى الراحة.... وتقض

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، سنة 2014، ط1، ص138.

على قلبى مضجعه.... وتحرك روحى من مكانها ..... إلى حيث الملكوت الواسع.... لعلها تجد عزاءاً وسلوى.....

أليست كل هذه الأحداث بكافية لأرباب الضمائر العربية، كى تتحرك نحو الأخرة ونحو العمل بجد لصناعة النهضة ونحو التراضى والاعتصام جميعاً بحبل الله المتين الذى لا يضيع أبداً من تمسك به ..

ولكنها الأنانية التى لا تزال مغروسة فى قلب الإنسان العربى، الأنانية الأيديولوجية التى تحولت إلى صراعات مسلحة فى غالب الأحيان، وغير نظيفة أخلاقياً فى أحيان أخرى، صراعات حزبية، ويمين ويسار، وتراشق بالخطب التى فيها يقول نزار - ما قتلت ذبابة.

ثم الأنانية العقائدية والتى هى أشد من السابقة، حيث صراع دامى وفكرى وعقدى بين السنة والشيعة، بل وعلى المستوى الذاتى لكل فريق على حدة، تعدد طوائف وفرق كل فريق منهم، إلى أكثر من مائة طائفة شيعية، ومثلها سُنية!!

ويتراشق القوم، إن لم يكن خطابياً فعسكرياً، وتتورط الأيدى الآثمة لحزب الله الشيعى فى دماء أطفال أهل السنة فى سوريا، ولا تسلم يد إيران من هذا الدم الحرام، ويفتح المسلمون بأنفسهم الطريق لأعداء الأمة من كل جنس ولون للتدخل عسكرياً فى أرضنا العربية بفاتورة مدفوعة الأجر عربياً!! فتتدخل روسيا بطيرانها ويهلل لها إعلامنا التافه والساقط الذى يعانى من جهل مدقع بأبسط المبادئ السياسية والدينية والفكرية، وفى ذات الوقت الذى يُدك فيه أطفال سوريا، تدُك إسرائيل المرابطين فى المسجد الأقصى ويسقط كل يوم شهداء فى انتفاضة الأقصى الآن، ويد العروبة شلاء وعاجزة عن الفعل ورد الفعل.

لكن ثمة أمل يشع نوره، ذالكم الجيش العربى الموحد بقيادة المملكة العربية السعودية لمواجهة الإرهاب فى اليمن..... نعم، أعلم أنها قوة عسكرية وليست جيشاً عربياً موحداً، ولكنى فقط يتسع أملى للوحدة العسكرية على أكمل وجه، ومنها الإنطلاق نحو الوحدة الكاملة افتصادياً وسياسياً وتربوياً وتعليمياً وثقافياً واجتماعياً وزراعياً وتجارياً..... الوحدة الشاملة التى تكون مسماراً قوياً فى ظهر الأعداء الذين طالما خططوا لتمزيقنا ولاصطناع الحدود لتفرقنا وضعفنا وتخاذلنا... إنه انبثاق النور من رحم ظلمات بعضها فوق بعض، يبزغ شعاعه ليعلن للعالم أن هذه الأمة لازالت تنبض بالحياة، لا زالت تحن إلى قرآنها، لازالت تعلم حدود ومعالم دينها ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[الحجرات:9].

هكذا تكلم القرآن، وجه إلى حل المشكلات داخلياً، بين الإخوة الأشقاء، لا أن يستعينوا على إخوانهم بأعدائهم، ولا بأن يتحالفوا على إخوانه مع أعدائهم الذين طالما حذّرنا القرآن منهم، وطالما وجه أنظارنا إلى سخطهم علينا ما لم نتبع دينهم..

والسؤال الآن لكافة أحرار العرب، هل كانت روسيا أو أمريكا أو غيرهما يمتلكون أدنى شجاعة أو قدرة على التدخل فى أى من الأرض العربية والإسلامية التى دخلوها فأفسدوها ومزقوها وقبضوا الثمن من جيوب الضحايا، فى حال وجود وحدة عربية عسكرية واقتصادية؟

وقبل أى إجابة، أبادر بالتساؤل أيضاً، هل تجرؤ أمريكا أو روسيا بتوجيه أدنى اعتداء إلى أصغر عضو فى الاتحاد الأوروبى؟

والإجابة لا تحتاج إلى كثير عناء، وكفى بنا إثماً أننا تخاذلنا عن صناعة نهضة عربية تكون الوحدة أحد آلياتها حتى اليوم، تخاذل الجبناء، وتخاذل الأنانيين الذين لا يدركون أين تقع مصلحتهم الحقيقية، الذين ضلّ سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

إذن لا مناص اليوم من تلك النهضة، ولا مفر من الوحدة؟ كيف؟

الآليات معلومة للجميع، فقط ينقصنا التصالح مع النفس، التصالح مع الذات، لتعى أن مصلحتها فى القومية لا الإقليمية ..... مصلحتها فى الجماعة لا الفردية، فلو أخلصت النفوس العربية، كافة النفوس، قادة ونخبة وجماهير، وصنعنا وحدة ونهضة كبرى تنسب إلى الأمة العربية، لتقهقر العالم إلى الخلف، ولتقدست تلك الأمة صاحبة الحضارة والمبادئ الإنسانية إلى مكانها الطبيعى و إلى وضعها الذى خلقها الله لأجله.

وعلى الفرقاء أن يصفوا قلوبهم ويخصلوا النوايا لربهم ولوطنهم ولأشقائهم، فلا فرق بين العروبة والإسلام، بل هما واحد، فقط نوسع دائرة الإنتماء، فإذا كان الإسلام قد جمع المسلمين عقائدياً ولو شكلياً، فإن الهوية العربية قادرة على جمع العرب أيديولوجياً، فما بالك بقوم اتفقت ألسنتهم وتوافقت اتجاهاتهم واتحدت ميولهم، وفى الغالب الأعم اتحذت عقيدتهم، أليست كل هذه المقومات بالقوة القادرة على الجمع؟، ثم إذا كان الإسلام داعياً إلى وحدة المسلمين بحكم العقيدة، فإن العروبة داعية وحدة بحكم الماهية والتكوين والتوجه، أليس كذلك؟!

فعلى العقلاء أن يدركوا هذا التواصل بين العروبة والإسلام، لا فارق بين الإثنين، ويكفى أن القرآن الذى هو دستور المسلمين نزل بلسان العرب، وما من آية أو حرف إلا ونزل فوق الأرض العربية تلك الأرض التى مدحها الله عموماً وخصوصاً عبر آى الذكر الحكيم، بما يعنى أن الاثنين واحد، وأنهما أمة واحدة وليسا أمتين أبداً، وأن صناعة المجد للأمتين سبيله واحد، وماهيته واحدة، فقط العودة إلى قيم العروبة من شجاعة ونخوة لنجدة الملهوف ونصرة المظلوم وغيرها من قيم نبيلة اشتُهرت عالمياً بالصبغة العربية، وكذا العودة إلى منبعى الإسلام اللذين ما إن تمسكنا بهما لن نضل أبداً، كتاب الله، والصحيح من سنة نبيه الكريم ﷺ، لنعرف مقاصد هذا الدين، ونقف على مآثره وغاياته، يقول عصمت نصار: «على الأمة الإسلامية أن تتخذ من العلم دستوراً ومن القرآن دليلاً وهداية، وتجمع بين العلم من جهة والفهم الصحيح للمقاصد الشرعية من جهة أخرى، وتعيد بناء المشروع الإسلامى القائم على التسامح والمواءمة بين النقل والعقل، وتؤسس مشروعاً للإنسانية كافة يعبرّ عن سماحة الإسلام فيقتنع الجميع بأنها خير أمة أخرجت للناس»[1].

يبقى السؤال إذن؟! هل فقدنا المنهج، أم فقدنا الإرادة؟

بكل تأكيد حار علماؤنا وفلاسفتنا فى رسم المنهج مئات المرات، بل ألوف، مشاريع فلسفية كبرى هذا إحداها، وسبقه الكثير وتبعه الكثير، رسماً للمنهج وتوضيحاً للآلية، قفزاً فوق المعوقات، وتذليلاً لكافة الصعوبات، ولكن كله فى النهاية لا يخرج عن طور الكتابة قيد أنملة، حتى المشاريع

(1) د. عصمت نصار، وجهان لعملة زائفة، ص154.

التـى أعـدت للتطبيق الواقعـى بمنهج وآليـات وغايات محـددة، لم تلق أدنى اهتمام على مستوى المسئولية، ولو حتى من الدرجة الثانية..

نعـم، تنعقد المؤتمرات، وتُحلل الكتب الفكرية، وتُعقد الندوات، تسـمع أعذب الكلام وأعظمه، وتسـمع تصفيق الأيـدى وارتياح القلوب، لكن كل ذلـك لم يتعد مجرد الأقـوال، تلك الآفة البغيضة التى حذر منها النشـار على مدار ستون مؤلفاً.

إذن ليسـت الآفة فى غياب المنهج، فالمنهـج وبدائله يتوافر لدينا بكثرة!! الأزمة يا سـادة فى توافر الإرادة الجادة على كافة المستويات، إرادة الساسة، وإرادة الجماهير، تلكم هى الإرادة التى عمل عبد الناصر على إنشائها إنشاءاً داخل النفـوس العربية، ولكن القدر أراد أن يكون لهذا العمل جولة أخرى غير تلك التى قادها عبد الناصر.

ولم تكـن الأزمـة فى غيـاب الإرادة فقط، ولو كان الأمـر كذلك لكفى لخلـق تلـك الإرادة كتاباً واحـداً من الأعـمال الثورية لأجيـال متعاقبة من المفكريـن، الأمر ليـس بتلك البسـاطة، ولكنـه ذو أبعـاد ومغاليق محكمة وموغلـه فى العمق... إنهـا باختصار، إرادة عدم خلق الإرادة لدى الساسـة، وهذا يؤدى بدوره إلى بذر الجهل والأمية واللتان ينتج عنهما مثلث الكوارث الكبرى، الفقر والجهل والمرض، وضمان خضوع القطيع لإرادة السـيد دون أدنى اعـتراض، لذا كان الجديد فى ثورية اقتراح النشـار ومشروعه، "الثورة الثقافية " إذ لا أمل سواها، وأى بداية من طريق آخر يعنى أننا لازلنا نخطئ الطريق ونضل المسعى، ودلائل ذلك ما أكثرها، فالشباب المثقف الواعى هو مـن قام ببراءة المثقفـين ووعيهم بالمطالبة بالتغيـير فى يناير 2011م فى مصر،

ورفعوا مطالبهم بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، وبغـض النظر عن النتائج أياً كانت، إلا أنها ولدت من رحم المعرفة والثقافة والوعى الصحيح، وهذا هو المطلوب إعادة إنتاجه.

إن توافر الإرادة لدى الساسـة المخلصين من أبناء وطننا العربى هى الأمل كله، وهـى الملاذ الوحيد، لأنهـم وحدهم من يملكون قـرار التثقيف ونشر الوعى عبر مؤسسـاتهم وحكوماتهـم، و إلا .. فالمصير لا يعلم مدى خطورته إلا الله.

أفيقـوا يا سـادة فالوقت ليس أبـداً فى صالحنـا، و إن لم تتحركوا لتحقيق رفاهية الشعب العربى الممزق، فلتتحركوا بدافع الإنسانية إحقاقاً للحق وطلباً للعـدل فى نصرة شـعوبكم المغلوبة على أمرها والتى قتلهـا الإرهاب ومزقتها السياسـة وقضت عليها الطائفية، أو لتتحركوا بدافع الكرامة، تلكم الصفة التى نبتت فى أرض العروبة، واشتُهر بها العرب على مدار التاريخ، الكرامة فى رد المعتدين والمغتصبين لأرضنا ومقدسـاتنا، والكرامة فى رد موازين العدالة الدولية المقلوبة، التى تفرض عقوبات على بعض الدول العربية والإسـلامية بحجة الإشتباه فى امتلاك سلاح نووى دون بينة على ذلك، وغض الطرف عن إسرائيـل التى طالما هددت بالنووى وامتلكت ما هو أخطر منه تحت مرأى ومسـمع المجتمع الـدولى أعمى العينين وأصم الأذنـين، والذى يطبق نظرية جده ثراسيماخوس فى حكم الأقوى بمنتهى الدقة والأمانة.

الأحـداث العالميـة كلها اليوم داعيـة إلى الوحدة، والأحـداث الداخلية كلها فى مسـيس الحاجـة إلى تلك الوحـدة، بقيت فقـط إرادة الحكام وفهم ووعى النخبة...

ونحـن لم نطلـب من الحكام العـرب التخلى عن كراسـيهم والذوبان فى خلافة أو غيره، فقط نطلب منهم مد يد العون والتعاون مع أشـقائهم وعمل وحدة اقتصادية وتجارية لعمل اكتفاء ذاتى عربى، وعمل وحدة علمية لتصنيع الدواء والسـلاح عربياً والإكتفاء منه ذاتيـاً، وتكوين جيش عربى موحد - تنفق عليه - كافـة الدول العربية ليكون اتحادنا على غرار الاتحاد الأوروبى بأدق تفاصيله، وهذا مبدأ إسلامى وقيمة عربية بالأساس.

ونحن لم نعدم المقومات، ولم نفقد الآليات، فعلى المسـتوى المادى حيث البـترول والذهب وما أفائه اللـه علينا من ثروات طبيعية اسـتودعها أرضنا دون سـعى منا بخيل أو ركاب، وعلى المسـتوى البشرى، حيث ثروة بشرية عظمـى فى العقـل والقوة، وحيث زادها الله بسـطة فى العلم والجسـم، فقط تنتظر الفرصة لصناعة نهضة قومية كبرى يقف العالم كله لها لا أمامها.

حقـاً، كم أنـت ولاّدة أيتهـا الأرض العربيـة، ممتلئة بالمواهـب فى كافة الميادين، علم، فكر، ادب، كتابة، حتى الغنـاء والفن بأنواعه يتصدره أبناء العروبة عالمياً .. أرض مقوماتها ذاتية، وثروتها الحقيقية فى أبنائها.

إن إرادة الحـكام ووعى النخبة سـيصنعان فارقاً كبيراً فى تلك القضية، لا أقـول معجزة، لأن وحدتنا ليسـت معجزة أبداً، لأنهـا الطبيعة، ولأنها قدرنا، ولأنهـا أصل من أصول تكويننـا النفسى والعضوى والفكـرى، و إذا غابت عنا لبعض الوقت فبسبب جهلنا وأنانيتنا وضعفنا وتخاذلنا عن الأخذ بأسباب القوة ومقومات النهضة، ولو ظل الحال كما هو فبظلم من أنفسـنا لأنفسـنا، وليس أبداً بسـبب الظروف أو القدر أو غيره من الشـماعات التى تعوّدنا أن نعلق عليها فشلنا و إنكسارنا..

إن أرض العروبة قادرة على استعادة ماضيها التليد، وقناعتى لا حدَّ لها بأن الوحدة العربية هى الأصل، وأن الوضع الحالى هو الاستثناء، وأنه حتماً سيأتى جيل يؤمن بهذا الفكر أشد ممن كتبه أو صاغه أو آمن به، ليقطع هذا الجيل الطريق أمام كل مسببات الفرقة والخلاف، وليغير معالم الجغرافيا وحركة سير التاريخ، ليصنع أمة واحدة، ناهضة، قوية..

يبقى السؤال الأخير للنخب العربية، أو من يستسيغون تسميتهم بهذا الاسم، ما المانع يا سادة أن توجهوا النصح للحكام بصدق و إخلاص للمبدأ لا للأشخاص، وبحرص على مصلحة الوطن العليا لا مصلحة الذات الدنيا، لماذا لا نقدم ورقة عمل نهضوية وحدوية قومية يلتف حولها الشعب العربى ويهزم بإرادته إرادة أى حاكم متخاذل ليصنع وحدته ونهضته؟

وتربوياً، لماذا لا نربى أولادنا على حلم النهضة والوحدة؟، ما المانع فى أن يُدّرس التاريخ العربى بأسره فى منهج التاريخ فى الدول العربية، بل وأبعد من ذلك، ما المانع من توحيد المناهج التعليمية فى كافة البلدان العربية وأن ترسخ هذه المناهج للوحدة العربية لأجل صناعة نهضة قومية عربية ولأجل استقلال القرار العربى وبلوغه درجة التأثير والفاعلية عالمياً، وذلك عبر مواد مثل الفلسفة ونعرض فيها لآراء الإصلاحيين العرب والمنادين بالوحدة وهذا الكتاب أحد تلك الدعوات، ثم منهج المواطنة ليغرس القومية فى نفوس الطلاب بدلاً من الإقليمية.

إن توحيد المناهج التعليمية قومياً سينشئ أطفالاً مؤمنين بتلك القومية، وسيُخرج أجيالاً تحقق هذه القومية بكل بساطة ويسر ودون أدنى عقبات، لأنه رغم إيمانى بضرورة الآليات المادية، إلا أن إيمانى الأكثر بالبداية ثقافياً،

ومـا بين الإثنـين فقط تكمن النهضـة القومية، وترقد الوحـدة العربية، فهل يسـعى المخلصون مـن أبناء العروبة للخـلاص من تلك الرقـدة التى دامت طويـلاً، وهل يسـعى الأحـرار من أبنـاء القوميـة العربية والإسـلامية إلى تحقيق الوحدة وصناعـة النهضة؟ وهل ينسى المختلفـون فكرياً وأيديولجياً والمنقسمون على أنفسهم ما بينهم من خلافات و يطئوها بأقدامهم قوةً البنيان ووحدةً للصف!! وهل يتجاوز المسـلمون قضية سـنة وشـيعة و يعلموا أنهم فى النهايـة مؤمنون بكتاب واحد ومصدقـون بنبى واحد، وعقيدة واحدة لا تفرق بين الرسـل وهم بهم مؤمنون، وأن الأصـول إذا اتفقت كما هو حالنا، فلا ضير أن نختلف فى الفروع، ولا ضير أن يحترم بعضنا بعضاً ويحب بعضنا بعضاً لا أن نضع عداوات وخلافات نحن فى غنى عنها..

متى نفيق؟ ومتى النصر؟!

السُبُل واضحة، والآليات معلومة، والآنية مطلوبة، ولكن متى هو؟

لا يعلم ذلك إلا الله، وكفى به سبحانه هادياً ونصيراً.

قائمة المصادر والمراجع.

مؤلفات: د. مصطفى النشار

1- فكـرة الألوهيـة عند أفلاطون وأثرها فى الفلسـفة الإسـلامية والعربية، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة، ط4، سنة 2005م.

2- نظرية المعرفة عند آرسطو، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط4، سنة 2000م.

3- نظرية العلم الآرسطية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط3، سنة 2000م.

4- فلاسـفة أيقظـوا العـالم، دار قباء للطباعـة والنشر، القاهرة، ط3، سـنة 1998م.

5- نحو رؤية جديدة للتأريخ الفلسـفى باللغة العربية، دار قباء لنشر، ط1، سنة 1997م.

6- نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، سنة 1997م.

7- مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية، دار المعارف، القاهرة، ط1، سنة 1995م.

8- فلسفة التاريخ، وكالة زووم برس للإعلام، القاهرة، ط1، سنة 1995م

9- مكانـة المـرأة فى فلسـفة أفلاطـون، دار الغرير للنشر، دبى، ط2، سـنة 2001م.

10- من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، سنة 2007م.

11- المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، سنة 2007م.

12- مدخل لقراءة الفكر الفلسفى عند اليونان، دار قباء، القاهرة، سنة 1997م.

13- مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للنشر، القاهرة، ط4، سنة 2008م.

14- الخطاب السياسى فى مصر القديمة، دار قباء، القاهرة، سنة 1998م.

15- تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى، ج1، دار قباء، القاهرة، ط4،سنة 2007م.

16- ضد العولمة، دار قباء، ط2، القاهرة، سنة 2001م.

17- فى فلسفة الثقافة المصرية السعودية للنشر، القاهرة، ط2، سنة 2012م.

18- تطور الفكر السياسى من صولون إلى ابن خلدون، المصرية السعودية للنشر، القاهرة، ط2، سنة 2005م.

19- تاريخ الفلسفة القديمة من منظور شرقى، ج2، دار قباء، القاهرة، ط4، سنة 2007م.

20- بين قرنين، دار قباء، القاهرة، سنة 2000م.

21- رواد التجديد فى الفلسفة المصرية المعاصرة فى القرن العشرين، دار قباء، القاهرة، ط2، سنة 2006م.

22- آرسطو طاليس - حياته وفلسفته، دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة 2002م.

23- ما بعد العولمة، دار قباء، القاهرة، ط2، سنة 2007م.

24- حقوق الإنسان بين الخطاب النظرى والواقع العملى، المصرية السعودية للنشر، القاهرة، سنة 2004م.

25- الفكر الفلسفى فى مصر القديمة، الدار المصرية السعودية، القاهرة، سنة 2004م.

26- ثقافة التقدم وتحديث مصر، المصرية السعودية، القاهرة، سنة 2004م.

27- فلسفة آرسطو والمدارس المتأخرة، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط4، سنة 2008م.

28- فى فلسفة الحضارة، دار قباء، القاهرة، سنة 2006م.

29- الحرية والديموقراطية والمواطنة - قراءة فى فلسفة آرسطو السياسية، دار قباء، القاهرة، سنة 2008م.

30- فى فلسفة التعليم، دار قباء، القاهرة، سنة 2008م.

31- العلاج بالفلسفة، المصرية السعودية للنشر، القاهرة، سنة 2010م.

21- الإنسان والحكمة والسعادة فى الفلسفة اليونانية، المصرية السعودية، القاهرة 2010م.

33- مدخل إلى الفلسفة السياسية والاجتماعية، دار المسيرة، عمان، الأردن، سنة 2011م.

34- تاريخ العلم عند العرب، دار المسيرة، عمان، الأردن، سنة 2011م.

35- أعلام الفلسفة - حياتهم ومذاهبهم - دار المسيرة، عمان، الأردن، سنة 2012م.

36- الأورجانون العربي للمستقبل، المصرية اللبنانية للطباعة والنشر، القاهرة، سنة2014م.

37- من الثورة إلى النهضة، دار المعارف، القاهرة، سنة 2015م.

ثانياً: المراجع

1- أحمد المسلماني، الحداثة والسياسة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 2003م.

2- أنا مانسيني، ماعت .. فلسفة العدالة في مصر القديمة، ترجمة محمد رفعت عواد، تقديم د. علي رضوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009م.

3- إبراهيم شحاته، وصيتي لبلادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م.

4- السيد محمود أبو الفيض المنوفي، نقد الحضارة المعاصرة، دار نهضة مصر، القاهرة، 1981م.

5- السيد محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، دراسة د. عاطف العراقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2009م.

6- ابن باديس: كتاب آثار ابن باديس، اعداد وتصنيف د. عماد طالب، طبعة الجزائر 1968م.

7- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

8- أمين سامى: التعليم فى مصر، دار المعارف، القاهرة، 1917م.

9- أحمد اسماعيل حجى: نظام التعليم فى مصر، دار النهضة العربية، القاهرة 1987م.

10- الإمام محمد عبده: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، بيروت، 1972م.

11- أبو الأعلى المودودى: الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، القاهرة، 1977م.

12- أبو الأعلى المودودى: الجهاد فى سبيل الله، القاهرة، 1977م.

13- جميس هنرى برسنيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م.

14- حسين سليمان قورة: الأصول التربوية فى بناء المناهج، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

15- روجيه جارودى، الإسلام، ترجمة د. كمال جاد الله، دار الجليل للنشر، القاهرة 1997م.

16- سماح رافع محمد: تدريس المواد الفلسفية فى التعليم الثانوى فى مصر والدول العربية، دار المعارف، القاهرة، 1967م.

17- عبد الغفار مكاوى، لم الفلسفة، منشأة المعارف، الأسكندرية، 1981م.

18- عزت قرنى، الفلسفة المصرية شروط التأسيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م.

19- على عبد الواحد وافى، بين الشيعة وأهل السنة، دار نهضة مصر، القاهرة، 1984م.

20- عباس العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، نهضة مصر، القاهرة، 2003م

21- عصمت نصار، الخطاب الدينى والمشروع العلمانى وجهان لعملة زائفة، روافد للنشر، القاهرة، 2014م.

22- عصمت نصار: من جوَّه نبدأ، دار الهداية، القاهرة، 2012م

23- عصمت نصار: الفكر المصرى الحديث بين النقض والنقد، دار نهضة مصر، القاهرة ،2007

24- عودة بطرس عودة، الوحدة العربية هى الحل، ج1،ج2، المطابع المركزية، عمان، الأردن 1990م.

25- عبد الرحمن الكواكبى: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، بيروت، 1975م.

26- مراد وهبه: جرثومة التخلف، دار قباء للنشر، القاهرة، 1998م.

27- مراد وهبه: ملاك الحقيقة المطلقة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

28- مصطفى الفقى: تجديد الفكر القومى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

29- محمد خليفة التونسى: الخطر اليهودى (كتاب مترجم)، دار الكتاب العربى، القاهرة، 1951م.

30- مصطفى عبد الغنى، الجات والتبعية الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

31- محمد عمارة: الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى، دار المستقبل العربى، القاهرة، 1985م.

32- محمد رشاد خليل: شخصية مصر التاريخية، مجلة "الدعوة" عدد ربيع الثانى، مارس 1978م.

33- محمد زكريا الكاندهلوى: المودودى، ماله وما عليه، البيان العربى، القاهرة، 1979م.

34- محمد عمارة: العرب والتحدى، القاهرة، 1982م.

35- محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامى، القاهرة، 1983م.

36- محمد عمارة: مسلمون ثوار، بيروت، 1979م.

37- محمد عمارة: الإسلام والثورة، بيروت، 1980م.

الفهرس

الموضوع	صفحة
الإهداء	7
شكر وتقدير	11
على سبيل التقديم: قبل البداية.. أثر وحكاية	13
الفصل الأول: الفلسفة والفيلسوف	27
تمهيد	31
أولاً: الفلسفة	33
1- أهمية الفلسفة حضارياً	37
2- الفلسفة والعلم	38
3- واقع الفلسفة عربياً	40
ثانياً: الفيلسوف	45
1- الفيلسوف والمجتمع	46
2- متطلبات المبدع	47
3- النشار وسماته	49
الفصل الثانى: الغرب والشرق .. صراع أم تعاون	57
تمهيد	61
أولاً: العلاقة بين الغرب والشرق والأوهام الغربية	64

1- قيام الحضارة الغربية على الأصول الشرقية 64
2- الوهم الغربي الكبير 70
3- عنصرية الغرب 73
ثانياً: أثر الإسلام على أوروبا 75
ثالثاً: نقد الحضارة الغربية 78
الفصل الثالث: لماذا؟ ومعوقاتها 87
تمهيد 93
أولاً: لماذا؟ 96
1- الماضي التليد 97
2- التخطيط الغربي لإلتهام العرب 101
3- العدوان الصهيوني 106
4- تناقض النظرية والواقع في حقوق الإنسان 111
ثانياً: المعوقات 123
1- سيادة ثقافة التخلف 123
2- الأمية 141
3- غياب العدالة الإجتماعية 144
4- كثرة الأقوال وندرة الأفعال 150
الفصل الرابع: البداية ثقافياً 157
تمهيد 163
أولاً: أهمية الإصلاح الثقافي 166

ثانياً: مجالات الإصلاح الثقافى 172
ثالثاً: الحرية الفكرية 176
رابعاً: فيلسوف الثورة 180
الفصل الخامس: آليات صناعة النهضة عملياً 185
تمهيد 191
أولاً: تحديث النظام التعليمى 194
1- تطوير منظومة التعليم ككل 194
2- عقبات فى طريق التطوير 200
3- مواد التعليم الرئيسية 203
ثانياً: تجديد الخطاب الدينى 207
ثالثاً: التسامح 220
رابعاً: دور الشباب 225
خامساً: الوحدة القومية 229
أ- تكتل اقتصادى قومى 244
ب- إنتاج تكنولوجيا عربية 250
ج- شكل الوحدة المنتظر 254
د- نداء إلى عقلاء العرب حكاماً ومحكومين... 258
العرب من الفناء إلى البقاء 264
الخاتمة 273
المصادر والمراجع 287